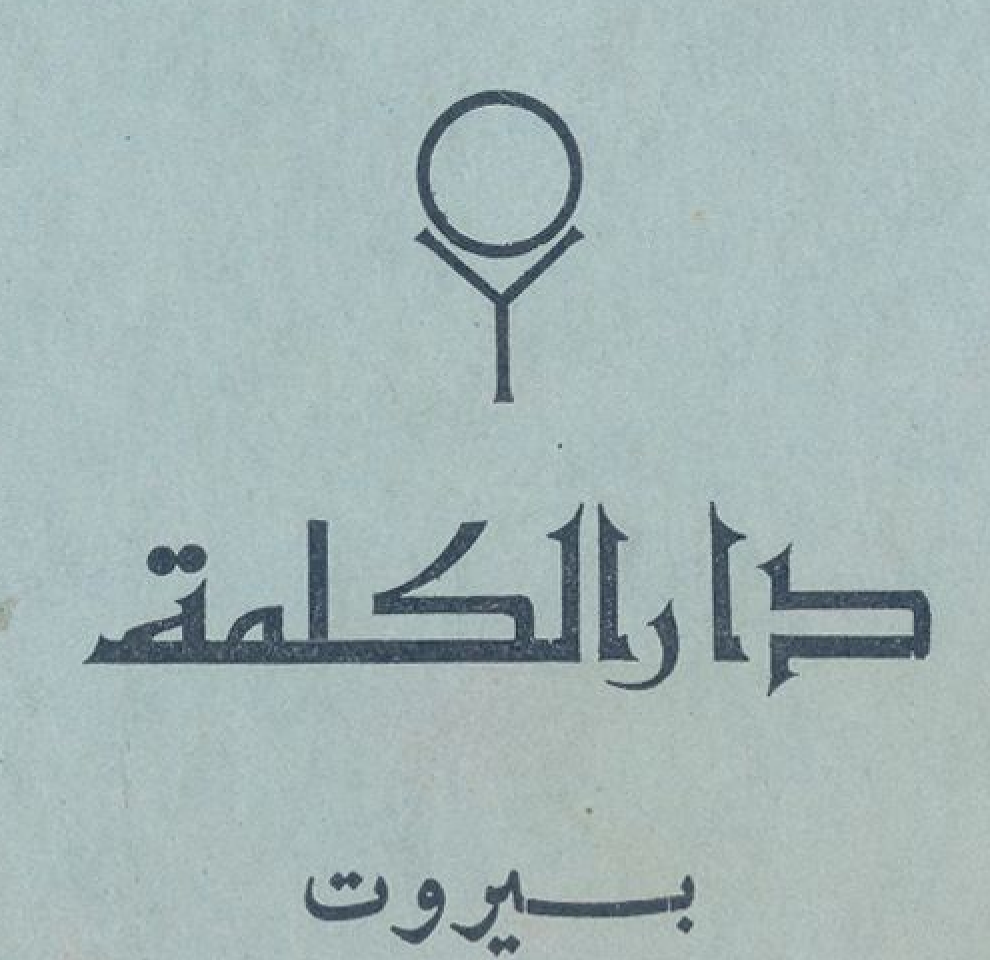
دائرة المعارف المسيحيّة
تحت إشراف دار السّلام
بإدارة الأب يُواكيم مبارك

المسيح ابن مريم

تأليف

جاك جومير
دكتوراه الدولة في الآداب
من جامعة باريس

سامى اليافى
ليسانس في الآداب
من جامعة القاهرة



بيروت

دائرة المعارف المسيحيّة
تحت إشراف دار السّلام
بإدارة الأب يُواكيم مبارك

المسيح ابن مريم

تأليف

جاك جوميير
دكتوراه الدولة في الآداب
من جامعة باريس

سامى اليافى
ليسانس في الآداب
من جامعة القاهرة



بيروت

الفصل الاول

فلسطين في عهد السيد المسيح

انقضى على الحوادث التي نود الوقوف عندها في هـــذا الكتاب عشرون قرناً ، منذ أن غادر يسوع بلدته الناصرة ، ليطوف في القرى المطلة على بحيرة طبرية ، منادياً بملكوت الله . خطوة حاسمة ، سبقتها ثلاثون سنة او نيف ،قضاها يسوع في مزاولة صناعة الأدوات الخشبية التي تتطلبها حياة القرية الضيقة البسيطة .

ولا عجب أن يلتف حوله عدد من الأتباع ،فلقد كان لكلامه وقع بالغ في النفوس ، لأنه كان يتكلم عن الله وعن الشريعة بسلطان وجرأة لم يسبقه إليهما متكلم ، حتى ذهب الأمر ببعض المتزمتين المغرضين إلى حمل كلامه على التجديف ، ورميه بالتطاول الأثيم على الله .

وإذا بالانباء تترى مؤكدة قدرته العجيبـــة على إبراء المرضى ، دون ما سبب طبيعي معروف . الأمر غريب ، وأغرب منه ، شخصه المطبوع على اتزان المزاج واعتدال الطبع ونبل الشعور والطيبة الشاملة: لقد كان يحنو بصفة خاصة على الشعب الفقير الكادح ، ويحدب على كل ذي مرض وبؤس ، ولا يستنكف من خفض جناح الرحمـــة للخطأة

أنفسهم ، وإن كان شديد السخط على الشر ، قاسياً على الذين يتسببون في عثرة الضعيف وإغوائه . غير أنه لم يكن ليعطف على فئة من الناس، كانوا ينتحلون البر لانفسهم ، فيستعلون ويستكبرون ، غير آبهين بمن دونهم من عباد الله .

ويذيع صيته ويغدو اسمه حديث الناس طراً ، وهم من أمره في شغل شاغل وحيرة منغصة : من يا ترى عساه ان يكون ؟ أواعظاً شعبياً تطوع داعياً الى الاصلاح ؟ أم نبياً مرسلاً من قبل الله ؟ ثم ما سر هذه القدرة العجيبة التي تشع من عينيه ، بل ومن قسمات وجهه ، تنطلق من يديه بل ومن كل جسمه ، إذا ما أتى بإحدى هذه الكرامات المعجزات الخارقات ؟ ألا يكون هو المسيح الذي كان الجميع يترقبون مجيئه حينذاك في فلسطين ؟.

وراح الناس يرقبون وينصتون ؛ وما هي إلا شهور حتى كانت المواقف قد تحددت في أمره : فمن معارضين أخذوا يضربون حوله سياجاً من المؤامرات ونطاقاً من الشكوك ، الى مريدين راح إيمانهم به يتوثق يوماً بعد يوم ، إيمانهم بحلول عهد الله وملكوته على يديه . أما يسوع ، فكان لا ينفك يبشر بهذا الملكوت ، مدعماً دعوته بآيات الله البينات التي كانت تنثرها يداه.وقد كان ايمانهم هذا نقطة الانطلاق لتلك الحركة الدينية الشاملة التي عرفت باسم المسيحية .

ونرى لزاماً علينا ، قبل مواصلة البحث ، ان نلقي نظرة ولو عابرة على البيئة الجغرافية التي جرت على مسرحها حوادث هذا الكتاب.

تمتد فلسطين كالشريط بمحاذاة الساحل الغربي للبحر المتوسط ، شمالي بلاد العرب . لا تخلو الطبيعة فيها من جمال ، جمال ساذج مصدره زرقة السماء وصفاء الضوء ، وإن اتصف احياناً بالهيبة والجلال. تصوّر مجموعة من المرتفعات قد تبلغ الألف متر في نقطتين او ثلاث ، وسط سطح نحتته عوامل التعرية ، فاذا بهذه المرتفعات تتحول إلى تلال مستديرة جرداء ، تتخللها الاودية والسهول والظواهر السطحية الاخرى التي بفضلها استقرت التربة الحصوية التي تتكون منها الحقول: هذه هي المنطقة الجبلية التي يبلغ طولها حوالي مائتين من الكيلومترات بالقياس الجوي .

وتنتشر زراعة القمح والشعير حيث لم يبلغ النحت الصخر الصلب، وأما الكروم ذات الاغصان الزاحفة ، فهي تنبت حيث تسمح بذلك ظروف المناخ ؛ وأما التين والزيتون ، فيكادان يجودان في كل مكان، في حين يكاد ينعدم النخيل في المناطق الجبلية أللهم إلا اذا استثنينا بعض السفوح المشمسة ، لانه لا يطيق برد الشتاء .

ومن الطريف ان نلاحظ ان مختلف الظواهر السطحية تتعاقب بحيث تسمح بالرؤية الى مدى بعيد ، فتستطيع من قمم بعض الجبال أن تلمح زرقة البحر المتوسط تلوح لناظريك إذا يممت شطر الغرب ، ولا يفصلك عنه سوى سهل ساحلي متفاوت العرض . ولكنك إذا سرت تجاه الشرق ، قابلك انحدار مطرد متتابع لا مثيل له على سطح المعمورة ، لا يزال بك في الانخفاض حتى يغور تحت مستوى البحار المفتوحة ، الى ان يفضي بك الى سهل عميق ، هو في الواقع خندق

انهدام طبيعي هائل ، يمتد منحنيـاً من الشمال إلى الجنوب ، ويخترقه في طوله نهر الاردن . وفي الجنوب ، ينصب هذا النهر في البحر الميت ذي المياه المشبعة بالملح ، وهو غاية في الغـور ، إذ تنخفض شواطئـه أكثر من ٣٩٠ مـتراً تحت سطح البحر المتوسط ؛ وأمـا في شمـال الأخدود ، فتقع بحيرة عذبة ، أطلق عليها اسم بحيرة الجليل او بحيرة جناسر ، او بحيرة طبرية .

وتشهد خريطة توزيـع الامطار بأن منطقة فلسطين الشمالية ، أي الجليل ، هي اكثر البلاد مطراً ، تليها جنوباً منطقة السامرة ، وهي لا تخلو من اودية خصبة ، بيد ان منطقة اليهودية في الجنوب كثـيرة الجفاف ، قليلة الامكانيات الزراعية ، وربما أشعرت المسافر بأنه على حافة الاراضي المزروعة ، فالصحراء تعقبها مباشرة ، محتـلة حوض الاردن الأسفل ومنخفض البحر الميت ، حيث ارتفاع درجة الحرارة وكثافة الهواء يحولان دون سقوط المطر إلا لمامـاً . فاذا غادرت مرتفعات اليهودية وسرت في المنحدر الشرقي او الجنوبي ، صادفتـك صحراء شاسعة ، لا يطيق العيش فيها سوى النفر القليل من البدو الرحل

أما اقتصاديات البلاد ، في الفترة التي تعنينا ، فكان اعتمادهـا على الزراعة والرعي ، فغالبية السكان يعيشون في الريف او في القرى المطلة على الشواطيء ؛ وانـه لمن اليسير أن نتصـور يسوع متنقلاً في بيئة المزارعين وصيادي الاسماك ، حول بحيرة طبرية ، وبين صغار الموظفين والتجار ورجال الدين ، وهو يبدو في كثير من الوجوه كواحد منهم ،

ولا شك أن عينيه ألفتا المناظر التي ألفوها ، حتى إذا ما تكلم بلهجته التي كانت أشبه بلهجة اهـل الجليل ، لم يكن من الغريب ان تأتي تشبيهاته مستمدة من حياة أهل القرى والريف .

ونخلص من هذا التمهيد إلى الكلام عن الديانة اليهـودية ، وهي التي كانت تضفي على هذا البلد صبغته الخاصة الفريدة . لا جدال في ان فلسطين انفردت ، وسط الشعوب المجاورة ، بعبـادة الإله الواحد ، بينما راحت الامم الاخرى تعبد الاصنام المنحوتة والاحجـار المقدسة وربات الغابات والينابيع وحورياتهـا ؛ وكان العالم العلوي ، في عرف هذه الامم ، عبارة عن مجتمع من الآلهة يعيشون كما يعيش الناس ،لهم ما للناس من مزايا ومن عيوب . أما هنـا ، في فلسطين ، فلم يكن أحد ليرتضي مثل هذا التصوير الخرافي : فإن بني اسرائيل ، وهم من سلالة القبائل الآرامية الرحل ، التي كانت قد استقرت في البلاد ، على حسب رواية الكتاب المقدس والقرآن ، كانوا يحمـلون معهم إيمانهم بالإله الواحد وثقتهم الراسخة بحمايته .وقد يطول بنا الكلام لو عرضنا كيف قاوموا الديانات الوثنية ، وما هو الدور الذي لعبته طائفة من الرجال الملهمين ، وهم الأنبياء ، لإحياء الحماسية الدينية في ايام الشدة والضيق .. وحسبنا ان نعلم أن التوحيد بالله كان قد انتصر انتصـاراً شاملاً في البلاد منذ زمن بعيد ، مصطبغاً بالصبغة اليهودية ؛ فالشعب يعبد إلهاً واحداً ، ويعترف بمجموعة واحـدة من الكتب المقدسة ، وكانت العاصمة اورشليم عاصمة ديانة التوحيد ، حيث كان مقر الحـبر الأعظم ، الرئيس الديني الأعلى ، وحيث شيد مبنى الهيكل ، المعبد

الوحيد الذي كانت تقدم فيه الذبائح ، وكان يرتفع شامخاً رائعاً فوق ربوة رحبة تحتل قلب المدينة ، اليه تصعد افواج الحجاج ووفود البلاد الأخرى في كبرى الحفلات الدينية السنوية .

ولا شك أن الدين كان عاملاً فعالاً من عوامل تربية الشعب وتوثيق الروابط التي جمعت بين افراده . ففي كل قرية أقيم المجمع او الكنيس، حيث كان اليهود يجتمعون أيام السبت وفي الاعياد ، لأداء الصلاة وممارسة الشعائر الدينية ؛ هناك كان الوعاظ يذكّرونهم بالله وبتعاليم الانبياء ويفسرون الشريعة التي أوحى بها الله الى موسى ، كما كانوا يقصون عليهم أخبار جهاد الأجيال الغابرة للقضاء على الوثنية ، وما تكبدته الامة في سبيل ذلك من محن وأرزاء ، راح ضحيتها هؤلاء الشهداء الذين فضلوا الموت على النكسة والارتداد . ولكن قيام الشعائر في المجامع المحلية لم يؤثر في قوة العلاقة بين القرى والعاصمة ، لانتظام حركة الحج ، ووجود الأقارب والاصدقاء في اورشليم ؛ فلم تستطع الانعزالية او الاقليمية ان تثبت اقدامها في المقاطعات .ويخبرنا الإنجيل ان يوحنا بن زبدى كان من معارف الحبر الاعظم في أورشليم ، بالرغم من أنه كان من الجليل ؛ وكان كذلك عدد من كبار العلماء من أصل ريفي ؛ ولم يحدث ان استغرب احد وجود يسوع يعلم في الهيكل ، كلما سنحت له الفرصة ، ولا غرو ، فقد كان بيت الله بيت الجميع .

وكانت الوحدة الدينية لا تحول دون شيء من التنوع في الاتجاهات والميول ، كما هو شائع بين الناس ، واكثر ما كانت تتجلى

هذه التيارات بين رجال الدين والأعيان ، في اورشليم خاصة وبعض مدن الاقاليم . ومن بين هذه الفئات الواضحة المعالم او العميقة الأثر ، يحصي المؤرخون عدداً من الطوائف ، او من المدارس الدينية ، سوف تتردد أسماؤها كثيراً بين يدي القاريء. وهم الصدوقيون ، والفريسيون والأسينيون .لم يكن ثمة خلاف بينهم من حيث الايمان الراسخ بالتوحيد والحرص على نص الشريعة المكتوب ، بل كان الخلاف يبدو على أشده فيما يتعلق بقيمة التقاليد الموروثة : فالصدوقيون لا يأبهون بما سوى نص الشريعة المدوّن في التوراة : فالتأويلات والاستدلالات القائمة على اجتهاد العلماء كانوا يرفضونها رفضاً باتاً ؛ كما رفضوا ايضاً الأيمان ببعث الاجساد الموحى به في نصوص الكتاب الحديثة ، بحجة ان موسى والأنبياء القدامى لم يشيروا إليه قط . وكانوا بطبيعة الحال من المحافظين ، وربما ساعد على ذلك انهم كانوا من أصحاب الجاه وارباب الثراء ، إذ ان الأسر الكهنوتية الكبيرة كانت تنتمي الى جماعتهم .

وأما الفريسيون فكانوا لا يقتصرون على نص الشريعة المدوّن ، بل يضيفون إلى حفظ الوصايا شعائر موروثة كثيرة ، ويعلقون اهمية كبرى على التقاليد الشفهية التي اعتبروها موسوية الاصل ، ترجع في حسبانهم إلى زمن نزول الوحي السينائي. وكان الاهتمام البالغ بالطهارة الشرعية ديدنهم المميز ، وهم في قضاء أدنى الاعمال اليومية ، تقودهم الرغبة في معرفة أفضل الوسائل لقضائها على اقدس وجه . من هنا كان اشتهارهم بالغيرة والحماسة الدينية . ومما فرّق بينهم وبين الصدوقيين اعتقادهم الراسخ بالبعث الجسماني . وكان مذهبهم ، بالرغم

من مرور قرنين من الزمن على إنشائه ، لا يزال محوطاً بهـــالة من الإجلال ، لانهم كانوا ينتمون الى هؤلاء اليهود الذين نجحوا في مقاومة الحركة الوثنية الهيلنستية ، في عهد المكابيين . هذا كان سر نفوذهم الواسع في طبقات الشعب ، بالاضافة إلى انتمائهم إلى بيئات شعبية أدنى الى البساطة . اما الاسم الذي اشتهروا به فمعناه المنفصلون . وكان ينتمي إلى شيعتهم كثير من علماء الشريعة ومن الكتبة ، وربما نتج عن ذلك ميلهم إلى الجدل في المسائل الشرعيـــة وتكلفهم تخريج الحلول المعقدة للمسائل الدينية الغامضة .

ظل الأسينيـــون فترة من الزمن شبه مجهولين ، إلى ان لعبت المصادفات دورهـا مرة اخرى عام ١٩٤٦ – والأمر ليس بنادر في عالم الحفريات – فما لبثت معلوماتنا عنهم ان تبدلت تماماً. ففي تلك السنة ، ١٩٤٦ ، اكتشفت بمحض الصدفة مخطوطات قديمـــة كانت مخفية في بعض المغاور والكهوف القريبة من خربة قمران ، الواقعـــة بجوار البحر الميت ؛ وقد دل التنقيب الشامل المنظم الذي أخضعت له خربة قمران والمواقع المجاورة لها ، على ان هذه الآثار كانت لصومعة او دير ، أجمع علماء الحفريات او كادوا على انها لزمرة من الأسينيين . وقـــد دلت بقايا المخطوطات المكشوفة على ان مكتبـــة الدير كانت تحوي نصوصاً من طراز آداب الرؤى الاستكشافية ، تعالج موضـــوع الانقلابات التي ستصحب نهاية العالم ، لأن الأسينيين كانوا يعتقدون بحلول عالم جديد في نهاية الازمنة ، وهذا ما كان يؤمن به الفريسيون ايضاً . ومما يشهد على ايمانهم بالله واتكالهم عليه ، تلك الادعية والأناشيد

الرقيقة التي عثر عليها هناك ، كما ان ترددهم إلى الحمامات وإقامة الموائد المقدسة يشهدان على نزعتهم الى الطهر ، وعلى مشاعر الاخوة التي كانت تربط بينهم .

وكانوا كذلك يقدّرون قيمة المحن التي يبتلي بها الله بعض عباده ، كما كانوا يحفظون عهد منشيء نحلتهم ويحيون ذكراه ، ويقال إنه كان قد عانى كثيراً من بعض مواطنيه . وهؤلاء النساك كانوا كهنة ، إلا انهم لم يصلوا حبلهم بكهنوت اورشليم ، بل فضلوا حياة الرهبنة الجماعية ؛ ولعل ابرز ما كانوا يتميزون به حرصهم على الطهارة الشرعية وحذرهم من كل ما من شأنه ان يعرض طهارتهم للتدنيس .

غير ان جانباً من البلاد كان يعيش بعيداً عن روح الوحدة التي كان يبثها الدين . تلك كانت منطقة فلسطين الوسطى ، وكان أهلها، وهم المعروفون باسم السامريين ، نسبة إلى السامرة أشهر مدنهم ، قد شقوا عصا الطاعة وخرجوا على مذهب الجماعة . وكان اليهود ينعون عليهم هجنتهم ، لاختلاط دمائهم بدماء الأشوريين ، سكان ما بين النهرين الذين أسكنتهم قوات الاحتلال قهراً في هذه المنطقة . اما من جهة العقيدة ، فكانوا موحدين متعصبين في عقيدتهم ، ولا يطعن في صحتها مقاطعتهم لهيكل اورشليم ، فكانوا يقومون بشعائر العبادة فوق الجارزيم ، جبلهم المقدس ، المشرف على مدينة نابلس الحالية . وأما فيما يتعلق بمجموعة الكتب المقدسة المعتمدة من رؤساء الدين في أورشليم فانهم كانوا لا يقرون من العهد القديم إلا الكتب الموسوية ،

وهي الكتب الخمسة الاولى .

فلا غرو أن تستحكم العداوة بين السامريين وبين اليهود على اساس من الاحتقار الراسخ المتبادل : فتقرأ مثلاً في سيرة يسوع أن قرية من قرى السامريين أغلقت ابوابها في وجه تلاميذه ذات مرة ، وهم في طريقهم إلى أورشليم (لو ٩ : ٥٣) ؛ وكثيراً ما كانت جماعات الحجاج القادمة من الجليل تغير طريقها ولا تجتاز السامرة تفادياً من شر أهلها .

إن النظرة العجلى التي ألقيناها على فلسطين تعتبر ناقصة إذا نحن لم نلفت النظر ولو لحظة إلى احوال البلاد السياسية .

كان وضع البلاد السياسي في عهد يسوع ، مؤلماً ، يتحدى المشاعر الوطنية . البلاد ترزح تحت عبء المستعمر ؛ وإنه لما يثير الدهشة والاعجاب ان تستطيع مثل هذه الامة الصغيرة ان تحفظ كيانها في اثناء الاثني عشر قرناً التي سبقت مجيء المسيح ، رغم جيرانها الذين لم تهدأ لهم ثائرة قط . لأن الطريق الموصل بين المملكتين الجبارتين ، مملكة وادي النيل ومملكة ما بين النهرين ، يخترق سهل فلسطين الساحلي ؛ وقد عاشت فلسطين آمنة في حمى جبالها ، طالما بقيت كلا المملكتين منطوية على نفسها ؛ ولكن عندما انتهجتا سياسة التوسع والفتح ، بدت الحاجة إلى إنشاء القواعد الحربية في فلسطين ماسة ملحة : فخيم الخطر على البلاد ، ثم سقطت فريسة لأقوى الفريقين ، ودام الاحتلال الاجنبي سنوات عديدة ، إلى ان لاح من الشمال فاتح

جديد ، هو الإسكندر المقدوني ، فغزا البلاد واستقرت جيوشه على أرضها ، حتى اذا ما وافته المنية ، تقاسم قواده إمبراطوريته الشاسعة، مؤسسين فيها الممالك والدول العديدة .

وجاء الغزو الاخير من الامبراطورية الرومانية . أرادت روما أن تحتل إقليم شرق البحر المتوسط وعملت على أن تضمن لجيوشها حرية المرور في فلسطين ، فاستولت على اورشليم سنة ٦٣ ق م ، وانتهجت في البداية نظام الحماية ،تاركة ظاهر السلطة لملك محلي متّنت عليه بالسلطان ،فضمنت ولاءه وإن لم تكف عن مراقبة حركاته . وهكذا تولى الحكم في اورشليم رجل آدومي متهود ، هو هيرودس الأكبر ، الذي حكم البلاد من سنة ٣٧ الى سنة ٤ ق م ، فكان سياسياً ماهراً وعاهلاً عتياً قاسياً ؛ ربما زاد من شدته أنه لم يكن سعيداً في بيته .وبعد موته ببضع سنوات،أي سنة ٦ ميلادية على وجه التحديد، وضعت روما حداً لهذا النظام ، نظام الحماية أو نظام الاستعمار المقنع، وأخضعت البلاد لحكمها المباشر ، فضمت مقاطعتنا اليهودية والسامرة في ولاية رومانية واحدة ، عيّن لادارتها وال روماني . ولم يستثن من هذا التنظيم إلا بعض المقاطعات الصغيرة القليلة الشأن التي أبقيت تحت إشراف الامراء المحليين ، وكان من بينهم هيرودس أنتيباس ، أحد أبناء هيرودس الأكبر ، وقد احتفظ بمقاطعته المشتملة على منطقتي الجليل وبيريه ، وهذه الاخيرة كانت عبارة عن شريط من الاراضي يمتد بمحاذاة ضفة نهر الاردن الشرقية . وقصارى القول انه عندما شرع يسوع يبشر بملكوت الله كانت روما صاحبة السيادة المطلقة في

اورشليم .

كانت أمة يسوع آنذاك تعيش آخر سنواتها كأمة ذات وطن وكيان : ففي عام ٧٠ م ، سوف تعتري البلاد ثورة عارمة يخمدها الرومان بالحديد والنار ، فيدكون الهيكل دكاً ، ويسحقون السكان التعساء سحقاً ، حتى يصبح الباقون منهم كالغرباء في عقر دارهم .

ولكن الموقف لم يكن قد تفاقم بعد في عام ٣٠ م . ومن حقنا أن نتساءل عن الحال التي بلغتها الاذهان عندئذ ، أكانت تشكو من التدهور والانهيار ، أم على النقيض من ذلك وجدت دلائل وعلامات تبشر بجيئة حقة تبعث على الامل والاطمئنان ؟.

الواقع ان البلاد لم تخل آنذاك من الرجال المبرزين ، فقد وجدت النفوس الخيّرة الطموحة إلى البر والكمال ، كما وجد الابطال الذين آثروا الموت على حياة الذل والاستعباد ، وقد شهدت بذلك الثورات الشعبية التي كانت تشب بين الفينة والفينة ضد المستعمرين الرومان . لقد عرفت هذه الفترة رجالاً كانوا على أهبة الاستعداد لتلبية اول نداء يبلغهم من زعيم وطني شجاع . ألا نحصي من بين أتباع يسوع شباناً كانوا قد هجروا قراهم ليتتلمذوا على النبي يوحنا المعمدان قبل ان يلتحقوا بيسوع ليصبحوا له تلاميذ ؟ وها هم الأسينيون أولاء ، في صوامع وادي قمران ، قد قنعوا عن طيب نفس بحياة كلها تقشف وزهد وحرمان ، ابتغاء مرضاة الله .

كل هذه الامثال تشهد بأن هذه الفترة لم تعدم النفوس النبيلة

الكريمة القادرة على البذل والتضحيــــة في سبيل المثــــل الاعلى ، في سبيل الله .

اما فيما يتعلق بالحياة الروحية ، فبالرغم من التضييق الذي تجلى في التمسك بأهداب النص وحرفية الشرع ، كانت النفوس تستمد غذاءها من المزامير والاناشيد الدينية ، تجد فيهــا الحافز القوي على وضع الثقة التامة بالله والاتكال الكلي عليــه ؛ ولم يكن نادراً أن تقابل في الحيــاة اليومية رجالاً صالحين من أمثال ذلك الذي نقرأ عنه في الانجيل ،وقد كان حفظ الوصايا الاخلاقية الكبرى منذ نعومة أظفاره (مر : ١٠ ١٩ ، ٢٠) وعلى ذلك ، فانه من الظلم ان ندمغ هذه الفترة بالانحلال ، وربما كان أقرب الى الصواب الاعتراف بأن الظروف كانت آخذة في التعسر والتعقد . إن مأساة هذا الجيل تتمثل في ان الصفوة الدينيــة ذاتها صرفت عنايتها إلى مشاكل الجــدل الشرعي ، وقصرت عن أداء دورها القيادي كما ينبغي ، فقد كان سواد الشعب نسياً منسياً ، وكان شعور يسوع بهذا الاهمال عميقاً ، كما يشهد بذلك الانجيل : « وعندما رأى الجموع تملكـــه الإشفاق والعطف ، لانهم كانوا يئنون إعياءً وإرهاقاً ، كالنعاج لا راعي لها » . (متى ٩ : ٣٦) .

والذي زاد الحال سوءاً أنه وجد من بين الوجهاء من كان يحمــل احتقاراً عميقــاً للطبقات الشعبية ، اهـــل الارض الجاهلين بدقائق الناموس وتفاصيـــل الشرع . إن خطر الشرع أن الذين يتشبثون بحرفيته ، سرعان ما يحسبون أنفسهم ابراراً صالحـــين . وإذا تسلل

الكبرياء الى الاعمال الحسنة ، أفسدها وحوّلها الى استعراض أجوف يقصر عن إرضاء الله . هكذا يبدو لنا هذا المجتمع : خصال حميدة لا سبيل الى انكارها ، وتقصير لا سبيل إلى تفاديه إلا بالتماس النعمة من عند الله .

وربما كان من أجمل مزايا هذا المجتمع الرجاء ، رجاء راسخ دعمته القومية بدلاً من ان تنال منه . إن بني إسرائيل عاشوا قروناً عديدة يحدوهم الامل والتطلع . وأنىّ للشك ان يمس قلوبهم وهي التي ما زالت مفعمة بذكرى نعم الله وفضله عليهم ؟ ألم يفضلهم على سائر شعوب العالم ؟ والآن إنهم ينتظرون من قدرته الالهية السعادة والسلام والنصر . لقد كان تاريخهم سلسلة من الصفحات الناصعة التي تظللها أجنحة السلم والصفحات السوداء التي أذاقتهم مرارة الهزيمة وشقاء السبي والتشريد ، ولكنهم لم يقنطوا قط ، لانهم كانوا أغنياء بوعود الله ، وما اكثرها بين دفتي الكتاب المقدس . وما اجمل المستقبل الذي تزينه لأعينهم ! فاذا أمعنوا النظر فيه بدت لهم الحياة اليومية بسرائها وضرائها باهتة كالحة . لذلك صمدوا أمام المحن وتجملوا بالصبر ، وان كانوا بين الفينة والفينة يبثون شكواهم الى الله مما يعانونه ، كما يتضح من المزمور ٨٩ (او ٨٨) حيث شرع الكاتب الملهم بذكر ما وعده الله للملك داود ، ثم أخذ يرسم صورة قاتمة للواقع المؤلم الذي كان يحياه ، وراح بعد ذلك يتساءل : ما هي خطة الله المرسومة بالنسبة لشعبه ؟ وإذا كان الله قد منّاهم بكل هذه المعجزات الباهرة ، فلماذا كانوا عن تحقيقها بعيدين بعد السماء عن الارض ؟ .

إلا ان الناس أخذوا يهتمون بأمر هذه الوعود ويفكرون في شأنها؛ وقد نجملها في كلمتين اثنتين : المسيح وملكوت السماوات .

أما المسيح ، فكان الجميع يترقبون ظهوره . إن الله كان قد وعد داود الملك بأنه لن يتخلى عن شعبه ، وان خلفاً من نسله سيعتلي عرشه ويستقر عليه الى الأبد . وظل هذا الوعد معيناً استمد منه المؤمنون الصبر في الملمات والشجاعة في اوقات الضيق ؛ وقد حرص الانبياء على تذكيرهم به كلما دعت الحال وأصبحوا عنه غافلين . وأما هذا الملك الموعود ، ابن داود الذي كان موضع أمل الجميع ، فكانوا يطلقون عليه لقب المسيح ، أي الذي مسح بالزيت المبارك . وكلمة المسيح هذه ، وهي تعادل الكلمة اليونانية كرستوس ، كانت معروفة منذ عهد بعيد ، فأطلقت على الملوك والكهنة والانبياء الذين نالوا مسحة الزيت المقدس . ولكنه واضح ، في ميدان البحث الذي نحن بصدد الخوض فيه ، ان اللفظة لم تقصد لمجرد التكريم العادي ، إنما عني بها الشخص المنتظر (وربما كانوا ينتظرون اكثر من شخص واحد ، حيث ان لفائف وادي قمران تشير الى اثنين) مهما يكن نوع النظرة التي كان ينظر بها إلى المسيح ، فانهم كانوا يقرنون ظهوره دائماً بنهاية مرحلة من فترات تاريخ العالم ، حيث يحل السلام والسعادة اللذان كانا نشدان الجميع . ولكن هذه النهاية ألم تعد وشيكة الوقوع ؟ هذا ما راح البعض به يتساءلون ويتناظرون .

ولا يظن ان حوادث الغيب هذه كانت لا تهم غير بني اسرائيل. إن المسيح سوف يكون له مقام عالمي يمتد الى الانسانية بأسرها. لأن الله خالق السماء والارض وهو سيد العالم؛ وقد أشار الكتاب المقدس مراراً إلى انه سيأتي يوم تخضع فيه الارض كلها للإله الواحد وتعبده وحده، كما أكدت ان الشعب الذي طالما هداه الانبيـــاء في سبيل التوحيد، سيقوم بدور إيجابي في نشر هذه العبادة، وان كان هـذا الدور لم يتضح بعد جلياً في الأذهان. ولكن الامر الذي لا خلاف فيه أن بعد انقضاء الفترة التي سيقوم المسيح فيها بأعماله الجليـلة، سوف تندحر قوات الشر اندحاراً، ويتحقق ملك الله على جميع الكائنات. وبذلك يبدأ ما كانوا يسمونه باللغة العبرية أو بالآراميـــة ملكوت السماوات. وكانت كلمة السماوات بديلاً لأسم الجلالة، لتأثم اليهـود من ذكر اسمه تعـــالى، تقديساً له وإجلالاً، في حين لم تستشعر الاوساط اليونانية مثل هذا التحرج، فوردت على لسانها العبـــارة الأصلية «ملكوت الله» دون الاخرى المرادفة لها.

وقد كان لكلتا الكلمتين: كلمة المسيح وكلمة ملكوت السماوات، رنة جميلة تبعث الأمل في شعب طالما عانى من مرارة الألم وذل الهوان. صحيح انها لم تكن تشغل بال الجميع على حد سواء، ولكن ما اكثر النفوس التي فجرت فيهـا هذه المعـاني ينابيع من الشجاعـة لم ينضب ماؤها، فكانت نداء الأمل المشرق إلى الحياة وإلى العمل. وليس من

شك في ان الشيخ سمعـان لم يكن نسيج وحـده ، بل كان له نظراء كثيرون ، أولئك الذين كانوا يعيشون حياة بر وتقوى ، ولا ينتظرون من الحياة شيئاً سوى مشاهدة المسيح الموعود قبل ان يدعـوا أجفانهم يطبقها الموت . (لو ٢ : ٢٥ – ٢٦) .

الفصل الثاني

يوحنا المعمدان ، الرائد

في أواخر عام ٢٧ او أوائل ٢٨ من التقويم الميلادي — وقد حدد البشير لوقا هـــذا التاريخ بقوله : في السنة الخامسة عشرة من حكم الامبراطور الروماني تيباريوس — ظهر رجل من أتقياء الله في صحراء وادي الاردن ، بالقرب من مدينة أريحا ،وراحت الجموع تهرول نحوه، ملتهفة منقادة . كان اسمه يوحنـــا . سمع ذات يوم دعوة من السماء ، كتلك التي سمعها إيليا النبي ، فقرر ان يقضي حياته في النسك والتقشف؛ ومن غريب الصدف أنه اعتكف في المكان نفسه الذي تم فيــه ارتقاء ايليا النبي واختفاؤه عن الانظار ، كما ورد في العهــد القديم . وكان كساؤه من جلد الحيوان وطعامه الجراد والعسل البري .

إلا انه لم يقطع صلته بالناس ولم يفزع منهم الى المغاور والكهوف ، شأن الكثيرين من امثاله ،بل أخذ يعظهم ويخلص لهم النصح والارشاد. وسرعان ما ذاع صيته في انحاء الوادي وفي مقاطعة اليهودية المجاورة ، فكان الناس ينحدرون من اورشليم وغيرها من المدن والقرى رغبــة في سماع كلمته . ومن المفارقات التي لا تغيب على الفطنة ، أن تأثيره

في الناس كان بقدر رغبته في العزلة والتفرغ إلى الله . وتهافتت القلوب تلتقط أقواله ، فتتناقلها الألسن ، وتمعن الاذهان في تأملهـا على طول الطريق الذي كانوا يقطعونه في ترددهم عليـه ذهاباً وإياباً . وبما أن رسالته كانت غاية في البساطة ،فلم يكن ثمة خشية عليها من التحريف. ونستطيـع إيجازها في ندائه الذي اهتزت له النفوس : « استعدوا ،لقد دنا ملكوت الله » . إذن لقد اوشك ان يقع ذلك الحدث العظيم ، قبلة الانظار ومعقد الآمال ! فما رسالة يوحنا إذن إلا دعوة الى الاستعداد والتهيؤ ، وإنذار من عاقبـــة الاهمال والتخلف ، يوم يدعى كل فرد لكشف حسابه . فكان يضيف الى هذا الاعلان قوله المشهور : «اقلعوا عن حياة الفساد وكفروا عن الذنوب والآثام » .

كان يستقر حيث تتوفر المياه ، على شاطيء الاردن ، او بجـوار رافد او نبع ، ويؤمه الناس في سعيهم إلى التوبة على يديه ، لا يأنفون عن الإقرار بخطـاياهم ، علانيـــة وجهاراً ، ثم ينحدرون الى النهر ، فيصب عليهم ماء المعمودية ، رمزاً للتوبة ودلالة على التطهـير ؛ ومن هنا جاء لقب المعمدان او المعمد الذي اقترن باسمه .

وفي بعض الاحيان كان الذين يفدون اليه يطرحون عليه السؤال الذي يلقيه على نفسه كل انسان حسن النيـة سليم الطوية : « ما الذي يجب علينا ان نفعل ؟ » وينبعث جوابه صريحاً لا هوادة فيه ولا لين، يبين القبلة ويرسم النهج ، وإن كان لا ينفك يوجـــه الأنظار الى ذلك الآتي من بعده هادياً ومقوماً ومكملاً . طالب بالوفاء في أداء الواجب

اليومي ، وبمد المعونة الصادقة للفقراء والمعوزين ؛أما الموظفون ورجال الامن فلا ينبغي ان يتخذوا من سلطتهم سلماً لتحقيق المآرب والتحكم الظالم في مصالح الرعية ، بل ليكتفوا بأجورهم ويقنعوا برزقهم ؛ وأما الجباة ، وهم المعروفون بالعشارين ، فناشدهم الانصاف والعدل والقناعة . وأهم من هذا وذاك ، كان يوحنا يهيب بالجميع ألا يهملوا واجب الرحمة والاحسان لذوي الفاقة والبؤساء ، فكان يردد على مسامعهم قوله :

« فالذي يملك ثوبين ليتصدق على الذي لا ثوب له ، وليفعل ذلك من يتوفر له قوت يومه » .

وكان في بعض المناسبات يهدر بصوت ملؤه السخط والتأنيب ، ولا يبالي ان يكون شديد اللهجة قاسياً . فقد اندس بين رواده من قصده بدافع التشكك والانتقاد ، لا الايمان والتوبة ، كبعض الفريسيين وعلماء الشريعة الذين رأوا في يوحنا داعية من دعاة البدع والخروج عن شعائر الجماعة ، او على الأقل واحداً من هؤلاء المتطرفين الذين يغالون في فرض النوافل على الناس. وقد كان الفريسيون والفقهاء يستنكرون البدع ، كما كانوا أبعد من ان يستشعروا الحاجة الى ممارسات جديدة لم تنص عليها الشريعة . وأنىّ لهم ان يشعروا بمثلها ، وهم المعتدّون بأنفسهم ، الواثقون ببرها وفضلها كل الثقة ! .. ثم ألم تتكفل الشريعة الموسوية بإشباع رغبات النفوس جميعها ؟ .. وألم يكونوا من نسل ابراهيم وافراد شعب الله المختار ؟ إن هذه العجرفة

الجوفاء كانت تثير ثائرة يوحنا وتلهب غضبه . وهل يعقل ان يترتب الخلاص على الانتساب المادي إلى فئة اجتماعية معينة ؟ فلما فاض الكيل، صرخ المعمدان في وجههم ذات يوم ، وقد تبينهم وسط الجماهير الخاشعة الوافدة اليه : « يا أبناء الأفاعي ! من أهاب بكم ان تنفروا من غضب الله المقبل ؟ إيتوا ثماراً تقودكم إلى التوبة ، ولا تغتروا بقولكم : ان أبانا ابراهيم : إني لأؤكد لكم ان الله قادر على ان يبعث من هذه الحجارة أبناء لابراهيم » . (متى ٣ : ٧ - ٩) .

وبينما هذه الاحداث تجري في وادي الاردن ، كانت الظنون تقلق راحة أولي الأمر في مقاطعتي اليهودية وبيريه : ان البادية ملجأ يعتصم به من الناس اصناف وألوان ؛ فأما النسّاك ، فنشداناً للسكينة والعزلة ، وتمكيناً من التفاني في عبادة الله ، ولكن اصحاب الفتن ايضاً كانوا يتخذون منها ستاراً يحشدون خلفه الأتباع والانصار ، تأهباً للخروج على السلطان . فالى أي الفريقين ينتمي يوحنا هذا ؟ وما المقصود من هذه الدعوة الى ملكوت السماوات ؟ أفلا تكون دعوة للخروج على ملوك الارض ؟ كلا . ان كل شيء في البرية كان مطمئناً هادئاً ، هدوء هذا السهل الخامد ، الذي طوقته الجبال واستنفدت منه الشمس ماء الحياة ... لأن رسالة يوحنا كانت رسالة دينية محضة ، تدعو الى التواضع بين يدي الله الذي تهينه الخطيئة ، وتدعو إلى الامل النابض والحياة المتجددة ، لأن حدثاً خطيراً بات على وشك الوقوع ، ومثل هذا الحدث لا يدرك حقيقته سوى طاهري القلوب .

ونتساءل في دهشة ونحن نطالع الخبر في الانجيل ، ايهما أحق

بالاعجاب ، أهي جماهير الرّواد المتعطشين الى عفو الله ، أم هو يوحنا ذاته ذو التواضع الجم ، الحريص على التقليل من شأنه وتحويل الأضواء عن نفسه : فقد راح يعلن على الملأ انه سيأتي بعده من هو أقدر منه ، ليمنح العماد الحـــق ، ذلك الذي يطهر النفس ، لأنه فيض من الروح القدس ، في حين تستمد معموديته قيمتها من مشاعر التوبة وانكسار القلب التي يجب ان تصاحب قبولها . وكان فيض الروح القدس هـذا المشبه بالنار ، علامة مميزة لدى الانبياء ، لزمن مجيء المسيح الموعود.

« انا أعمدكم بالماء دلالة على التوبة ، اما الذي يأتي من بعدي فهو اكثر قدرة مني ، ولست أهلاً لأن أفك سيور نعليه . سوف يعمدكم هو بالروح القدس والنار . ها هوذا قد قبض على المذراة بيده، وتأهب لتطهير بيدره ، فيجمع قمحه في الأهراء ، وأما الهشيم فسوف يحرقه في نار لا يخمد لها أوار » . (متى ٣ : ١١ – ١٢)

ودفع الحرص دوائر اورشليم الدينية إلى إيفاد جماعـة من الكهنة واللاويين لتحري الامر بانفسهم . فجاءوا إلى يوحنا مستطلعين محققين، معبرين في أسئلتهم عما كان يشغل بال قومهم آنذاك . كان اليهـــود يتوقعون ظهور آية من آيات القدرة الإلهيـــة ، ولكن ما عسى هذه الآية ان تكون ؟ أهي عودة النبي ايليـا إلى الارض ، منذراً بحلول زمن المسيح الموعود ؟ ام هي إرسال النبي الذي سبق ان وعـد به الله موسى الكليم ؟ . (التثنية ١٨ : ١٥ – ١٨) ربمـا لم تكن هـذه الآية سوى ظهور المسيح المنتظر ذاته ؟.

فسأل الوفد يوحنا قائلاً : من انت ؟ فأجـــاب معترفاً بالحق غير منكر : لست المسيح . فقالوا : فمن إذن تكون ؟ أإيليا ؟ فأجاب: لست هو — أأنت النبي ؟ فأجـاب : كلا . عندئذ قالوا له : إذن من أنت ، لنستطيع الرد على الذين اوفدونا اليك . ماذا تقول عن نفسك؟. فأجاب : اني صوت يصرخ في البرية قائلاً مهدوا سبيل الرب ، كما قال أشعيا النبي . ولكن المبعوثين كانوا من جماعـــة الفريسيين ، فسألوه حينئذ : ما دمت لست المسيح ولا إيليا ولا واحـــداً من الانبياء ، فلماذا إذن تعمد ؟ فأجاب يوحنـــا : انا أعمد بالماء ، ولكن بينكم يوجد من تجهلونه ، ذلك الآتي بعدي والذي لست أهـــلاً لأن أفك سيور نعليه . » (يو ١ : ١٩ — ٢٧) .

وحفظت سلطات اورشليم التحقيق ، لا لانهم استشعروا عطفاً تجاه الدعوة وصاحبها ، ولا لانهم اقتنعوا بضرورة المعمودية التي دعا يوحنا اليها ، ولكن لأنهم لم يجدوا ما يتعللون به للقضاء عليها ، لا سيما وإن ما اعتبروه بدعة لم يكن في نظرهم إلا واحـــدة من شعائر أخرى كثيرة ، كان نساك وادي الاردن الآخرون يدعون اليها ، ولم تتجاوز المسافة بين مقر يوحنا وبينهم عشرين كيلومتراً . وربما استدل القاريء مما سبق على ان حركة يوحنا لم تختلف عن تلك الغوافل : الواقع ان معموديته كانت تعطى مرة واحدة ، بخلاف ما كان متبعاً في قمران حيث كان العماد يكرر مراراً ، مما يدل على ان معمودية يوحنا كانت لا تمت الى معمودية قمران بصلة .

وانتشر صيت يوحنا وذاعت سمعته وأقبل اليه شبان من الجليل

لينضموا إلى جماعة المريدين الذين كانوا يحيطون به . فكان من بينهم ، كما نعلم ، سمعـــان بطرس واندراوس أخوه ونثانائيل وغيرهم ممن لم تذكر اسماؤهم . ويخبرنا لوقا الانجيـــلي ان يوحنا كان يعلمهم كيف يؤدون فريضة الصلاة . (قارن لو ١١ : ١) .

وذات يوم قصد يوحنا رجـل آخر من أهل الجليـل ، هو يسوع الناصري نفسه ، وقد ترك أدوات عمله وهجر حانوته ومضى لا يلوي على شيء للنهوض بالرسالة الملقاة على عاتقـــه . لم يكن الشعب يعرفه بعد ، إلا ان يوحنا علم من هو ؛ فلما دنا منه يسوع وألح عليـه لكي يعمده ، تمنع المعمدان قائلاً :

« انا الذي يجب ان أتعمـد على يديك . اما يسوع فأجـاب : لا تمانع الآن ، فهذا واجب لا بد من تأديته في حقك » . حينئـد امتثل يوحنا للأمر ، وبعد ان صعد يسوع من الماء ، إذا السماء تنفرج والروح القدس ينزل فوقه في شكل حمامـة ، في حين سمـع صوت من السماء يقول : « هذا هو ابني الحبيب ، موضع مسرتي ومستقر رضاي» .
(متى ٣ : ١٤ — ١٧)

وأدرك يوحنا مغزى الحادث العجيب الذي وقع تحت سمعه وبصره، فتأكد له ان يسوع هو الذي جاء ليعمد « بالنـار والروح » ، وشهد له بذلك . وأما معنى العبارة التي هتف بهـا الصوت من السماء ، وهي : « هذا هو ابني الوحيد » ، فسوف تفصحه الحوادث المقبلة .

وقد اتيحت ليوحنـا فرصة أخرى ليشهد للمسيح ، فلم يدعهـا

تفلت من يديه ، فجاءت شهادته غاية في السماحة والرقة ، ولم يقلل مرور القرون من قوة تأثيرها على قلب رجل القرن العشرين . قال يوحنا مشبهاً نفسه بصديق العريس الذي يحتجب خلف صديقه يوم العرس : « أنتم تشهدون لي باني قلت إنني لست المسيح بل أنا مرسل أمامه . من له العروس فهو العريس ، أما صديق العريس الذي يقف هناك وينصت ،ففرحته عظيمة عند سماع صوت العريس .وها هي ذي فرحتي اليوم كاملة غير منقوصة . له ينبغي ان ينمو ولي ان انقص » . (يو ٣ : ٢٨ — ٣٠) .

وقد قضى يسوع بعض الوقت في هذه المنطقة ، استطاع في اثنائه أن يتعرف على أولئك الذين سوف يصبحون تلاميذه الأوائل.

أما مهمة يوحنا المعمدان ، فلم تدم طويلاً بعد ذلك . ان حوض الاردن الأدنى كان يخضع لسلطتين إداريتين مختلفتين ، لا يفصل بينهما سوى خط النهر . وهناك ، على البر الشرقي ، كانت تمتد مقاطعة رئيس الربع هيرودس أنتيباس . وذات يوم ، اذا بجنوده تفاجيء يوحنا المعمدان في معتكفه ، وتلقي القبض عليه ... ماذا كانت التهمة التي دعت الى هذا الإجراء الظالم ؟ يروي المؤرخ جوزيف أن هيرودس كان يتوجس خوفاً من ان تتخذ دعوة يوحنا ذريعة لحركة ثورية يدفع إليها ويغذي نارها التعصب للدين . اما المصادر المسيحية ، فقد أتت بتهمة أخرى ، أومأ اليها جوزيف في مكان آخر ، من مؤلفه ، ومؤداها ان يوحنا أنب هيرودس ، منددا باستهتاره الخلقي المشين ، الذي دفعه إلى التوله بهيروديا ، زوج أحد اخوته ، فخطفها منه ، وهو

الآن يعيش معهـــا بدون تورع ولا تحرج . وثارت ثائرة تلك العاهر لجسارة يوحنا وجرأته ، فأوعزت إلى عشيقها بهـــذا الاجراء الغاشم الظالم .

ومن الآن فصاعداً لن يتقابل يسوع ويوحنا . ولكن هذا البعد لم يحل دون توثيق الاواصر الروحية بين حياتيهما . وكان القبض على يوحنا إيذاناً ليسوع بالعودة إلى الجليل وإستهلال حياته العامـــة .. وعندمـا سيضرب الجلاد عنق المعمـــدان في سجنه ، سيؤدي هــذا الاستشهاد إلى تحويل ملموس في مجرى حياة يسوع العلانية . وسوف نسمع السيد المسيح في مناسبـات شتى يقرظ يوحنـا ويعلن على الملأ تقديره العظيم لرسالته وشخصه .

الفصل الثالث

مقابلات يسوع الاولى

ما كاد يسوع يصعد من النهر ، بعد ان عمّده يوحنا ، حتى أوعز إليه الروح القدس بأن يخلو بنفسه في البرية ؛ وكانت الجبال التي تكتنف وادي الاردن تتفتح عن كهوف كثيرة ، تحقق رغبة الساعي وراء العزلة وتقيه في الوقت ذاته سهام الشمس الملتهبة وبرد الليل القارص . هناك اعتكف يسوع وراح يخضع نفسه وجسده لاختبار جبار ، كان عبارة عن صوم طويل دام أربعين يوماً . مجاهدة قاسية، لما انطوت عليه من عناصر الوحدة والتقشف والحرمان ، لا تقوى على احتمالها إلا النفوس الماضية الجبارة .

وعندما أعياه الجوع ، راح الشيطان يوسوس إليه بوسواسه ، طمعاً في إغوائه ، فانبعثت في نفسه هواجس غريبة ، كأنها طفح اللاوعي الخفي ، في حين أنها لا تغاير كثيراً تلك الأحلام ، أحلام اليقظة ، التي ينشط الخيال في نسجها كلما ضعف الجسم وأنهكه الجوع. ومع ذلك ، فهي تنم عن مهارة المجرب ومعرفته الدقيقة بأوتار النفس

البشرية الحساسة ، فاذا ما تحركت ، أفصحت رنتها عن معدن صاحبها . ثلاث كلمات تعرب عنها أوجز تعبير وأصدقه : المال ، الجاه ، السلطان .

لقد سمع روح الشر ذلك الصوت الذي هتف في حادثة المعمودية : « هذا هو ابني الحبيب » . على أي معنى ينطوي هذا اللقب ؟ إنه في حد ذاته يحمل معاني مختلفة ، ولكنه بكل تأكيد ، لا يمكن أن يوحي بمعنى التوالد المادي الذي كانت الأساطير الوثنية تشير إليه ، وهي تنسج أقاصيصها حول حكايات التزاوج بين الآلهة ، لأن مثل هذا المعنى كان أبعد من أن يخطر على بال شعب متشبع بمبدأ التوحيد كاليهود .

الواقع ان العبارة « ابن الله » وردت في العهد القديم في معرض الكلام عن الملائكة ، والشعب المختار ورؤسائه ، أو عن المسيح الموعود ذاته : فالمقصود منها إذن كان المعنى المجازي ، أي الإشارة إلى استحكام أواصر المودة وروابط الصداقة والاخلاص بين الله وأحد عباده ، إنساناً كان او ملاكاً .

وبعد ، فما كان المعنى الذي قصد إليه الصوت هنا ؟ أهو رابطة من النوع الذي عرضناه ، أم علاقة من نوع آخر جديد ، ما زالت تفتقر إلى إيضاح ؟ يبدو أن المجرب لم يول الأمر اهتماماً : اراد ان يختبر معدن يسوع ويعجم عوده ، ليعرف ما إذا كان مرسلاً من قبل الله حقاً ، أم هو إنسان عادي تنطلي عليه الحيلة ، ويسلس منه القياد .

دنا المجرب من يسوع ، الذي أنهكه الجوع في هذه البرية الجرداء

الخاوية ، التي لا تبـــدي على مرمى البصر إلا الصخور الصم والحصى الملتهب ، الذي ينطبع في الخيـال لكثرة مـا يلح على البصر ، حتى ليصبح الانسان فريسة للهوس وتشتيت الذهن . ويوسوس المجرب : « اذا كنت ابن الله ، فمر هذه الحجارة ان تصير خبزاً » .

كل ما في الأمر ان ينتفع يسوع بقدرته لسد جوعه ، بدلاً من ان يخصصهـــا لإنجاز الرسالة المنوطة به . استغلال السلطة ، واستغلال النفوذ ، من الامور التي لا تـكاد تثير الانتباه اليوم لكثرة وقوعهـا . لكن يسوع رأى في الاقتراح انحرافاً لا يليق بالدعوة ، فصمد ولم يلن.

ولم يسلم المجرب بالهزيمة : ربما حقق في إثارة شهوة الجاه والعظمة ما أخفق في نيله من إثارة شهوة التملك . ليرم يسوع بنفسه من ناصيـة الهيكل : ان الملائكة ستحمله على ايديها ، فيهبـط على الارض سالماً معافى ، وعنـدئذ يتجلى حب الله له في أبهى صورة وأنصـع بيان ، فتقبل عليـــه الجموع ، وتردد مآثره الألسن في دهشة وإعجاب .. ورفض يسوع ولم ينجرف وراء سياسة الفخفخة وقرع الطبول .

وكان على يسوع ان يتحمل محاولة اخيرة كانت أكثر من سابقاتها جرأة وسخفاً ، وان لم تختلف كثـيراً عن الخواطر التي تثيرهـا فترات الإعياء والارهـاق . لا يخفى على الشيطان ان شهوة السلطان متأصلة في قلب الانسان إلى درجة أن كثيراً من اصحاب المطامع لا يتحرجون من اصطناع كل الاساليب ، دون استثناء أوضعهـا ، في سبيل فرض سلطانهم على الآخرين . وقد يبيعون أنفسهم للشيطان رخيصة في سبيل

تحقيق مآربهم . ويعرض الشيطان على يسوع سلطان الارض كلها ، على أن يخر ساجداً . ما أجرأها وقاحة ! حسب يسوع أن يقابلها بآية من الكتاب المقدس ، شأنه في التجربتين السابقتين ، ليندحر الشيطان وينصرف ، مجرجراً أذيال الخيبة . وأما آيات الكتاب الثلاثة التي تذرع بها يسوع ، وستظل أبد الدهر سلاحاً للمؤمن وعدّة ، يكسر بها شوكة الشيطان ويبطل سحر إغرائه ، فهي :

« ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله » .

« لا تجرب الرب إلهك » .

« للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » .

وغادر يسوع البرية بعد ذلك ، وانحدر إلى وادي الاردن ، بعد طول المناجاة والمجاهدة ، ليستقبل من حياته صفحة جديدة . ومن حقنا ان نتساءل : إلى أي مدى كان معروفاً لدى معاصريه ؟ لا جدال في أن علاقاته خارج بلدته الناصرة ، لم تكن واسعة النطاق ، وربما لم تكن معرفة أهل الناصرة أنفسهم به أصدق من معرفة غيرهم من أهل مقاطعة الجليل . وقد كان في مكنة مريم والدته ، أن تكشف النقات عن كثير من أسرار حياته الخاصة ، ولكن يبدو انها لم تفعل ، وآثرت الصمت ، محافظة في قلبها على هذه الذكريات الغالية الجميلة ، وتأبّت افشاءها لغير موجب ملح . فاذا تجاوزت عتبة الدار ، هالك ألا تجد من لا يعرف عن يسوع اكثر من انه نجار البلدة : بمهنته عرفه

العمـلاء والجيران ، ولا تسل عن آراء سواهم من السكان . فلا غرو إذا كانت معلوماتنا عن هذه الفترة من حياته ضحلة لا تشفي غليلا . غير أن الذي نعرفه جيداً بالنسبة إلى اهل الناصرة ، ان الألفة وطول العشرة حالتا دون قبولهم لرسالته واقتناعهم بدعوته . فكان بالنسبة اليهم واحداً من أبناء القرية لا اكثر ولا أقل . وكما يحدث في مثـل هذه المناسبات ، أضحى هـذا الواقع غشاوة اطبقت على بصائرهم ؛ كلما فكروا في شأنه ، عجزوا عن تجريد أنفسهم من تصورات الحياة اليومية التي ألفوها ؛ وليس مثل البعـد في الزمان والمكان وسيلة إلى الاهتداء إلى الحقائق واستخلاصها من الملابسات المضللة .

كيف كان اللقاء الاول بين يسوع وتلاميذه الاوائل ، هذا ما نود الوقوف عنده الآن ، لما ينطوي عليه من دلالة ومغزى . تعرّف يسوع على تلاميذه الأوائل في وادي الاردن لدى يوحنـا ، لانهم كانوا من تلاميذ المعمدان . وكانت الكلمات التي هتف بها الصوت العجيب لا تزال موضع تفكيرهم ومادة تدور حولهـا احاديثهم . إلى ان كان اليوم الذي اجتـاز فيه يسوع بالمكان الذي رابطت فيه جماعتهم ، فانفصل شابان من أتباع النبي ، وسارا يتتبعان يسوع ، وكلهم رغبة في أن تسنح لهم الفرصة للتحدث إليه . وجاء تصرف يسوع غاية في اللباقة والقوة والتأثير ، بعيـداً عن التردد قدر بعـده عن الإكراه : فالدعـوة يجب ان تنزل على النفوس نزول المطر على الارض العطشى ، لتكون الاستجـابة تلقائيـة حرة . هكذا فعل يسوع بالذين أراد ان يشركهم في المهمة التي جاء من اجلها :على تطلعهم الحائر أجاب الجواب

الشافي المقنع ، الدال على علمه بأسرار النفوس . اما الشابان اللذان اقتفيا خطى يسوع ، فكان احدهما اندراوس ، وربما كان الآخر يوحنا بن زبدى . فلما شعر بهما يسوع ، استدار نحوهما ، وإذ رآهما يتبعانه ، قال لهما : « ماذا تريدان ؟ فأجابا : ربي — أي يا معلم — أين منزلك ؟ فأجابهم : هلم وانظرا . فسارا معه الى حيث كان يسكن ، وقضيا النهار في صحبته ، وكانت الساعة قرب العاشرة » . (يو ١ : ٣٨ — ٣٩) .

تلك الدقة في ذكر موعد اللقاء لا تخفى دلالتها على القاريء ، ولا شك ان المقابلة قد جمعت من دواعي التشويق ما جعل هذا الظرف يرسخ في ذاكرة الشاهدين . ويستفاد من بقية النص ان فكرة ظهور المسيح كانت تشغل بال التلميذين ، ربما كانت موضوع أحاديثهما ، بل لا يبعد ان يكونا قد قصدا يوحنا المعمدان أملاً في لقاء المسيح : لقد دفعهما التطلع واللهفة إلى البحث الصادق ، وإذا بالجواب يأتيهما على يد يسوع .

كان إذن اندراوس احد الاثنين اللذين سمعا يوحنا وتبعا يسوع . وفي صباح الغد ، لقي أخاه سمعان وقال له : « لقد وجدنا ماشيح ، الذي تأويله المسيح ؛ وأتى به الى يسوع . فنظر إليه يسوع وقال : أنت سمعان بن يونا ، وستدعى كيفا ، الذي معناه الصخرة . (وفي اليونانية بطرس) . وفي الغد ، بينما كان يسوع على وشك الرحيل إلى الجليل ، اذا فيلبس يمر به فقال له : اتبعني . وكان فيلبس هذا من

بيت صيدا ، مدينة اندراوس وبطرس . » (يو ١ : ٤٠ـ٤٤) .

وهذه دعوة نتنائيل تبين كيف كان يسوع يحسن تبديد الشكوك بكلمة واحدة . ونتنائيل هذا، وكان ايضاً من تلاميذ يوحنا المعمدان، من بلدة قانا في الجليل . فلما جيء به الى يسوع قال له : « قبــل ان يدعوك فيلبس ،رأيتك ، وأنت تحت التينة .» (يو ١ : ٤٨) . إلام أشار يسوع في هذه العبارة المقتضبة الغامضة ؟ الى فكرة خفية ؟ الى خاطرة خامرت صاحبها ولم يفه بهـا إلى احد ؟ آثر يسوع التلميح على التصريح ، مراعاة لشعور الوافد الجديد ، وذهل نتنائيل من المفاجأة، وذابت شكوكه ، ولم يعد في حاجة إلى مزيد من الأدلة ليؤمن بذلك الذي يحسن فهمه ويبدي مثل هذا الاهتمام بأمره .

تلك كانت جماعة يسوع الاولى . ولا ينبغي ان يفهم مما سبق أنهم منذ ذلك الحين صدفوا عن حياتهم الخاصة ليلازموا يسوع . لقد طافوا معه في الجليل ، وهي مقاطعتهم ، ثم لا نلبث أن نرى فيما بعد بطرس واندراوس وغيرهما من الرفاق قد عادوا إلى مزاولة مهنتهم الأصلية ، وكانت الصيد علىشواطيء بحيرة طبرية ؛ فكأنهم قضوا مدة من الزمن لم يترددوا على يسوع إلا لماماً .

وعندما كانوا إلى جــوار يسوع ، كان يتحدث إليهم وكانوا هم ينصتون ويرقبون . تبين لهم ان النفوس أمامه كالكتاب المفتــوح ، فعجبوا . ولكن أحداثاً اكثر منهـا إثارة تنتظرهم ، وكلها آيات من العطف والحنان ومن القدرة التي لا يدانيها على الارض سلطان .

حضر يسوع ذات يوم وليمة عرس ، مع هؤلاء التلاميذ ، في قرية قانا الجليلية التي سبق ان ذكرناها ، وكانت امه ايضاً من المدعوين . وبينما كان المدعوون متكئين ، إذ نفدت الخمرة ، فشعرت أم يسوع بحرج العروسين ، وأسرعت تعرض الحالة على ابنها . وفي أحد أرجاء الدار ، بعيداً عن ضوضاء الموائد ولغط الأحاديث حوّل يسوع ماء كانت تحويها جرار كبيرة ، إلى خمرة فاخرة . إنقاذ من السماء لطيف ، ولكن ألم يكن يسوع قد قصد ايضاً إلى التدليل على صدق تقديره للزواج ، بالرغم من إعراضه عنه ؟ تلك كانت أولى معجزات يسوع ، وقد آمن به تلاميذه .

ونعود لنلتقي من جديد بالجماعة الصغيرة في اورشليم ، في موقف يبدي فيه يسوع جرأة وحزماً لم نعهدهما فيه من قبل . انها حادثة التجار الذين طردهم بلا شفقة من أروقة الهيكل ، بعد ان أحالوها سوقاً محمومة مريبة ، لا تليق بقدسية المكان ، بسبب تهاون أولي الامر وتغاضيهم الاثيم . ولنتخيل المشهد : ألوف من الحجاج الاتقياء كانوا يصعدون إلى اورشليم في ايام العيد ليعبدوا الرب ويقدموا له الذبائح والقرابين . وهذا اقتضى بطبيعة الحال ، وجود من يبيعها . ومن جهة اخرى ، بما ان الرسوم الدينية كانت تستوفى بعملة معينة خاصة بالهيكل ، اقتضى ذلك ايضاً وجود الصيارفة لتحويل العملات الاجنبية إليها . وسرعان ما فطن بعض التجار إلى هذه الظروف المغرية ، وعملوا على استغلالها ، فاحتلوا ساحة الهيكل الخارجية ، وراحوا يبيعون ويصرفون .. وهكذا تحوّل جانب كبير من الحرم المقدس

إلى سوق جرت فيها المساومات واحتدمت فيهـا الخلافات . وطالما احتج علماء الدين ، ونددوا بمثل هذه الاعمال والخصومات ، دون جدوى . أما يسوع ، وكان قد عاين هذا المشهد المؤلم مراراً كثيرة في زياراته السابقة للهيكل ، فلم يطق عليه صبراً : ان ملكوت السماوات لا يمكن ان يتمشى مع هذه النزعة التي تلتمس الربح الدنيء في بيت الله ذاته دون ورع ولا تحرج . فثـار به السخط ، بالرغم من تحكمه العجيب في أعصابه : لقد طفح الكيل وتحتم العمل . ولندع يوحنـا البشير يروي علينا الحادث :

« فوجد (يسوع) في الهيكل البقر والخرفان والحمام ، والصيارفة على موائدهم ؛ فصنع سوطاً من حبال وطردهم جميعـاً من الهيكل ، ومعهم الخرفان والبقر ايضاً ، وبعثر دراهم الصيارفة وقلب موائدهم ، وقال لباعة الحمام : إرفعوا هـذا من ههنا ، ولا تجعلوا بيت ابي دار تجارة . فتذكر تلاميذه انه مكتوب : غيرة بيتك ملكت على نفسي . »

(يو ٢ : ١٤ – ١٧) .

وتنتهي الرواية بعبارة غامضة لم يفهم التلاميذ معناها آنذاك وإن فهموها فيما بعد :

« فأجاب اليهود وقالوا له أية آية ترينا حتى تفعل هـذا ؟ أجاب يسوع وقال لهم : أنقضوا هذا الهيكل وانا في ثلاثة ايام أقيمه . فقال له اليهود : إنه في ست واربعين سنة بني هذا الهيكل ، أفتقيمه أنت

في ثلاثة ايام ؟» (يو ٢ : ١٨ — ٢٠) .

هذه الأقوال لها قيمة تاريخية لا يستهان بهـــا : لقد أقر المجادلون بأن الحادث وقع بعد الشروع في بناء الهيكل بست واربعـين سنة ، وبما ان هيرودس الاكبر استهل هـذه الاعمال الضخمة سنة ١٩ ق م ، وهي كانت وما زالت قائمة في ايام يسوع ، فحادث الهيكل وقع إذن سنة ٢٨ ميلادية .

روى يوحنا البشير من بين حوادث هذه المرحلة ، اخبار مقابلتين هامتين سوف يفيد القاريء من سردها ، لا سيما وان الإنجيلي يوحنا أبدى عناية خاصة بأحاديث يسوع ، فكان حريصاً على نقلهـا ودقيقاً في تصوير طريقة يسوع الفريدة في المحاجة والنقاش . أما المقابلة الاولى، فقد دارت بين يسوع ورجل فريسي من اعيـــان اورشليم يدعى نيقوديمس ، وكان احد اعضاء السنهدريم ، وهو المجلس الاعلى عنـــد اليهود . كان الرجل معجباً بيسوع ، ولكنه خشي على سمعتـــه من القيل والقال إذا ما جـــاء لزيارته جهاراً ، فآثر الذهاب إليه ليلاً . وأدرك يسوع انه لا داعي لطرق موضوع الفرائض واعمال البر ، مع هذا الفريسي الورع ، السليم الطوية ، لأن هذا مجال يسرف أمثاله في الاهتمام به ويغالون ، لذلك قصر حديثه على المعمودية وما تستوجبه من تجديد شامل يضرب جذوره في اعماق النفس ، فهي اشبه بالولادة الجديدة .

« الحق الحق اقول لك : إن لم يولد الانسان من الماء والروح ، فلا يقدر ان يدخل ملكوت الله ؛ إن المولود من الجسد إنما هـو جسد ،

والمولود من الروح إنما هو روح » . (يو ٣ : ٥ — ٦)

وأما اللقاء الثاني ، فقد تم في مقاطعة السامرة ، بالقرب من بئر مشهورة عرفت ببئر يعقوب . كان الوقت ظهراً عندما عبر يسوع بهذا المكان ، وقد أعياه المسير ،فجلس ينشد الراحة مستنداً إلى حافة البئر ، بينما سار تلاميذه إلى القرية المجاورة ليبتاعوا لهم طعاماً . ووردت امرأة لتستقي من البئر ماء . فاستسقاها يسوع .أ كان سؤاله عن ظمأ حقيقي ؟ ام استهدف ان يهيء فرصة للحديث معها ؟ إن من يهب مما يملك شيئاً ، ولو جرعة من ماء ، لهو جدير بأن يعير السائل أذناً صاغية منقادة . ولكن المرأة تصدر عن حرص وتبدي مهارة في الجدل ، وفي النقاش مرونة وذكاء . إلا ان يسوع لم يدع لها مجالاً للمراوغة ، وبكلمة واحدة، أدركت ان سرها مكشوف لديه وسترها الزائف مهتوك . ومع ذلك ، جمعت شتات نفسها ، وكأنها أرادت ان تمتحن هذا العابر المجهول ، فحولت دفة الحديث إلى موضوع الشقاق السامري ، وهو موضوع شائك حساس ، لا أيسر من ان يفلت فيه اللسان ، فتصيب الكلمة كالسهم الطائش . لقد كان للسامريين ، فيما مضى ، هيكل على جبل جريزيم ، هذا الجبل الذي تبدو منحدراته قريبة وعلى بعد خطوات من مكان الحديث .. ثم دكه اليهود دكاً ، عام ١٢٩ ق م .. قالت المرأة ، مشيرة إلى تلك الخلافات المستحكمة بين قومها وبين اليهود : « ان آباءنا سجدوا فوق هذا

الجبل ، وأنت تزعم أن مكان السجود هو مدينة اورشليم ؟ » وينطلق الجواب هادئاً واضحاً ، بعيداً عن التعصب وعن أي تعريض بمشاعر السامريين الدينية . لا شك في أنهم يستهدفون الله الحق بعبادتهم ، إلا أن هذا الاله الحق الواحد لم يعرفوه على حقيقتة؛ وقد حل الزمن الذي سيتحلّى فيه الدين عن طابعه القومي ليتخذ صفة الشمول والعالمية : قال لها يسوع :

« ثقي أيتها المرأة ، أنها تأتي ساعة تسجدون فيها للآب ، لا فوق هذا الجبل ولا في اورشليم . أنتم تعبدون من لا تعرفون ونحن نعبد الذي نعرف ، لان الخلاص آت عن طريق اليهود . ولكن تأتي ساعة – وهي الآن حاضرة – حيث يعبد ذوو التقوى الآب بالروح والحق، لأن مثل هؤلاء الأتقياء يرتضي الله . الله روح ، والذين يعبدونه فبالروح والحق ينبغي أن يعبدوه.»

(يو ٤ : ٢١ – ٢٤)

ولنلاحظ هنا، لتفادي الوقوع في اللبس والبلبلة ، أن يسوع، بقوله إن الله روح ، لم يعن الأرواح أو الملائكة ، إنما أراد أن يلفت النظر إلى أن الله سبحانه منزه عن كل ما هو مادي ، وانه غير مقيد بمكان بعينه ، ولا يشوب صفاء طبيعته عنصر مخلوق قط .

أما المرأة ، فلاحت على وجهها أمارات الدهشة والانفعال : إن هذا السلطان الذي يصدر عنه يسوع في هذه الامور ليس بالشيء المألوف .. أفلا يكون هذا الرجل هو المسيح المنتظر ؟ وللمرة الأولى

يقر يسوع بأنه هو المسيح . قالت له المرأة :

« أنا أعلم أن المسيح آت ؛ فمتى جاء سوف يخبرنا بكل شيء . فقال لها يسوع : انا الذي أخاطبك أنا هو . » (يو ٤ : ٢٥ – ٢٦)

هذا اقرار خطير في حد ذاته بالنسبة إلى مستقبل الدعوة وسلامة سيرها . وسوف نرى يسوع يتروى كثيراً قبل الاقدام على اعلانه رسمياً . لقد استولت على مشاعر الشعب ، سواء في اليهودية او في الجليل ، فكرة المسيح السياسي ، ذي التاج والصولجان ، فكان على يسوع أن يصطنع الصبر والأناة قبل الاعلان عن نفسه ، خشية أن يساء فهم دعوته ، فيجرفه التيار السائد وتثار النعرات القومية حوله ، ولم تعد لدعوة المحبة والسلام أذن تصغي وقلب مطمئن يعي . اما وقد باح بسره في السامرة ، وامام امرأة منفردة وفي معزل عن ابناء قومه ، فالأمر هين لا خطورة فيه .

وانطلقت المرأة الى قريتها ، وراحت تستثير فضول الناس وتطلّعهم حتى اقبلوا على يسوع يدعونه الى الاقامة بينهم . ونزل يسوع عند رغبتهم ، وقضى في ضيافتهم يومين ، وكان لتعاليمه صدى قوي في النفوس .

قام يسوع بهذا النشاط الذي عرضنا جانباً منه خلال الشهور الاخيرة التي سبقت القبض على يوحنا . فلما أُلقي المعمدان في السجن ، غادر يسوع الناصرة ورحل الى الشمال الشرقي ليستقر في بلدة

كفرناحوم ، على شاطيء بحيرة طـبرية ؛ فأصبح قريب الدار من زمرة تلاميذه الأوائل ، في تلك البلدة التي قدر لها أن تكون اول مركز إشعاع للمسيحية الناشئة . وكان لبطرس هناك منزل ، كثيراً مـا عقد فيه يسوع اجتماعاته ؛ ولكن بلدة كفرناحوم كانت تتمتع في نظر يسوع بمزايا أخرى كانت سبباً في اجتذابه إليها ، فلم تكن منعزلة عن سائر العمران ، شأن الناصرة ، وسط تلال الجليل بل كانت بفضل بحيرتها ، على صلة مستمرة بكثير من البلدان ، ولا سيما وان الطريق بـين دمشق ومصر كانت تمر بالقرب منهـا ؛ وإذا علمنـا أن موقع كفرناحوم غير البعيد من الحدود أدى إلى إنشاء مكتب لتحصيل المكوس فيها ، تبين لنا أنها كانت بـلدة حية نامية ، وملتقى زاخراً صاخباً ، فلا غرو أن يتخذها يسوع مركز إشعاع بالنسبة لما حولها من القرى والبلدان .

منذ ذلك الحين ، أخذ نشاط الجماعة الصغيرة يزداد عمقاً واتساعاً ، وإن توقف صوت يوحنا عن المناداة والقرع ، فقد انبرى صوت يسوع يتابع الحملة التي شنها المعمدان : « توبوا لقد دنا ملكوت الله » .وإن عادت الصحراء الى صمتها الخالد ، فـلا أقـل من أن ينصت الجليل إلى الدعوة ويستجيب لها .

جدد يسوع نـــداءه الى بطرس واندراوس ويعقوب ويوحنا ، صيادي البحيرة الأربع ، ليصيروا له تلاميذ ملازمين . ولا يعقـل أن تكون هذه هي الدعوة الأولى ، لأن النص يوحي بوجود علاقة وثيقة من المعرفة والصداقة بين افراد الجماعة الخمس . ففيما كان يسوع ماشياً على شاطيء بحيرة الجليل ، رأى سمعان وأندراوس اخاه يلقيان الشباك

في البحر ، لانهما كانا صيادين ، وقال لهما : اتبعاني ، فأجعلكما صيادي الناس ؛ وللوقت تركا الشباك وتبعاه . وبعد فترة قليلة من السير ، رأى يعقوب بن زبدى ويوحنا أخاه يصلحان شباكهما ، فدعاهما ، وللوقت تركا أباهما زبدى في السفينة مع الأجراء وتبعاه . »

(مر ١ : ١٦ – ٣٠) .

وكان يسوع ينتهز فرصة اجتماعات الشعب في مجامع القرى والمدن، أيام السبت ، ليخطب في الناس ويعظهم . وكان الشعب يستمع اليه . غير انهم ادركوا أنه يعطف على المرضى واصحاب العاهات والذين بهم شياطين ، فكان يرق لحالهم ويشفيهم . فذاع صيته بسرعة البرق ، وأقبل عليه الناس من أقاصي البلاد ، من سوريا ومن اورشليم على السواء ، وكانوا يأتون إليه بالمصابين على اختلاف عللهم .

ان هذا التبشير بملكوت الله هو ما سوف يسميه التلاميذ فيما بعد « الانجيل » . وهو كلمة مشتقة من اليونانية ، معناها الحرفي « النبأ العظيم » . لم يقصدوا بهذه العبارة كتاباً قط ، لأن الانجيل في معناه الصحيح لم يكن يوماً من الايام كتاباً ألبتة : كان اللفظ يشير الى هذا النبأ العظيم ، النبأ « بقرب ملكوت السموات » ، وإلى مجموعة تفسيرات يسوع وتعليقاته على هذا النبأ . وبقيت تعاليم يسوع محفوظة في قلوب المستمعين الأوائل ، ثم دونت فيما بعد على مراحل متعددة وبشكل غير متصل اول الأمر ، قبل ان توضع في صيغتها النهائية .

بالاناجيل حسب رواية متى وحسب رواية مرقص ، وهلم جراً ، نسبة إلى التلاميذ الذين دونوها بمعاضدة الروح القدس . ليس إذن هناك إلا إنجيل واحد ، ولن يكون إنجيل سواه ، هو انجيل يسوع ، وصل الينا في عدة روايات مدونة ، هي كتب الأناجيل .

الباب الرابع

عظة الجبل

جاءت بشارة يسوع ، في أعقاب دعوة يوحنا ، جواباً على السؤال الذي كان يشغل بال الناس في ذلك الحين : ألم يعدنا الله بحمايته وعونه ؟ متى إذن ستدق ساعة ظهوره وتتجلى « قوة يمينه ؟ » فكان إعلان يسوع بقرب قيام ملكوت الله بمثابة نذير يؤذن بوشك وقوع حدث خطير . أما طبيعة هذا الحدث الخطير ، فلم يشأ يسوع أن يصرح بها منذ البدء ، بل ترك للمناسبات مهمة كشف النقاب عنها شيئاً فشيئاً .

إنما الامر الذي رأى يسوع أن يعالجه أولا ، فكان تحديد معالم الأزمنة الجديدة المقبلة ، وبالتالي ، تعيين المؤهلات النفسية اللازمة للدخول في هذا الملكوت . عكف يسوع على جلاء نظريته مرات عديدة ، على أن أشمل عرض وصل إلينا هو تلك الرواية التي نقلها القديس متى في انجيله، وهي عبارة عن عظة ألقاها يسوع في الهواء الطلق، من فوق ربوة تشرف على بحيرة طبرية ، فعرفت لذلك بعظة الجبل .

لا شك كان المشهد جميلاً رائعاً . بين يدي يسوع جلس التلاميذ في

ملابسهم الفضفاضة، وقد انضم إليهم جمع من القرويين ، تحدوهم الرغبة والتطلع . وتشرئب الأعناق وتستقر الوجوه الشابة التي لفحتها الشمس صوب يسوع . وهناك ، عند نهاية المنحدر ، تتلألأ مياه البحيرةالزرقاء الصافية ، تتناثر من حولها الدور والحقول ، ومن خلفها ، إلى آخر ما يمتد اليه النظر ، تنسدل التـلال والأجرف المرتفعـة ، كالجدار الهائل تسد الافق . . اما الضوء ، ضوء البحر المتوسط الوهاج ، فهو يفيض على كل شيء ويغمر كل شيء . هذا الإطار الجميل لأروع خطبة ألقيت على مسامع الانسان . غير أن الانظار كانت قد ألفت هـذه المناظر ، فلم تعد تطرب لرؤيتها . وعلى أية حال ، فالمستمعون كلهم سمع وبصر، بيـنما انبعثت كلمات يسوع تنساب سلسة كالجـدول الرقراق ، تروي ظمأ النفوس المتعطشة . وقد زاد من يقظتها اعتقاد راسخ حينذاك بان مواعيد الله باتت على وشك التحقيق ، وأمل قوي يساورها بأن يسوع ربما اعلن في حديثه عن انتصار مؤزر عظيم .. ربما تزعم حملة مظفرة على الوثنية الزاحفة ليدك أركانها ويستأصل شأفتها ... ولكن لم يكد يسوع يفتـح فاه ، حتى بدا للناس وهن تنبؤاتهم وزيف أوهامهم : لقد جاء حديثه أبعد ما يكون من ضجيج خطب الزعماء وأقرب إلى الرزانة والهدوء والصفاء .

استهل يسوع حديثه بامتداح الوداعة والسلام وروح التجرد والفقر، وفي عبارات مقتضبة ، جاء بالتعريف الدقيق لروح الانجيل . بيد انه لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى انتصارات دنيوية دانية ، ولم ترد على لسانه معاني العظمة والمجد التي يحسن التلويح بها الساسة الأذكياء .

نعم هناك سعادة وارفة عظيمة ، أحس المستمعون بأنها ستظلل أبنـاء الملكوت عقب تدعيم اركانه . إلا أن يسوع لم يقل لهم متى سيحـين أوانها .

افتتح يسوع حديثه قائلاً :

«طوبى للفقراء بالروح ، فان لهم ملكوت الله.

طوبى للودعاء ، فانهم يرثون الارض .

طوبى للحزانى ، فانهم يعزون .

طوبى للجياع والعطاش الى البر ، فانهم يشبعون .

طوبى للرحماء ، فانهم يرحمون .

طوبى لانقياء القلوب ، فانهم يعاينون الله .

طوبى لمن يسعون من أجل السلام ، فانهم بني الله يدعون .

طوبى للمضطهدين من اجل البر ، فان لهم ملكوت السماوات .

طوبى لكم إذا عيروكم واضطهدوكم وقالوا عنكم كل كلمة سوء من أجلي ، افرحـوا عندئذ وابتهجوا ، فان أجركم عظـيم في السماوات ، لانهم هكذا اضطهدوا الانبياء الذين سبقوكم . »

(متى ٥ : ٣ — ١٢)

تعتبر هذه الديباجة امتداحاً لمثل أعلى لم يكن مجهولاً لدى المستمعين.

فقد نهضت حركة روحية واسعة ، منذ عدة قرون ، اتخـــذته غاية وهدفاً ، حتى ان المنتمين إلى هذه الحركة كانوا يلقـّبون بفقراء ياهو ، أي فقراء الله . ولم يكن الفقر لديهم مقصوداً لذاته، ولا مسألة فاقة او حرمان ، بقدر ما كان زهداً في طيبات الدنيا ورفض الاعتداد بها في بناء صرح الكمال ، واعتماداً كلياً على الله في استسلام لمشيئته وثقـة لا حدود لها بعنايته وجوده . وكان فقراء ياهو ، في الواقع الاغلب ، من الافراد العاديين ، يعيشون كسائر ابناء الشعب ، حياة كانت في هذه الفترة ، وفي هذا البلد بعينه، لا تتعدى البساطة ولا تعرف الكماليات

قد يوهم تعدد الطوباويات ، وهي ثمانية ، ان هنـاك انماطا للكمال متعددة ، إلا أنه يثبت للنظرة المتفحصة أن الطوباويات على تنوعها ، تلتقي على صعيد واحد : فمحبو السلام والرحماء لا يمكن أن يكونوا إلا ودعاء ؛ ومن ذا الذي يستطيع أن يكون وديعاً دون أن يكون زاهداً في الاشياء الدنيا « وفقـيراً بالروح » ، على حسب نص الآية . لذلك فلا جدوى من محاولة تصنيف الطوباويات ، لأن تعدد الصيغ ليس في الواقع إلا إشارة إلى جوانب مختلفة لحالة نفسية واحدة ، لا تلبث أن تتكامل لتعطي صورة كلية أشد وضوحاً واكثر جلاء .

على أن هذه الافتتاحية تلفت الانتباه إلى بعض النقاط التي سوف تواجهنا مفصلة في ثنايا الإنجيل ، وأكثر هذه النقاط شأناً ، هو عنصر العموم والشمول الذي تتسم به هـذه الآيات . نحن لسنا بإزاء نصائح موجهة الى فئة صغيرة من المتصوفين الابرار ليأخذوا انفسهم بها إذا ما

رغبوا في الكمال : إنها شروط لا غنى عنهـــا للدخول في ملكوت السماوات ، وهي في شمولها لا تفرق بين الاجناس والاوطان : الله رب الجميـع ، وملكوته معد لجميـع الذين يلبون دعوته بلا تمييز .

ولا تلبث الآيات التي تـــلي الطوباويات مباشرة أن تعزز فكرة العمومية التي لمسناها في رواية القديس متى ، إذ بعد أن جعل يسوع مهمة التلاميذ أشبه بمهمة « الانبياء الذين سبقوهم » . اردف قائـلاً إن ميدان نشاطهم هو « الارض » و « العالم » : إذن ستتجاوز رسالتهم المحيط الفلسطيني المحدود لتعم الإنسانية كلها .

« انتم ملح الارض ، فإذا فسد الملح فبماذا يملح ؟ إنه لا يصلح لشيء إلا لأن يطرح خارجاً وينبذه الناس تحت الاقدام . انتم نور العالم . لا يمكن أن تخفى مدينة مبنية على جبل ، ولا يوقـد سراج ويوضع تحت المكيال ، بل على المنارة ليضيء كل من في البيت » .

(متى ٥ : ١٣ — ١٦) .

هذا هو مطلع عظة الجبل، وهو عبارةعن موجز لما سيعالجه يسوع من موضوعات فيما بعد . . ومع ذلك ، ما اسماه موجزاً وأبغده ايحاء !

إن الدراسة المبدأية لتلك الموضوعات لتبرز الاهمية التي كان يسوع يعلقها على الروح التي هدفت الطوباويات إلى خلقها ، وسيتضح لنا ان تلك الروح هي التي تضفي على الاعمال قيمتها .

استعرض يسوع بعض الوصايا الموسوية ، في حرّية مدهشة وانطلق

يبين في سلطان عجيب ، كيفية ممارستها لتكون مرضية مقبـولة لدى الله . وجدير بالملاحظة أنه لم يتعرض لوصايا العبـــادة ، ولا للوائح الطهارة الشرعية ، بل وقع اختياره على الوصـايا الخلقيـة ، مستهدفاً إثبات قصور الممارسة الحرفية للشريعة عن ان تهييء صاحبها لدخول ملكوت الله ، ما لم تبعثها الروح الجديدة خلقاً جديداً . انها حملة على جميع الذين يتباهون بأنفسهم ويدعون البر والصـلاح لانهم يتمسكون بحرفية الناموس :

« إن لم يزد برّكم على بر الكتبة والفريسيين ، فلن تدخلوا ملكوت السماوات » . متى ٥ : ٢٠) .

وفي حملته هذه على البر الزائف ، القائم على حرف الشريعـــة لا روحها ، يستعرض بعض تفاصيل الشريعة الخطيرة ، ليقول فيها القول الفصل ، مصطنعاً اسلوب المقابلة الذي يبرز الفارق بين حرف الشريعة والروح الجديد الذي ينبغي ان يسود الممارسات :

« قد سمعتم أنه قيل للأولين ... أما انا فأقول لكم ... »

وتتوالى وصاياه حاسمة دقيقة :

– تقول الشريعة لا تقتـــل ؛ أما هو فيضيف : ان الامتناع عن القتل لا يكفي ، ولا بد من تجاوز هذا الحد ، فلا احتقار ولا سباب ولا سخط ولا غضب .

– والشريعة تنهي عن الزنى ؛ ولكن الامتنـــاع عن ارتكاب

الفاحشة لا يكفي ، لأن الذي ينظر إلى امرأة وهو يشتهيها فقد دنس بالزنى قلبه .

– سمحت الشريعة بالطلاق ؛ اما هو فأعلن أنه لا يحل للانسان ان يطلق امرأته ، لانه بذلك يقضي عليها بان تصبح زانية ، واذا تزوجت المطلقة فقد أصبحت زانية . وسيعاود يسوع الكلام في هذا الموضوع فيما بعد .

– أما فيما يتعلق بالصدق ، فما على الانسان إلا ان يعتمد في كلامه على الحق ، فيكون كلامه نعم في حالة الايجاب ولا في حالة النفي ، بدلاً من أن يسند أقواله بالاقسام ويرممها بالايمان .

وقد سمحت الشريعة بتطبيق قانون « العين بالعين والسن بالسن » ، اما يسوع فيقرر ان الصفح واجب ، وانه لا ينبغي للمسيحي ان يكره احداً ، ولو كان عدواً ، بل ليحب اعداءه وليرفع دعواته إلى الله من أجلهم .

خلف كل وصية من هذه الوصايا الدقيقة نلمس تلك الروح التي رمى يسوع إلى تدعيمها في نفوس تلاميذه ، وهي تدور حول معاني الرحمة والسلام والطهر . وشريعة الروح هذه بعيدة المطالب : انها تقضي بأن تتخذ الوسائل الكفيلة بترويض الجسد وكبح جماحه ، إذا ما أصبح مدعاة للإثم . ولا يحجم يسوع عن اصطناع المبالغات الخطابية القوية للتدليل على خطورة الأمر ، فيقول :

« فان تسببت عينك اليمنى في عمل الشر فإقلعها وألقها بعيداً عنك : فانه خير لك ان يهلك أحد اعضائك ولا يلقى جسمك كله في جهنم . وان اصبحت يدك اليمنى سبب عثرة لك فابترها وألقها بعيداً عنك : فانه خير لك ان يهلك أحد اعضائك من ان يذهب جسدك كله الى جهنم » . (متى ٥ : ٢٩ ، ٣٠)

ان هذا الطهر الذي يجب ان تتحلى به النفس ، لوثيق الصلة بموقف الانسان من أخيه الانسان ؛ وعبثاً تحاول النفس ان تحققه طالما ظلت خالية من مشاعر الرحمة والتسامح . وقد ادرك الانسان منذ القدم أن التقرب الى الله لأداء فريضة من فرائض الدين يستوجب التهيؤ والاستعداد ، فلجأ الى الاستعداد البدني ، كالاغتسال والوضوء ، في حين أدركت بعض النفوس الذكية أن هناك استعداداً روحياً لا بد من توافره . غير ان عظة الجبل لم تعالج موضوع التطهير البدني ، وكل ما طلبته ممن يريد ان يمثل بين يدي الله ، المصالحة والعفو . وجرت على لسان يسوع كلمات رهيبة في هذا الشأن ، سوف يوضحها بمثال من أمثاله الناطقة فيما بعد : فهل يليق بالانسان الذي طالما نال عفو الله ومسامحته أن يدنو منه تعالى للصلاة وقلبه تملأه القساوة والغلظة ، فيأبى ان يصفح عن ذلة أو يستسمح عن ذنب ؟ إن الله لا يتقبل عن رضى ولاء من يتسبب في تمزيق عرى الوئام بينه وبين الناس :

« فاذا أتيت بقربانك الى المذبح ، وتذكرت ان لأخيك عليك شيئاً ، دع قربانك أمام المذبح وأمض اولاً فصالح أخاك ، وحينئذ إيت وقدم قربانك . بادر الى موافقة خصمك ما دمت معه في الطريق ،

لئلا يسلمك الى القاضي ، ويسلمك القاضي الى الشرطي ، فتلقى في السجن . الحق أقول لك ، إنك لا تخرج من هناك حتى توفي آخر فلس عليك . » (متى ٥ : ٢٣ -- ٢٦) .

وهذه الطهارة النفسية تقتضي ايضاً مخافة الله عز وجل والتقدير البالغ لكل ما هو مقدس . والفقير بالروح يأبى عليه تواضعه أن يقسم بما لا تملكه يداه ، لأنه ملك لله ، وبما أن كل شيء هو ملك لله ، فما أحرانا ان نقول الحق مجرداً من الاقسام المحرجة والأيمان المغلظة .

هذا ولم تقتصر عظة الجبل على وصف الروح التي يجب ان تسود أبناء الملكوت ، ولم يكتف يسوع بإبراز ما تؤول اليه الشريعة إذا ما جاءت ممارستها من وحي هذه الروح ، بل تجاوز ذلك الى الدوافع الحقيقية التي تسيّر نشاط الانسان . طلب يسوع من تلاميذه ان يتشبهوا بالله ويقتدوا به ، وإذا ارادوا على مدى تمثلهم بالله معياراً ، فلا عليهم إلا ان ينظروا إلى علاقتهم بالناس ، لا سيما الاعداء منهم ، او الذين هم مثار للكراهية والنفور . ان قمع شهوة الانتقام وغض الطرف عن الإهانات والإساءات لهي من أصدق مزايا روح الانجيل :

« قد سمعتم أنه قيل : العين بالعين والسن بالسن . أما انا فأقول لكم : لا تقاوموا الشرير ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر . » (متى ٥ : ٣٨ — ٣٩) .

« قد سمعتم أنه قيل : أحبب قريبك وأبغض عدوك . أما انا

فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وصلوا لأجل مضطهديكم ، لتكونوا أبناء ابيكم الذي في السماوات ،وهو الذي يطلع شمسه على الاشرار والصالحين، وينزل مطره على الابرار والظالمين . » (متى ٥ : ٤٣ — ٤٥) .

وتلميذ المسيح مدعو لأن يخص بعطفه أولئك الذين يحول عجزهم دون رد ما أسدي إليهم من جميل . بل ان ما يفعل الخير رغبة في منفعة ، فقد حرم نفسه من جزاء الملكوت ؛وإن كان تبادل الخدمات بين الأصدقاء والحرص على التحلي بآداب المجتمعات ، حسن الوقع من النفس مستحباً ، إلا أنه قاصر عن بلوغ كمال شريعة الحب : فيتحتم على تلميذ المسيح ان يتجاوز هذه المرحلة ، فيعطي دون حساب ؛ لأن الله تعالى يغدق على الناس الخيرات دون منّ ولا تفريق :

« فانكم إن احببتم من يحبكم أتستحقون على ذلك أجراً ؟ أليس العشارون يفعلون ذلك ؟وإن لم تحبوا إلا إخوانكم فأي فضل لكم؟ ألا يفعل ذلك عبدة الأوثان انفسهم ؟ أما انتم فكونوا كاملين كما ان أباكم السماوي هو كامل . » (متى ٥ : ٤٦ — ٤٨) .

وقصارى القول ، ان عظة الجبل لا تقيس الكمال بمدى الحرص على الممارسة المادية لحرفية الشريعة ، ولكن بسمو الروح التي تحيي هذه الممارسة . وجدير بالملاحظة أن اثنين من الامثلة الأربع او الخمس التي يسوقها يسوع ، إنما وقف منها موقف المشرع المعدل للقانون ، فالتمسك بحرفية الناموس في كلتا الحالتين لا يعتبر مقرباً إلى ملكوت السماوات : ان الذي يستسلم لشهوة الانتقام ، ولو حرص على عدم

تجاوز قانون العين بالعين . وكذلك من يطلق امرأته ، علماً بأن حالة الزنى لها احكامها الخاصة،او يتزوج من مطلقة ، لا يعتبر سلوكهما سوياً في حكم الانجيل . أيحق لنا أن نرى في هذا الموقف تعارضاً بين شريعة الانجيل والشريعة الموسوية القديمة ؟.

الثابت ان السيد المسيح اعلن ان الشريعة الجديدة لم تلغ العتيقة :

« لا تظنوا أنني جئت لأبطل الناموس والانبياء : لم آت لأبطل إنما لأكمل . فالحق الحق أقول لكم ، الى ان تزول السماء والارض ، لم يلغ حرف بل ولا نقطة من الناموس إلى ان يتم كل شيء . لذلك ، فالذي يخالف واحدة من أصغر الوصايا ويدعو الناس إلى مخالفتها ، فهو يعتبر الأدنى في ملكوت السماوات ؛ وعلى نقيض ذلك ، من يأخذ نفسه بمقتضى الوصايا ويدعو الناس إلى ذلك ، فهو يعتبر عظيماً في ملكوت السماوات ؛ وعلى نقيض ذلك ، من يأخذ نفسه بمقتضى الوصايا ويدعو الناس إلى ذلك ، فهو يعتبر عظيماً في ملكوت السمارات . »

(متى ٥ : ١٧ — ١٩) .

هذا القول جلي لا مراء فيه : لم يأت يسوع ليهدم القديم ، ورغبة في تأكيد انتمائه إليه وتمسكه به ، ويعلن على الملأ عزمه على السير إلى الكمال والتمام . الناموس والإنبيــــاء إنما مهدوا لمجيئه وهيأوا العقول لإدراك طوباوياته . وها هي ذي الطوباويات بدورها تضفي على العهد القديم ضوءاً جديداً يكسبه معناه الطريف ، ويسمو بـــه إلى شكله النهائي. والشريعة المطعمة بروح الإنجيل هي التي ينبغي لابناء الملكوت أن يمارسوها ، دون إهمال نقطة واحدة من تفاصيلها مهما ضؤلت وقل شأنها . أمّا بعض مقتضيات الناموس الفرعية ، من أمثال مبدأ العين

بالعين ، التي كان لها ما يبررها في فترة انقضت وزالت، فقد استنفدت الغرض منها ، ولم يعد ما يدعو إلى استبقائها .

• • •

استمرت عظة الجبل مدة طويلة : لقــد أسرت الألباب بجمالها الأدبي واستهوت القلوب بسمو المشاعر التي انطوت عليها . وكانت بساطة الأسلوب ذي الجمل المتناسقة المتقابلة، وما في الكلمات والأفكار من إيقاع وتكرار، ما يدعو إلى رسوها في الأذهان وحفظها في الذاكرة لما فيها من نصائح قصيرة وحكم موجزة وعبر موزونة سلسة ، جرت مجرى الامثال . وبـين الفينة والفينة ، تتألق صورة من تلك الصور المبالغ في ألوانها ، فتثير الخيال وتجدد الانتباه ، مثل اقتلاع العين التي تدفع إلى الشر ، وتحويل الخد الأيسر لمن يصفعك على الخد الأيمن ، إلى غير ذلك من المجازات المثيرة. ولم يصدم ذلك الغلو إحساس المستمعين، لأن مثل هذه المجازات لم يكن غريباً عليهم ، فـلم يجدوا مشقة في الاهتداء الى المعنى الخفي المقصود . ومهما يكن من أمر ، فإن هـذا المعنى سيتضح فيما بعد على ضوء سائر تعاليم يسوع، وعلى الأخص بفضل ما سوف يأتي به من اعمال .

العظة أخاذة بليغـة ، ولو حاولنا أن نهتدي إلى سر روعتها ، لوجدناه في ذلك المزج العجيب بين البساطة المحببة والعمق الذي يستثير التأمل والتفكير . وبدهي ان النقـاط التي تناولها يسوع لم تأت على لسانه جزافاً ولم تكن من وحي الساعة . وقد أثبت علم النفس الحديث

بصورة قاطعة أنه إذا كانت بعض الأعمـــال الإنسانية تطلق القوى الـكامنة في أعماق النفس وتبعث فيهـــا الحيوية والنشاط ، فإن البعض الآخر يخمد انفاسها ويدفع بها إلى الانطوائية والانانية ، فتتكون فيها العقد التي تشل حركاتها وتحول دون نموها السوي. وفي حياة كل إنسان تعرض ظروف تحتم عليه أن يختار قبلته بين طريق الانطلاق وطريق الانطواء ، بين الاعمال التي تؤدي إلى انزواء النفس وتعقيدها ، وتلك التي تحرر قواها الـكامنة وما الاعمال التي تمثل بها يسوع إلا من ذلك الطراز الذي يحتم الاختيار ، ويفرض الحسم . فالنفس التي تؤثر إرضاء شهوة الانتقام ، وإشباع النزوات الفردية ، والاستهانة بالله جل قدره ، تؤثر ذلك كله على السماحة ، إنما تنغلق على ذاتها ، بدلا من ان تتحرر وتنطلق ... وفوق كل ذلك، فقد كانت فكرة الله هي الضوء الذي على هديه اتخذت المشاكل الخلقية ابعادها الحقيقية : فالطهارة النفسية مثلاً لم تحتل هذه المكانة من تعاليم يسوع إلا لأنها وحدها هي التي تمكن من رؤية الله ؛ وكذلك يقـــال في الرأفة والعطف ، فإن الذي يتحلى بهما يتشبه بالله الرؤوف الرحيم .

في الجزء الثالث من العظة ، تناول يسوع موضوع الفرائض الدينية الرئيسية الثلاث ، الصدقة والصلاة والصوم ، وراح يحذر تلاميذه ، في اسلوب تكثر فيـــه المقابلات المقصودة المتكررة ، من ان يتركوا المصالح والاغراض تعكر صفاء اعمالهم الصالحة : فلا يجنحو إلى الظفر بالمديـح الزائف ، او إلى إثارة إعجاب الناس : بـــل ليعملوا لوجه الله الكريم وحده ، لان من استهدف المجد الباطل فقد نال اجره وصدف

عن جزاء الآخرة . وهنا يدعو يسوع تلاميذه إلىان يعيشوا في حضرة الله عز وجل ، مؤكداً لهم في تكرار ذي مغزى ، ما سبق أن أشار إليه العهد القديم ، من أن الله بصير بكل شيء عليم ، وهي عقيدة تعتبر من اساسيات مبدأ التوحيد . لم يطنب يسوع في عرض هـذه العقيدة وتفصيلها بكثرة الامثال، وإن كان ذلك من ايسر الامور لديه ،لكنه أتى بها في معرض الكلام عن تلك الفرائض الثلاث ذات الاهمية الكبرى في حياة كل انسان، معلناً ان الله يرى الصدقة، كما يرى الصلاة والصوم . وبذلك لفت الانظار إلى القيمة البالغة التي تنطوي عليها هذه الاعمال، حاثاً تلاميذه على القيام بها إرضاء لله وحده ، وحباً لابيهم السماوي ، « الذي يراهم في الخفية » وجلي انه تمنى لو ان علاقة من الود المدعم بالإجلال ، توثقت أواصرها بين التلميذ وبـين الخالق ، عن طريق الابتهال والتعبد الحق . وسوف يعود إلى موضوع الدعاء ليؤكد ان كثرة الكلام في اثناء الصلاة لا مـبرر له ، لان الله عليم بما نحتاج اليه ، وكأنما اعرب عن رغبته في ان تتصف تلك العلاقة الودية بطابع الثقة المتناهية ، ثقة الابناء بأبيهم .. أما ما قاله يسوع في الصدقة ، فهو لا يختلف كثيراً عن توصياته الخاصة بالصوم والصلاة .

« إحذروا ألا تصنعوا صدقتكم أمـام الناس لكي يروكم ، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات . فإذا صنعت صدقة ، فلا تنفخ أمامك بالبوق كما يفعل المراءون في المجامع والاسواق لـكي يمتدحهم الناس . الحق أقول لكم، إنهم استوفوا أجرهم. أما أنت ، فإذا صنعت صدقة ، فلا تعلم شمالك ما فعلت يمينك، لتتم صدقتك في الخفاء، وأبوك

الذي يرى في الخفاء يجازيك

وإذا صليتم ، فلا تكونوا كالمرائين : فإنهم يؤثرون إقامة الصلاة في الجامع والميادين ، ليراهم الناس . الحق أقول لكم،إنهم استوفو اجرهم. أما أنت ، فإذا صليت ، فادخل مخدعك واغلق بابك، وصل إلىأبيك في الخفيه، وأبوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك». (متى ٦:١ -٦)

« وإذا صمتم فلا تكونوا متجهمي الوجه كالمرائين ، فإنهم ينكرون وجوهم ليظهروا للناس صائمين . الحق أقول لكم،إنهم استوفوا اجرهم . أما أنت ، إذا صمت ، فادهن رأسك واغسل وجهك لئلا تظهر للناس صائماً ، بل لأبيك الموجود في المكان الخفي، وأبوك الذي يرى فيالخفية هو يجازيك » . (متى ٦ : ١٦ — ١٩)

إذا كان يسوع قـــد اثنى في مطلع عظته على روح التجرد والفقر القائمة على الثقة بالله والاعتماد غير المشروط على عنايته ، إلا أنه لم يوقفنا من هذه الحالة النفسية إلا على الجانب المعنوي ؛ ولكن هناك شق آخر تمثله تلك الخيرات المادية نفسها: ما قيمتها الحقيقية من وجهة نظر الله ؟ أليست ضرورات يحتمها علينا البقاء ، وبالتـــالي ، ألا تكون جديرة بالحرص والاهتمام ؟ إن حكم يسوع صريح لا يناله اللبس : في حين كان العهد القديم يرى في النجاح المادي علامـــة على رضى الله وبركته ، وفي حين كان ينظر إلى الثراء كأنه الجزاء الوفاق للبر والفضيلة ، إذاً يسوع يحذر تلاميذه من المال . أما أن يكون الغنى مكافأة للصالحين ، فقـد سبق أن بدد يسوع هذا الوهم ، عندما أنـــذر تلاميذه بأنهم سيكونون عرضة للضيق والاضطهاد في هـــذه الدنيا ، فعليهم الا يلتمسوا ثواباً سوى ثواب الآخرة الثابت المضمون . لذلك قصر يسوع عنايته فيعظة الجبل على بيان الاضرار التي يلحقها المال بنفوس المتهالكين عليه ، ولم يشأ أن يعالج في هذه العظة ، النواحي الاجتماعية المترتبة على توزيـــع

المال بين الناس ؛ وأعلنها واضحة صريحة : إن محب المال عبد للمال ، أسير له . وأما تكديس خيرات الدنيا ، فذلك أمر محفوف بالاخطار التي تهدد امن النفس ، ولا تلبث أن تضللها وتغرر بهـا ، فضلاً عن أن مصير المال إلى الزوال : فالسارقون والسوس والآكلة هذه الآفات ، وغيرها ، لا تفتأ تنهش فيه وتتآزر على إفساده . وما أحرانا ان نجعل مالنـــا في خدمة المحرومين والمعوزين : هكذا نتفادى ضرره ونأمن جانبه ، بل ونجعل من النقمة نعمة ، إذ نهيء لانفسنا كنوزاً في السماء، إليها نشد أنظارنا ، لانه « حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك » .

(متى ٦ : ٢١)

وهناك ملاحظة ربما جاءت مؤكدة لاهمية الحفاظ على حرية النفس تجاه خيرات الدنيـــا في نظر يسوع . إن الإنجيل لم يتعرض لموضوع الإشراك، لان مستمعي يسوع كانوا شديدي التمسك بمبدأ التوحيد بالله، ولن يجابهوا الوثنية إلا فيما بعد ، في أثنـاء رحلاتهم التبشيرية في أنحاء العالم ؛ إذن لم يكونوا في حاجة إلى الاحتراس أو التحذير ، بل إلى تعمق أصول الحياة الروحية التي دعا إليها يسوع . وبالرغم من ذلك ، يرد هنا على لسان يسوع اسم صنم معروف ، مامون ، إله المال ، وهو الصنم الوحيد الذي طرأ ذكره في الإنجيل . هذا تلميح إلى أن المفتون بالمال مشرك ، يقدم على مذبح صنمه وقته وقواه وعقله المدبر ، بل لا يبالي بأن يضحي له بنفسه . فما الذي يبقى إذن ليقدمه لله ؟

« لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين : إمـا يترك الواحد ليخلص

للآخر ، وإما يدين للاول ويستهين بالآخر . إنكم لا تستطيعون ان تعبدوا الله ومامون » . (متى ٦ : ٢٦)

وبناء على ذلك ، فلا يحق للتلاميذ أن يتركوا القلق على مستلزمات الحياة المادية يستولي على انفسهم ، لأن عناية الله ساهرة عليهم ، لا تني ولا تكل . هـــذه المعاني جلاها يسوع في صفحة من أروع صفحات الإنجيل وأقواها شاعرية وبياناً. على أنه لا ينبغي أن يساء فهم أقواله، كأن يظن البعض أنه يدعو الى هجر الجد والعمل ، بحجة الاتكال على الله والاعتماد على عنايته : فالإنجيل بأسره شاهد صدق على مدى تقدير يسوع لحياة الجد والعمل ، وما أكثر ما تمثل بها في أمثاله ! ولا غرو ، فان العمل من مقومات الحياة الانسانية السوية . يطلب يسوع من كل إنسان ان يقوم بما فرض عليـــه من أعمال ، وفق استعداده وحسب قدرته ، ولكن في صفــاء نفس وهدوء بال ، دون الاستسلام إلى البلبلة والقلق المحموم. وفي هذا النص الذي نورده ، سوف نستمع إلى ندائه بالأطمئنان وعدم ترك النفس نهباً للقلق ، هذا النداء الذي يكرره خمس مرات على الأقل :

« فلهذا أقول لكم ، لا تقلقوا على حياتكم بسبب ماذا تأكلون ولا على أجسادكم بسبب ماذا تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس؟ انظروا إلى طيور السماء : فانها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء ، وأبوكم السماوي يقوتها . أفلستم أنتم افضل منها ؟ ومن منكم اذا استجمع همه ، يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً واحدة ؟ ولماذا تهتمون باللباس ؟ اعتبروا بزنابق الحقل ، كيف تنمو :

انها لا تتعب ولا تغزل ، وانا أقول لكم إن سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها . فاذا كان عشب الحقل الذي يعيش يوماً وفي الغد يطرح في التنور ، يلبسه الله هكـذا ، أفلا يلبسكم بالأحرى ، انتم يا قليلي الايمان ؟. فلا تضطربوا قائلين : ماذا نأكل أو ماذا نشرب او ماذا نلبس ، لأن هذا كله يطلبه المشركون ، بينما يعلم أبوكم السماوي انكم في حاجة إليه . فاطلبوا اولاً ملكوت الله وبره ، وهذا كله يزاد لكم. فلا تحملوا هم الغد، لأن الغد سيحمل هم نفسه. يكفي كل يوم شره .»

(متى ٦ : ٢٥ – ٣٤).

***

ويتكلم يسوع والجمع في نشوة ينصتون .. انها نفحة من هواء منعش طلق ، يسري نسيمها بين الصفوف ، فتتفتح البصائر وتدرك الاذهان ان الله قريب من الودعاء والرحماء ، وأنقياء القلوب .. وتنبثق الالفاظ من شفتي يسوع يسيرة دانية القطوف، مدعمـة بالصور والتشبيهات المعبرة الناطقة التي لا تخرج عن نطاق الحقائق النفسية الشائعة والخبرات الشخصية العامة .

والانسان ميال إلى النقد ، مدفوع بغروره إلى التنقيب عن عيوب غيره ، مفتون بنفسه ، عزوف عن نقائصه ، مقتنع بكمال سلوكه : فما على تلميذ يسوع إلا أن يعكس الآية ويقلب الوضع : فليفحص كل واحـد ضميره قبل ان يهم بمحاكمة غيره . والوصيـة جاءت في حينها ، فقد يتذرع بعض المستمعين بتنديد يسوع بالمواقف المعيبة التي

سبق ان ذكرها لينصبوا من أنفسهم قضاة يدينون ، بيد أنهم بالإدانة لجديرون . فليس إذن كل امريء بنفسه ، وليدقق النظر في طوايا سريرته ، تاركاً الناس وشأنهم :

« لا تدينوا لئلا تدانوا ، فإنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون ، وبالمكيال الذي به تكيلون يكال لكم . ما بالك تنظر الى القذى الذي في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك . يا مرائي ، أخرج اولاً الخشبة من عينك وحينئذ تنظر كيف تخرج القذى من عين اخيك . » (متى ٧ : ١ — ٥) .

وما دامت غريزة الانانية المستحكمة تحمل الانسان إلى ان يقصر عنايته على نفسه ، فلا يكترث بشؤون غيره ، فلا بأس من ان يلجأ يسوع الى هذا الاحساس الفطري ليحملنا إلى وضع أنفسنا مكان الآخرين، لنحاول فهمهم ثم معاونتهم : انهم بشر مثلنا ، والغيرة التي نخص بها مصالحنا ينبغي ان نبذلها في خدمة مصالح قريبنا .

« وكل ما تريدون ان يفعل الناس لكم فافعلوه أنتم لهم : هذا هو الناموس والانبياء . » (متى ٧ : ١٢)

واخيراً، هناك شعور فطري عميق رأى يسوع ان يتمثل به ليقرب مفهوم الله الى الاذهان: انها الغريزة التي تدفع الآباء الى السهر على مصالح بنيهم . هذا موضوع حظي بنصيب وافر من عناية يسوع ، فهو حري إذن بأن نقف عنده ولو برهة، في هذا العرض الخاطف لاهم نقاط عظة الجبل . لا جدال في ان غريزة الأبوة ، شأن سائر الواقع الإنساني ،

ليست بمأمن من النقد والتجريح ، وعلماء التحليل النفسي لم يحجموا عن التنقيب في خفاياها ، لجلاء ما تشتمل عليه من جوانب سلبية تلازم الجوانب الإيجابية المعروفة ، كما انهم لم يحجموا عن التعرّض لغريزة الامومة بالتحليل والنقد . على انه ، بالرغم من هذا كله ، لا خلاف في ان عاطفة الابوة الحقة ، ومثلها عاطفة الامومة الحقة ، لتعتبر من اسمى واروع المشاعر الانسانية ، حتى ان مذهباً فلسفياً بأكمله ، وهو مذهب كونفوشيوس وبلاد الصين القديمة ، تكوّن على اساس من عاطفة البنوة والبر بالوالدين . والعهد القديم ذاته ، كما سبق ان بينا ، كان قد عمد الى صورة الاب ، لينوه بوجود روابط من الود المبطن بالاجلال ، تربط الإنسان بخالقه . اما يسوع فيعود الى الصورة ذاتها ليصف بها الصلة الكائنة بين الله وبين ابناء الملكوت : كأن الله اب ذو رحمة متناهية ، منزهة من كل شائبة ومن كل عيب .

وردت هذه الصورة على لسان يسوع ، في معرض الكلام عن صلاة الطلب . ذكر يسوع ما يتمتع به كل اب من حرص على صالح ابنائه ، واستنتج من هذا الاحساس حجة لتدعيم دعوته الى الثقة بالله . ولنلاحظ انه لم يمنّ تلاميذه بأنهم سينالون لا محالة كل ما يتمنون : ليثقوا من ان الله سيستجيب الى دعائهم ، وان جاءت استجابته مغايرة لما كانوا يتوقعون : فان أي أب أدرى بما يحتاج اليه بنوه . وبدهي أن الابناء الذين تمثل بهم يسوع ، إنما هم الأبناء البررة لا العصاة المتمردون ، ولا أولئك الذين يضجون بالشكوى من الله عز وجل ، في حين ينبو سلوكهم عن سلوك الابناء البررة ، ولا تعرف نفوسهم سبل الطاعة والعبادة

والاخلاص . ونشير أخيراً الى ان هذه الثقة يجب ان تفهم داخل إطار الانجيل العام ، أي انها لا تبطل شريعة مجاهدة النفس وتطهير القلب . لا جدال في ان الله عز وجل يطلب الكثير من بعض عباده ويمتحنهم امتحاناً قاسياً عسيراً ، لا يدركون دائماً له سبباً ولا تأويلاً ... ولا مخرجاً . وقد تعجز كلمات الاقناع عن إعادة الصفاء الى تلك النفوس الجريحة . ومع ذلك ، فالله باق هو هو ، أباً رحيماً حنوناً ، بالرغم من قصور عقولنا عن إدراك أسرار حكمته ، ولكنه عليم بما نحتاج اليه ؛ ومن جهة اخرى ، ألا يمكن ان تكون تلك الشدائد والآلام وسيلة لإيقاظ الناس السعداء من أنانيتهم ، وحملهم على الاضطلاع بمسؤولياتهم في المجتمع ، ليكونوا أقل ضراوة واكثر إنسانية وإخاء ؟ ... وقد يتدهور الموقف تماماً وتخيم على النفس الخيبة ، ويهددها اليأس ، فلا يبقى أمامها إلا الاعتراف بأن الحياة الدنيا إنما هي وسيلة لا غاية ، وانها زائلة فانية ، بينما السعادة الحقة تنتظر المؤمن في الحياة الآخرة . ثم أليست القدرة على الصبر والاحتمال نعمة من عند الله وفضلاً كبيراً ؟ وعلى كل ، سيعود يسوع فيما بعد ،الى توضيح الدور الذي تلعبه التضحية ومجاهدة النفس في افتداء العالم :

« إسألوا تعطوا ، اطلبوا تجدوا ، اقرعوا يفتح لكم ، لأن كل من يسأل يعطى ، ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له . أي انسان منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟ أو إذا سأله سمكة يعطيه حية ؟ فاذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون كيف تمنحون العطايا الصالحة لأبنائكم ، فكم بالأحرى ابوكم الذي في السماوات يمنح الصالحات لمن يسأله . »

(متى ٧ : ٧ — ١١)

إن يسوع ، في هذه النبذة من عظة الجبل ، يحيل مستمعيه من الآباء إلى تجربتهم الخاصة وخبرتهم الشخصية ، لذلك جاء كلامه جلياً نيراً ومقنعاً ، لما حمله من ذكريات متعلقة بالحياة العائلية . ولكن هناك نصوصاً اخرى تبين السيد المسيح وقد استعمل لفظة الاب للدلالة على الله ، دون تعليق او تفسير . فقد كان من دعائم رسالته المناداة بأن الله أب . فما الذي عناه من هذه التسمية ؟

إن كلمة « الاب » جاءت على لسان يسوع في معاني مختلفة : فهي تؤكد اولاً وقبل كل شيء أن الله هو خالقنا ، غير أنها تشير إلى جانب فريد من هذا الخلق ، فإذا كان الله خالق الكون بما فيه ومن فيه ، فلا يحق أن يسمى أباً إلا بالنسبة إلى صنف معين من الخلائق ، صنف الإنسان ؛ وعندئذ يصبح معنى الكلمة أنه خالق لكائنات تتمتع بالحرية ، مكونة على صورته ، قادرة على الإدراك والحب على مثاله . ثم إن تسمية الله بالآب إشارة واضحة إلى أنه تعالى يعامل الإنسان ويصرف أموره بصفته كائناً حراً ، لذلك قرر أن يدعوه إلى شرف الانتماء الى خاصته المقربين أو بتعبير آخر ، إلى ما يشبه حالة التبني : إن إطلاق كلمة الآب على الله تعالى ، هي في الواقع إقرار بمكانة الإنسان الفريدة في الكون ، وبالمهمة السامية التي كلفه الله بها فيه ، ثم بالمنزلة التي أراد الله نفسه أن يحتلها في حياته .

وردت هذه التسمية في نبذة من اكثر أجزاء عظة الجبل شهرة وشيوعاً ، تلك هي الصلاة المثلى التي علمها يسوع تلاميذه ، والتي مطلعها : « أبانا الذي في السماوات » . انه لمن الصعوبة بمكان ان نتصور نوع الانطباع

الذي انفعل له المستمعون آنذاك ، وقد انقضى عشرون قرناً على تفوه يسوع بهذه الصلاة القصيرة المقتضبة لان الله بصير عليم. هل تنبه التلاميذ الى ان هذه الصلاة تحمل برنامجاً سامياً للنهوض بالحياة الروحية المتطلعة الى الكمال ؟

يشرع المؤمن بتجديد إيمانه ، بأنه في حضرة الله ، اذ يدعوه باسم الآب . هو بذلك يعبر قبل كل شيء عن ثقته الكاملة بالذي وهبه كل شيء ، وهو موجود حيث يصلي ، يراه في الخفية ويعطف عليه . وتتوالى بعد هذه المقدمة الدعوات والطلبات ، موزعة على مجموعتين ، تتعلق إولاهما بمصالح الله ، ان صح هذا التعبير ، بينما ترتبط الثانية بمصالح الانسان . ولا يظن ان هذا التوازن الذي نلمسه بين المجموعتين هو وليد الصدفة . انه يتعين على المؤمن ان يتجرد اولا من ذاته ويخرج من انانيته ويعنى بالمسائل الدينية الكبرى قبل ان يذكر بين يدي الله مشاكله الخاصة . لذلك فهو يبتهل الى الله ، طالباً أن يأتي ملكوته ، هذا الملكوت الذي هو بمثابة العمود الفقري لتعاليم يسوع. ونلاحظ ان اسلوب الكلام عن مجد الله وعن مشيئته ذو دلالة ينبغي الا تفوتنا ، فهو يثير الدهشة في اولئك الذين لم يفكروا في مدى الحرية التي انعم بها الله على الانسان .

ما الحكمة من الدعاء لان يتقدس اسم الله ؟ وهل من شك في ان قدسية اسمه ومجده الازلي منزهان من كل مساس ؟ أليست الخليقة غير العاقلة تعمل بمجرد وجودها ، على تسبيح الله وتقديس اسمه ؟ كيف

يمكن ان يكون تمجيد اسمه تعالى متوقفاً علينا ؟ ورغم ذلك كله ، فان السيد المسيح يذكرنا بأنه ينبغي انطلب من اللهان يمجد اسمهالقدوس، لان الانسان كائن عجيب في تناقضه : انه مزيج من ضعفومن عظمة ، في وسعه ان يسمو الى اعلى درجات الكمال بمعونة الله ، وفي استطاعته ان ينحط الى اسفل دركات الشر اذا ما ركبه شيطان التمرد والعصيان وحريته هذه تجعله قادراً على تحدي الله والتجديف باسمه الكريم والنيل من صورته التي طبعت عليها نفوس اخوانه بني البشر ، كما تجعله قادراً على مجيد اسمه تعالى والعمل على نشر معرفته وحث النــاس على حبه ، بفضل اقواله وسلوكه . ويسوع هنا يدعونا الى الابتهال الى الله لــكي يمنحنا القدرة على القيـــام بتمجيده بكل حرية واخلاص ، اسوة بالخليقة كلها .

أما حمل الانسان على ان يطلب من الله ان تتحقق مشيئته ، فهذا دليل على انه من الممكن ان يتصدى الانسان لإرادة الله ، ودليل على أن الله قد لا يحول دون معصية الانسان ورفضه الامتثال لوصـــاياه . لا خلاف في ان إرادة الله هي النافذة آخر الامر ، إذ يستحيل ان يتملص الانسان من الجزاء النهـائي الذي قرره الله . ولكن الله يترك لكل انسان حرية الاختيار بين الخير والشر ، وإن ابدى له رغبته في ان يختار طريق الخير والسعادة . فاذا فـّضل مسلك الشر ، وبالتبعية مسلك الهلاك ، أفلا يعتبر هذا التفضيل إهانة لرغبةالله ومخالفة لمشيئته الاولى ؟ لهذا يحثنا يسوع على الصلاة لكي ينعم الله علينـــا بمحبته ويستميل قلوبنـــا لأنجاز مشيئته . وما دام الانسان يصلي من أجل

تحقيق مجد الله وملكوته وتنفيذ مشيئته ، إذن فهـــذا كله وقف على الانسان ، الى درجة ما ، مهما كانت ضئيلة وفي حدود ينبغي بطبيعة الحال توضيحها . حقاً إن صلاة« أبانا الذي في السهاوات » تعطينا صورة للحرية الإنسانية هي على نقيض ما تذهب اليه القدرية الجبرية .

ونذكر اخيراً ان يسوع عاد يكرر فكرة كان قد تعرض لها منذ حين ، وهي ان الله لا يغفر للانسان خطاياه إذا هو لم يتنازل عن ديونه المستحقة لدى الناس ، وما لم يغفر لقريبه ما ارتكبه في حقه . هـذا هو الشرط الاساسي لنيل العفو والغفران .

« أما انتم إذا صليتم ، فلا تكثروا الكلام مثل الوثنيـين :.فانهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم . فلا تتشبهوا بهم ، لأن اباكم عالم بما تحتاجون إليه قبل ان تسألوه . ولتكن صلاتكم هكذا :

أبانا الذي في السهاوات ،

ليتقدس اسمك ،

ليأت ملكوتك ،

لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض .

خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ،

وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن لمن أساء إلينا ،

ولا تدخلنا في تجربة ،

لكن نجنا من الشرير .

فانكم إن غفرتم للناس زلاتهم ، يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم ، وإن لم تغفروا للناس ، فأبوكم ايضاً لا يغفر لكم زلاتكم . »

(متى ٦ : ٧ — ١٥)

وثمّ شيء رأى يسوع ان يذكرنا به قبل ان تبلغ عظته خاتمتها ، وهو ان أسلوب الحياة الذي يدعو إليه ليس بالرحب الهين ، إنما هو أسلوب المجاهدة والعزم :

« ادخلوا من الباب الضيق ، لانه واسع الباب ورحب الطريق المؤدي الى الهلاك ، والسائرون فيه كثيرون . ما أضيق الباب وأوعر الطريق المؤدي الى الحياة وما أقل الذين يجدونه ! . »

(متى ٧ : ١٣ — ١٤)

ثم راح يحذر تلاميذه من الانبياء الكذبة ، الذين يتسللون في مظهرهم الجذاب الخادع ليلقوا بذور الخراب بين صفوف المؤمنين . غير أن الكشف عنهم هين يسير : فالشجرة تعرف من ثمارها ، وأعمال المرء تنبيء عن قيمته الروحية . والثمار ليست الالفاظ الطنانة التي تتشدق بها الشفاه ، وتكريم اسم يسوع او تلقيبه بالسيد والرب لا ينهض دليلاً على صدق الايمان ، كما انه لا جدوى من الاعتداد بملازمته او بإجهاد النفس من اجله : الشيء الوحيد الذي لا خدعة فيه إنما هو

تنفيذ ارادة الله في كل شيء :

« ليس كل من يقول لي : يا رب ، يا رب ، يدخل ملكوت السماوات ، لكن الذي يعمل إرادة ابي الذي في السماوات هو يدخل ملكوت السماوات . » (متى ٧ : ٢١)

وعلينا ألا ندع هذا النص يمر بنا دون الوقوف عند عبارة تستدعي الانتباه وتدعو إلى التفكير : ان يسوع يقول هنا « أبي » ، ولم يعد يقول « أبيكم » .. أكان ينوي من هذه المغايرة الاشارة إلى التفرقة بين نمطين من العلاقة بالله ، وان الوشائج التي تربطه بالله ليست من نوع علاقة الانسان به ؟ .. ومهما يكن مغزى يسوع من هذا التعبير ، فان الآية التالية لا تلبث ان تفتح لنا آفاقاً جديدة محيرة ، وهي تشير الى الدور الذي سيقوم به يوم الدينونة ، حيث لا سبيل الى دخول الجنة لمن نبذهم وتبرأ منهم :

« فإن كثيرين سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب، يا رب ، ألم نكن باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا الشياطين ، وباسمك صنعنا معجزات كثيرة ؟ فحينئذ أعلن لهم أن لم أعرفكم قط ؛ فاذهبوا عني ، يا فاعلي الإثم » . (متى ٧ : ٢٢ ، ٢٣)

وكمسك الختام تطالعنا تلك الصورة الرائعة للبيت المبني على الصخر:

« فكل من يسمع كلامي ويعمل به ، يشبه رجلاً حكيماً بنى بيته على الصخر ، فنزل المطر ، وفاضت الانهار وهبت الرياح، واندفعت على

ذلك البيت ، فلم يسقط ، لأن أساسه كان على الصخر . وكل من يسمع كلامي هذا ولا يعمل به ، يشبه رجلاً جاهلاً بنى بيته على الرمل ، فنزل المطر ، وجرت الأنهار وهبّت الرياح ، وصدمت ذلك البيت ، فسقط ، وكان سقوطه عظيماً » . (متى ٧ : ٢٤ — ٢٧)

وبقي الناس على صمتهم مشدوهين؛ والذي أذهلهم أن يسوع لم يكن في تعليمه كالكتبة لا يفتأون يشهرون سلاح الكتاب المقدس وأحكام السنة ليتخذوا منها ذريعة وحجّة ، في حين تكلم يسوع باسمه مباشرة وبسلطان عجيب لم يسبق له مثيل .

ونزل الجمع من المنحدر المؤدي إلى شاطيء بحيرة طبرية ، والسؤال المحير يملأ الاذهان بل ويبلغ الشفاه : من يا ترى يكون هذا الإنسان ؟.

الفصل الخامس

المعجزات والتلاميذ

إن مهمة التبشير التي تفرغ لها يسوع قادته في جولة خلال مقاطعة الجليل ، بصحبة تلاميذه الاوائل . فراحوا يقطعون الطريق معاً ، متنقلين من قرية إلى قرية . غير أن الإنجيليين لم يعنوا بتدوين تفاصيل هذه الرحلة ، فلا نظفر بأكثر من اسم مبثوث في تضاعيف النص ، يمكّننا من تحديد مسرح هذا الحادث أو ذاك . نسير مع الراوي تارة إلى بلدة نائين ، تلك المدينة الصغيرة المختبئة في ثنايا المرتفعات المشرفة على سهل أسدرالون الخصيب ، وننتقل برفقته تارة أخرى إلى مدينة الناصرة لنحضر اجتماعاً في مجمعها،او نرحل إلى كفرناحوم وما جاورها من الدساكر والقرى المطلة على بحيرة طبرية، وما أكثر ما نجد يسوع على شطآنها وقد يجتازها ليعبر إلى برها الشرقي . ويسوع في هذه الأماكن وغيرها ، يعلم الشعب ولا يبخل بالكلمة على أناس يحبون الكلام ولا يضنون به ؛ وقد عرفته الجموع وأصبح صيته دائما يسبقه اينما حل .

واستبانت مواقف الناس حياله ووضحت شيئاً فشيئاً ؛ وإذا اتسم تصرف مواطنيه ، سكان كفرناحوم ، واهل القريتين المجاورتين لها ،

بشيء من التحفظ والترقب ، إلا أن عدداً كبيراً من مستمعيه ابدوا استعداداً طيباً للاعتراف به نبيـاً ، وكانوا يلجأون اليه ليعيد الصحة لمرضاهم ولينقذ كل من كان الهلاك يهددهم. فهذا رجل أبرص يستصرخه ذات يوم قائلاً : « يا سيد ، إذا شئت ، فإنك قادر على ان تطهرني » . ويجيبه يسوع إلى طلبه في الحال فيبرأ . وتهب على بحيرة طبرية عاصفة هوجاء منذرة بالشر ، بينما كان التلاميذ يجتازون البحيرة في مركب صغير مع معلمهم . ولا عجب ، فالبحيرة ترقـد في قاع حوض عميق تكتنفه الجبال ، مما يجعلها عرضة لتقلبات من المحال التنبؤ بهـا ، وفي أقل من ربع ساعة من الزمن قد تتحول مياهها الهادئة الوديعة ركامات من الامواج المزبدة الصاخبة التي لا تلبث ان تندفع بعنف لترتطم بالشاطيء أو بما فوقهـا من سفن ومراكب . هبت العاصفة ، ويسوع راقد قد نال منه الإعياء ، ولم تعـد صدمات الموج المكتومة ، التي جعلت كل من في السفينة يضطرب ويترنـح ، بقادرة على ان تغلب التعب والارهاق . ويحس التلاميذ بالخطر الداهم فيهرعون الى يسوع وهم في غاية الهلع : لقد بلغ السيل الزبى ، وكل لحظة تمر تزيد سفينتهم ماء وحالتهم خطراً وسوءاً . اما هو ، فلم يزد على ان قال لهم : « لماذا أنتم في ذهول خائفون ، يا قليلي الايمـان ؟ » ونهض وزجر الريح ، فأخلدت طائعة الى الهدوء ، وكذلك فعلت المياه . فبهت التلاميـذ وتملكهم الذهول من شدة الرهبة الدينية التي استولت عليهم . وكيف لا ، وقد بدا لهم من المستحيل عزو هذا الحادث إلى محض الصـدفة والاتفاق .

ما الذي حدا بيسوع الى إجراء مثل هذه الاعمال الخارقة؟ انها الرحمة دون شك ، كما يستدل ذلك من دراسة جميع المعجزات التي سجلها رواة الاناجيل . لا أثر في سلوكه لحب الظهور او التطلع الى الصيت والشهرة وما يستتبعه ذلك من تكلف مقيت . وجملة القول ، فانه كان يرمي الى مؤاساة ألم ، او شفاء علة ، او طرد شيطان . هذه الاسباب كلها صحيحة ، إلا أننا نلمس سبباً آخر أبعد منالاً ، ألا وهو طرح موضوع الدعوة على المستمعين والعمل على إحراجهم ليتخلوا عن تحفظهم وحيادهم ويقترعوا له او عليه . لا شك في أن سمو تعاليمه وطيبة قلبه التي كانت تتجلى على محياه ، وتلك المطابقة الظاهرة الملموسة بين نبؤات العهد القديم وما كان يبدو من سيرته وأعماله ، كل ذلك كان كفيلاً بخلق مشكلة حول شخصه . إلا أن معاصري يسوع كانوا ، في ظروفهم الراهنة ، احوج إلى شيء آخر ، غير الأدلة الذهنية ، ليقتنعوا بالدعوة وينصاعوا إليها ، وليس مثل المعجزات حجة تحدث في المشاهدين لها صدمة تهز النفس وتخرجها من سباتها وطمأنينتها الزائفة . وليس ثمة شك في ان يسوع أنجز ما أنجز من المعجزات لينمي بذور الايمان في مواطنيه ، ويقوي في نفوسهم روح الثقة بالله وبه ايضاً . هذا وان كثرة ورود لفظة الايمان في روايات الاناجيل التي تتناول سرد المعجزات لذات دلالة واضحة . ثم ، ألا ينبغي أن نرى في المعجزات تلك العلامات المرتقبة التي كان ظهورها مؤذناً بحلول عهد المسيح ؟

وأروع مثل للايمان الصادق أورده الانجيل نجده في شخص قائد المائة الروماني الذي هرع إلى يسوع ذات يوم ، وكان عائداً إلى

كفرناحوم ، ليناشده أن يشفي غلامه المصاب بمرض خطير :

« يا سيد ، إن فتاي ملقى في البيت ، معذب بعذاب شديد . فقال له يسوع: إنـّي آت لأشفيه. فأجاب قائد المائة قائلاً : يا سيد ، لست مستحقاً ان تدخل تحت سقفي ، ولكن قل كلمة واحدة فيبرأ فتاي ، فإني وإن كنت رجلاً مأموراً ، لي جند يأتمرون بأمري ، أقول لهذا : اذهب فيذهب ، وللآخر ايت فيأتي ، ولعبدي إعمل هذا فيعمل . فلما سمع يسوع ، تعجب وقال للذين يتبعونه : الحق أقول لكم،إنـّي لم أجد مثل هذا الايمان في إسرائيل . أقول لكم إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ، ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السماوات ، وأما بنو الملكوت فيلقون في الظلمة خارجاً : هناك يكون البكاء وصريف الاسنان . ثم قال يسوع لقائد المائة : اذهب ، وليكن لك كما آمنت . فشفي فتاه في تلك الساعة » .

(متى ٨ : ١٣ —١٦

هذا الجندي الذي حظى بإعجاب يسوع ، لم يكن يهودياً ،ولكنه كان يميل بعاطفته الى عقيدة التوحيد. الا أن ايمانه وثقته بيسوع صارا مثلاً رفيعاً اقتدى به اجيال من المؤمنين . وانها لفرصة انتهزها يسوع ليؤكد أن جميع البشر ، بصرف النظر عن فارق الجنس والوطن ، مدعوون الى دخول ملكوت الله ، وأن رسالة الملكوت رسالة عالمية، لا تعرف التحيّز ولا تبالي بالفروق.

ورويداً رويداً اتضح للتلاميذ انمعلمهم يتمتـّع بقدرات خارقة .

فقد شاهدوه ينتهر الرياح والأمواج ، ويشفي المرضى، من قصده منهم ومن كان طريح الفراش بعيداً ، على حد سواء ؛ ورأوه كذلك يطرد الشياطين ، عندما كان على البر الشرقي من بحيرة طبرية ... فكيف لا تنفعل نفوسهم لذلك كله انفعـــالا شديداً ؟ نعم ، ها هي ذي الأزمنة الخوالي التي خلد ذكرها الأنبياء تجدد عهدها ، بعــد قرون من الجمود والركود ، وفجـــأة عادت قدرة الله تتجلى وسط شعبه ، واستأنف التاريخ سابق مجراه .

ونحن لا نستطيع في هــذا الحيز الضيق أن نكرر عرض الأحداث الخارقة التي روتهـا بشائر الأناجيل ، وليس أيسر على القاريء من ان يبحث عنها بنفسه في تضاعيف نصوص القديس متى والقديس مرقس والقديس لوقا والقديس يوحنا . وستؤدي به هذه القراءة إلى الوقوف على المشاعر الانسانية العميقة التي أبداهـــا كل الذين حظوا بإحدى معجزات يسوع . أما هو ، فكان من عادته أن يوصيهم بالسكوت ، اللهم إلا اذا كانوا من سكان المقاطعات الوثنية ، حيث لا يخشى من أن يثير الخبر حماساً قد يسيء إلى رسالة الخلاص الروحي التي جـــاء من أجلها . غير ان عدد الخوارق التي وردت مفصلة في الأناجيل محدود ، كما ان البشيرين كثيراً ما يتناولون الوقائع جملة لا تفصيلاً ، فيروون مثلاً أن في أحد أيام السبت ، والسبت هو يوم الراحـة الشرعية عند اليهود ، انتظر أهل كفرناحوم حـلول ساعة الغروب ليحملوا مرضاهم إلى يسوع ، خوفاً من مخالفة الشرع ، ولا يفيدنا الراوي اكثر من هذه الالمامة المقتضبة.والبشير يوحنا لا يروي إلا عدداً قليلاً من المعجزات ،

غير انه حريص على دقة وصفها . ومن بين ما سرده من معجزات ،ما وقع في أورشليم ، في أثناء مواسم الحج المختلفة التي كانت تجعل هيكل أورشليم مثابة ومزاراً لليهود المتفرقين في انحاء البلاد وسائر العالم الروماني .وكان ليسوع مع المرضى وقفات عديدة ، منها حالة الكسيح الذي كان ملقى بجانب البركة ذات الأروقة الخمسة ، او بركة الغنم ، وكانت عبارة عن مستودع أو خزّان بالغ السعة ، كشفت عنه الحفائر الأثرية بالقرب من باب القدس المعروف بباب ستي مريم . ويروي ايضاً يوحنا البشير قصة ذلك الضرير بالمولد الذي أعاد له يسوع نعمة البصر والنور . ومن بين المعجزات التي تمت في الجليل ، ذكر البشيرون بعث ابنة رئيس مجمع كفرناحوم وابن أرملة نائين الوحيد .

إن قراءة مثل هذه الروايات لتثير عواطف النفس وتؤثر فيها تأثيراً عميقاً . ولا عجب ، فقد كانت لأوائل المسيحيين غذاء لإيمانهم وذخراً ، ولا يقلل من شأنها جنوح بعض المجتمعات التي غلبت عليها النزعة العقلية اليوم إلى إنكارها ، كما انكرت من الدين كل التعاليم المتصلة بعالم ما فوق الطبيعة . فلا غرو إذا راح أصحاب سير السيد المسيح المتأثرون بهذه النزعة ، يغربلون نص الاناجيل لتصفيته من كل خارق عجيب ، زاعمين ان ذلك كله إنما هو وليد الوهم ونسيج الخيال .. إلا انهم شوهوا شخصية السيد المسيح بمحاولتهم طمس جانب من جوانبها المميزة . ان رفض الخوارق بأسم العلم المزعوم لا يمكن إلا ان يورط في المأزق . ومع التسليم بان كثيراً من المؤمنين في الوقت الحاضر يستميلهم الإنجيل بسمو مبادئه اكثر منه بأي شيء

آخر ، فإن الاستهانة بالمعجزات تشكل خطأ جسيماً : ان المعجزات وحدها هي التي تستطيع ان تكشف لنا النقاب عن جانب كبير من نفسية يسوع ، وتبصرنا بحنانه اللامتناهي ، فضلاً عن انها تمثل فرصة لاختبار قوة إيماننا وثباته : لا شك في ان يسوع ، باثبات قدرته على إبراء الاجسام ، كان يعمل على تهيئة نفوس تلاميـــذه للإيمان برسالة الخلاص الروحي التي سينهض بأعبائها .

ماذا عنى يسوع من قوله لتلك المرأة التي شفاها : (أنظر متى ٩: ٢٢) :« تشجعي يا ابنتي ، فان إيمانك قد أنقذك » ؟ أهي سلامـة الجسد ، أم هو خلاص النفس ؟ سؤال محير حقاً . اما في حادث شفاء مقعد كفرناحوم ، فلا مجـال للتردد : كانت غاية يسوع خلاص نفس الكسيح المسكين . وقـع الحادث في « البيت » ، أي بيت سمعان بطرس ، وكان ، كسائر المساكن الشعبية ، ذا سقف مصنـــوع من عيدان البوص المرصوصة والمغطاة بالطين الممزوج بالتبن ، كما هو متبع في وادي الاردن حتى اليوم ، فلم يكن من العسير ، والحالة هـــذه ، إجراء فتحة في هذا السقف ؛ وعندئذ تتضح سائر تفاصيل الحادث :

« وبعد أيام عاد (يسوع) ودخل كفرناحوم.وسمع أنه في البيت، فتقاطر إليه الناس حتى أنه لم يبق فيه موضع لقدم ولا عنـد الباب . وبينما كان هو يبشرهم بالكلمة ، أتوا إليه بمخلع يحمله أربعةمن الرجال. ولما عجزوا عن أن يصلوا إليه بسبب الجمع، كشفوا السقف حيث كان، وبعد أن اصطنعوا فيـه فجوة ، دلوا منه الفراش الذي كان المخلع

مضطجعاً عليه . فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمخلع : يا بني ، مغفورة لك خطاياك . وكان قوم من الكتبة جالسين هناك؛ فشرعوا يفكرون في قلوبهم : ما بال هذا يتكلم هكذا ؟ إنه يجدف . من يقدر أن يغفر الخطايا إلاّ الله وحده؟ وللوقت علم يسوع في نفسه ما يجول في خواطرهم وقال لهم: لماذا تفكرون بهذا في قلوبكم؟ما الأيسر ، أن يقال للمخلع: مغفورة لك خطاياك ، أم أن يقال : قم ، احمل سريرك وامش ؟ ولكن لكي تعلموا أن ابن البشر له سلطان على الأرض أن يغفر الخطايا ، قال للمخلع : لك أقول ، قم، احمل سريرك واذهب ألى بيتك. فقام للوقت، وحمل سريره ، وخرج أمام الجمع حتى دهش كلهم ومجدوا الله قائلين : ما رأينا مثل هذا قط » . (مر ٢ : ١ — ١٢)

وحماسة الجماهير هذه لا تبـــدو لنا مصطنعة متكلفة ، فيسوع لم يكتف بأن يقول للرجل المخلع إنه طاهر من كل خطيئة ، بل أعلن أنه هو يسوع يتمتع بالقدرة على غفران الخطايا . « لكي تعلموا أن ابن البشر قادر على غفران الخطايا على الأرض ... » ولم يسبق قط أن منـــح الله أحد الأنبياء مثل هذا السلطان البتة . وبهت الكتبة وأخذت الظنون تعتمل في قلوبهم وتذهب بطمأنينة نفوسهم . أمـــا نسب ابن الانسان الذي أطلقه يسوع على نفسه ، فقد كان له معنى دقيق سوف نوضحه . حسبنا الآ ن ان نلاحظ أن هـــذا النسب لم يرد في الانجيل للدلالة على يسوع إلا على لسان يسوع نفسه .

وفي أثناء تجوال يسوع في مقاطعة الجليل ، كان عدد أتباعه يزداد

شيئاً فشيئاً . وذات يوم مر يسوع بالقرب من مكاتب تحصيل المكوس في كفرناحوم ، ووقع نظره على متى لاوي العشار ، وكان جالساً إلى مائدة الجباية ، فدعاه إليه ، ولبّى لاوي الدعوة على الفور .

ولقد ذهب الظن ببعض المؤرخين إلى أن الفترة الأولى من بشارة يسوع لم تكن سوى مواكب نصر ومظاهرات تضج بالحمية وأن إقبال الجموع على يسوع كان غاية في الحماسة والاحتفاء . هذه نظرة للأحداث تنطوي على كثير من المبالغة . لا خلاف في أن يسوع واجه جموعاً كبيرة العدد من المستمعين في بعض المناسبات ، في اجتماعات المجامع ، أو في ظروف أخرى جمعت حوله أناساً جاءوا إليه من بعيد . ولكن، فيما عدا ذلك،لم يكن جمهوره وفير العدد،وإننا نستنتج،مثلاً ، من رواية إبراء مقعد كفرناحوم السالفة ، أن أقصى ما بلغه عدد الحاضرين الذين ملأوا الدار وسدوا الباب يتراوح بين الخمسين والمائة ، بدليل أنهم لم يحولوا دون الحاملين إلى جانب الدار الخلفي ، لارتقاء الدرج المؤدي إلى السطح . كما انه لا يجب ان تغرنا حال السامعين : فانهم يتعجبون ، ويصيبهم الذهول ، فينطلقون يمجدون الله ، ولكن هذا الانفعال ، باستثناء التلاميذ ، ما كان ليبقى ويدوم ، ولا تلبث حالة التردد والتحفظ أن تعود . هذا شأن الجماهير في كل زمان : فهي لا تسلم قيادها في مثل هذه السرعة : انها دائماً تنتظر لترى . . .

ولكننا إلى جانب هذه الظاهرة نشهد قيام معارضة قوية أخذت تنسج خيوطها وتعد عدتها . نشبت أولى معاركها في ميدان الأدناس

التي حذّر منها الشرع،بينما كان الفريسيون ، ومعهم الآسينيون وأتقياء اليهود ، لا يدخرون وسعاً في تجنبها . والشرع في هذا الباب لم يشتمل إلا على بعض النصوص الموسوية القليلة؛غير أن سيلا زاخراً من الأوامر والنواهي الموضوعةعلى يد الفقهاء غمر بساطتها وأفسد روحها، فأضحى هذا الباب من الشرع شيئاً بالغ التعقيد والقسوة ، لا يقوى على ممارسته إلا من أوتوا قدراً غير قليل من التيقظ والتدقيق ، أما عامة الشعب فقد عجزوا عن ذلك كل العجز . وترتب على ذلك نشأة ما يشبهالطبقة الأرستقراطية الدينية ، طبقة الأطهار ، وكانوا يحذرون من مخالطة العامة مخافة أن يتدنسوا . أما يسوع فكان لا يبالي بهذه النواحي إذا ما عارضت مصالح النفوس ؛ فكان لا يتحرج من تلبية الدعوات إلى الطعام ، بصرف النظر عن سمعة أصحابها . ففي اليوم الذي دعا فيه متى لاوي لينضم إلى جماعته ، نراه مع تلاميذه يجالس على مائدة متى جماعة من العشارين ، ممن كانوا في نظر الشعب خطأة فاسقين ، فيثور لذلك الفريسيون. . الواقع أن أول ما نعاه الفريسيون على يسوعهو عدم اكتراثه هذا بالتزامات الطهارة الشرعية : هذا الذي أحنقهم عليهوأثار نقمتهم ؛ ولم يغفروا له اندماجه بعامة الشعب دون مراعاة شرائع الطهارة ، وهي في اعتقادهم من أهم عناصر الدين . وقالوا يومئذ لتلاميذه :

« لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطأة ؟ وسمع يسوع ، فقال : لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل ذوو الأسقام. فاذهبوا وتعلّموا معنى

الآية : إني أريد رحمــة لا ذبيحة .. فإني لم آت لأدعو الصديقين بل الخطأة » . (متى ٩ : ١١ — ١٣)

ولم يكن تلاميذ الناسك يوحنا المعمدان إنفسهم بمنــأى عن مثل تحرج الفريسيين وتأثمهم : لقـــدكانت جماعة أتباع يسوع لا يبالون بنوافل الصوم ، في حين كان بعض أتقياء اليهود يحرصون عليها . ويرد عليهم يسوع ،متذرعاً بجدة الدعوة التي جاء من أجلهـا: إنه طالما بقي مع تلاميذه ، فهناك ما يفوق أهمية نوافل الصوم ؛ أمـا فيما بعد ، فسوف يعنى التلاميذ بهذا الامر . وأما الآن وهو موجـود بينهم ، فإنهم يعيشون أيام سعادة لا محل فيها لحزن الصوم وتجهمــه . وكما أن يوحنا المعمدان كان شـّبه نفسه برفيق العريس الذي يتوارى خلف صديقه يوم العرس ، استعان يسوع بالصورة ذاتها ليدافع عن اصدقائه :

« حينئذ دنا إليه تلاميذ يوحنا وقالوا : لماذا نحن والفريسيون نصوم كثيراً وتلاميذك لا يصومون ؟ فقال لهم يسوع : هل يليــق بأصدقاء العريس ان ينوحــوا ما دام العريس معهم ؟ ولكن ستحل أيام الفراق فينقطع العريس عنهم ، وحينئذ يصومون . ليس أحد يجعل رقعة من ثوب جديد في ثوب بال ، لأنها تأخذ ملأها من الثوب ، فيصير الخرق أسوأ . ولا تجعل خمر جديدة في زقاق عتيقة ، وإلا انشقت الزقاق ، فتراق الخمر وتتلف الزقاق . ولكن تجعـــل الخمر الجديدة في زقاق جديدة فتحفظ جميعاً . » (متى ٩ : ١٤ — ١٧)

غير انه ينبغي ان نقدر الأمور على حقيقتها : ان يسوع ومريديه ،

وان لم يمارسوا مـا كان مصطلحاً على تسميته صوماً ، إلا ان ظروف معيشتهم المادية كانت بعيدة عن التنعم وأقرب إلى الستر والكفاف . وإذا رأيناه يلبي دعوة بعض الأثرياء لتناول الطعام على مائدتهم ، فقد كان في حياته اليوميـة لا يختلف عما اعتاده أهل الريف ، الذين لا يجدون دائماً القوت المشبع ولا يعرفون الفرش الوثير . وكانت تنقلاته غير المنقطعـة تزيد أسباب المعيشة هذه تقشفاً واضطراباً . وربما نجد لهذه الظروف صدى في جوابه على أحد الكتبة الذي أبدى رغبته في الانضمام الى تلاميذه ، فقال له :

«إن للثعالب أوجرة ولطيور السماء اوكاراً ، وأمـا ابن البشر ، فليس له موضع يسند إليه رأسه . » (متى ٨ : ٢٠)

كما ان السعادة التي كان تلاميذه يشعرون بها وهم في صحبته لم تكن صافية الصفاء كله ، بمأمن من المزعجات والمنغصات . إن معارضـة الفريسيين لا تمل ولا تني ، ناهيك التهمة الخطيرة التي أخذوا يشيعونها بين صفوف الشعب ليحولوا دون ايمانهم بيسوع :

« انه برئيس الشياطين يخرج الشياطين . » (متى ٩ : ٣٤)

هذا ، عدا همّ هـذا الشعب الجاهل الذي كان يشغل بال يسوع وتلاميذه . ما أعوزهم إلى الإرشاد والهدى !. فاذا استأثرت به هذه الهموم واستولت عليه صورة هذه الجموع التي كانت تنتظره ،امتلكت عليه شعاب قلبه وأنسته الجوع وسدّت نفسه عن الطعـام . ونعود

لنقول إن سعادة التلاميذ في صحبة يسوع لم تكن تنعماً وتلذذاً ، بل كانت أشبه بما تحسه جماعة من الرعاة ، وحّد بينهم العمل المشترك تحت إشراف هذا المعلم الكبير الذي ، وان كانوا لم يهتدوا بعد إلى سر شخصه ، إلا انهم كانوا يستمدون من اقواله ، بل ومن وجودهم في رفقته نعمة وقوة لا ينقطع لها مدد .

« أشفق عليهم ورثى لحالهم لشدة ما نالهم من التعب والإعياء ، فكانوا كالنعاج لا راعي لها . حينئذ قال لتلاميذه : « ان الحصاد كثير وأما العملة فقليلون ، فاطلبوا من رب الحصاد ان يرسل عملة الى حصاده . » (متى ٩ : ٣٦ — ٣٨)

وكان يسوع عندئذ قد أحاط نفسه باثنى عشر تلميذاً ، اختارهم بنفسه واحداً واحداً . وسوف يرسلهم إلى المدن والقرى التي كان مزمعاً أن يطوف بها، للإعلان عن الدعوة، وتهيئة القلوب لتلقى مبادئها.

« وهذه هي أسماء الاثنى عشر رسولا ، الأول سمعان المدعو بطرس ، ثم اندراوس أخوه ، ويعقوب ابن زبدى ويوحنا أخوه ، وفيلبس وبرتلماوس وتوما ومتى العشار ، ويعقوب بن حلفى، وتداوس وسمعان الغيور ، ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه » .
(متى ١٠ : ٢ — ٤)

هكذا كان أول عهد التلاميذ بإذاعة الدعوة بين الناس ، فجرت تجربتهم الأولى في هذا الميدان ، في فلسطين ووسط أبناء دينهم الذين قدر لهم أن يحظوا ببشارة الملكوت قبل أن تشاع على العالم اجمع .

وقد اوصاهم يسوع قبل قيامهم بهذه الجولة بألا يبالوا بالأمتعة يحملونها معهم في حلهم وترحالهم ، وبألا يلبسوا ثوبين ، ولا يتنقلوا من دار إلى أخرى في القرية التي ينزلون فيها ، ثم زودهم بالقـدرة على شفاء المرضى وإخراج الشياطين :

« ودعا الاثنى عشر وأعطاهم قوة وسلطاناً على جميـع الشياطين ، مع القدرة على إزالة الأمراض. لقد أرسلهم لاعلان ملكوت الله وإبراء المرضى ، وقال لهم : لا تحملوا في الطريق شيئـاً ، لا عصا ولا وعاء للزاد ولا خبزاً ولا فضة ؛ ولا يكن لكم ثوبان . وأي بيت دخلتموه ، امكثوا فيه إلى حين رحيلكم ؛ اما الذين لا يقبلونـكم ، فاخرجوا من مدينتهم ، وانفضوا عنكم غبار أقدامكم ، شهـادة عليهم . فرحلوا وطافوا في القرى يذيعون البشرى وينثرون الشفاء في كل مكان » .

(لو ٩ : ١ — ٦)

وهكذا أرسلهم يسوع إلى أمراض الجسم وعلـل النفس ، وأمرهم بأن يعملوا جهـد طاقتهم على تحرير المصابين من أوزارها ، بعون الله تعالى ومعاضدته . والناس في ذلك الحين ، لم يكونوا على دراية تامـة بأصناف العلل وأنواع الأمراض ، كما هي الحال اليوم؛ بل إن كثيراً من الأمراض التي نسبوها إلى الشياطين كالصرع، لا نجد مشقة في تشخيصها اليوم دون اللجوء إلى العالم الآخر . إلا أن يسوع ما كان ليخرج على ما درج عليه الناس في عصره ، ما دامت هـذه الأوهام لا تتعارض مع جوهر رسالته . وعلى كل ، فإذا كان الناس في عهد يسوع قد بالغوا في

اهمية الدور الذي يلعبه الشياطين في العالم ، حتى غالوا وأفرطوا ، فقد انعكست الآية اليوم إلى درجة الإسراف في تجاهله وإنكاره. وانصرف التلاميذ وانتشروا في البلاد يدعون الناس إلى التوبة :

« وكانوا يخرجون شياطين كثيرة ويمسحون المرضى بالزيت ، وكثيراً ما كانوا يشفون » . (مر ٦ : ١٣)

الفصل السادس

أصداء البشارة وأمثال الملكوت

ما الخطابة الدينية في جوهرها إلا حوار بين طرفين ، بين ذلك الذي يبلغ الرسالة من جهة وأولئك المستمعين الذين يتلقونها ،فيتأثرون بها ويبدون انفعالهم لها عاجلاً او آجلاً . لقد بذر يسوع والاثنا عشر الكلمة في نواحي الجليل ، واذا بالأصداء تأتي إليهم تترى ، حاملة انفعالات الناس من مختلف الاوساط .

ولنبدأ بيوحنا المعمدان . إنه لم يتردد لحظة في الايمان بيسوع ، إلا ان الدهشة تملكته وانتابه القلق وهو يستمع إلى الاخبار التي كانت تتسلل حتى سجنه . ان بعض تلاميذه لم يخفوا عليه استياءهم من آراء يسوع في الصوم ؛ والأمر في نظره ذو بال ، ما صلة المسيح المنتظر بروح الطوباويات التي شرع يسوع يدعو اليها ؟ هل كان كل ما ينتظره البشر من المسيح أن يصف لهم روح هذا الملكوت المقبل ؟ أين إذن هذا السلطان الذي يجب ان يغير العالم ويجدده ؟ ويرسل يوحنا بعض تلاميذه إلى يسوع ليستجوبوه : « هل انت هو المسيح الموعود أم

أم غيرك نترقب ؟ » وراح يسوع يطمئنهم ، ويقدم لهم عن صحة رسالته شهادة المعجزات التي بلغهم نبأها من قبل ، والتي رأوها رأي عيان :

« إذهبا وأعلما يوحنا بما سمعتما ورأيتما : العميان يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون ، وطوبى لمن لا أكون له سبب عثرة . »

(متى ١١ : ٤ — ٦)

أليست هذه الآيات هي ذاتها التي تنبأ بها سفر أشعيا النبي ؟ انها العلامات المميزة بعينها التي أتت بها النبوءة ، منذرة بمجيء مرسل خاص من عند الله ، ذلك الملقب بالعبد أي عبد الله ، معلنة حلول العام المبارك الذي سيوافق مجيئه . وكان ذلك من يسوع بمثابة التحذير الصريح ، وإن كان غير مباشر ، لأولئك الذين عقدوا الآمال على مسيح مجيد منتقم . إن « العبد » الذي أشار اليه سفر أشعيا لن يكون من هذا الطراز ابداً .

ربما ذهب الظن ببعض السامعين إلى ان هذا القول درس موجه إلى يوحنا المعمدان . ألم تكن دعوته العنيفة الصارمة تكأة لأصحاب المذهب القائل بالمسيح المنتقم ؟ لذلك بادر يسوع إلى إزالة الانطباع الذي قد يكون كلامه قد تركه في بعض الأذهان. ومما يسر عليه الأمر وجعله لا يحيد عن التصريح والافصاح ، أن عدداً كبيراً من المشاهدين كانوا يعرفون المعمدان جيداً ، من يوم أن كان طليقاً يعمد على ضفاف

الأردن . ومـــا كاد رسولا يوحنا يبتعدان ، حتى طفق يسوع يقول للجمع : « ما الذي ذهبتم إلى البرية تنظرون ؟ » ثم راح يشيد بالمعمدان في حرارة وحماس ، مقراً بأنه نبي ، بل أكثر من نبي : إنه خاتمة أنبياء العهد العتيق ، إنـــه أعظم من حملت في أحشائها النساء قبل مجيء الملكوت ، إياه عنى الأنبياء إذ قالوا إن إيليا عائد إيذاناً بدنو موعد المسيح . لقد كان رسولاً وكّل الله إليه مهمة تمهيد السبيل وتهيئة القلوب .

لكن يسوع ما كان لتغرر بـه الأوهام : فإن كثيراً من الناس لم يدركوا دعوة يوحنا كما لم يعوا دعوته هو . فقال وفي صوته نبرة المجرب الذي لا ينطلي عليه الخداع، مردداً أصداء ما كان يقال عنه هنا وهناك :

« لقد جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب ، فقالوا : إن بـه شيطاناً . وجاء ابن البشر يأكل ويشرب ، فقالوا : « هوذا إنسان أكول شريب للخمر ، محب للعشارين والخطأة » . (متى ١١ : ١٨ ، ١٩)

إن فئة « الأطهار » ناقمون عليه لأنه مد يده إلى من كانوا يأنفون من معاشرتهم ؛ وأما كفرناحوم وبيت صيدا وما جاورها من القرى، فإن موقفهم منه ساده التحفظ الشديد ولم يشعروا بأية رغبـة في تقويم حياتهم كما اقتضته منهم الدعوة الجديدة . لذا لم يتردد يسوع في الخروج عن الصمت الذي التزمـــه إلى تلك اللحظة ، ليبصرهم بالمصير الرهيب الذي يتربص بالمعارضين ، فقــال في صوت يشوبه الأسى ، وبلهجة من يدرك أن الحرب على الأبواب :

« .. الويل لك يا كورزين ، الويل لك يا بيت صيدا، لأنه لو صنع صور وصيدا ما صنع فيكما من القوات ، لما توانتا في التوبة تحت المسوح والرماد . لكنني أقول لكم ، إن مصير صور وصيدا سيكون أخف هولاً من مصيركم يوم الدين » . (متى ١١ : ٢١ — ٢٢)

قد يخيل إلى القاريء المندفع ، بعد ما أسلفناه ، ان جواً من التشاؤم المرير أخذ يخيم على يسوع ، منذ ذلك الحين . الواقع أن يسوع لم يتخل قط عن تفاؤله الأصيل ، بدليل كثير من تصريحاته الرائعة التي أثبت فيها ثقته من أن رسالة الخلاص ستنتصر بالرغم من جميع العقبات . وأقواله هذه التي حدد بها المجال الذي يتم فيه هذا النصر ، إنما تلقي الضوء على معنى الدعوة المسيحية الأصيل ، وتبرز ضلال الذين كانوا يحلمون بخلاص تحققه قوة السلاح . لا ، لم تسدّ السبل في وجه الدعوة ، والانجيل يسير قدماً في نفوس المتواضعين الواثقين بالله ، وإن كان سيره متعطلاً في نفوس المتغطرسين ، المقتنعين بحكمتهم وحنكتهم .

وفي ذلك الوقت ، تكلم يسوع وقال : « أشكر لك يا أبت ، رب السماوات والأرض ، إخفاءك هذا كله عن الحكماء والعقلاء وكشفك إياه للصغار المتواضعين ، نعم ، يا أبت ، فقد ارتضيت ان يكون الأمر كذلك . » (متى ١١ : ٢٥ — ٢٦)

وفي أعقاب هذا الكلام مباشرة ، تطالعنا عبارات موقرة بالمعنى ، لا تلبث أن تضفي نوراً ساطعاً على الاعمال الخارقة التي انجزها يسوع :

« كل شيء دفع إلي من أبي . » لقد سمعنا يسوع قبل ذلك يتكلم عن أبيه في ختام عظة الجبل . ويعود في هذا المقام إلى صيغة الانفراد ، فلا يقول « أبانا » متحاشياً أن يتساوى فيهذا النسب مع بقية الناس. إن فكرة الأبرة الألهية لا يمكن ان تنطبق على سائر البشر إلا من باب المجاز ، ما في ذلك شك . ولكن ما هو المعنى الذي تنطوي عليه هنا على وجه الدقة ؟ يبدو ان يسوع يشير إلى رابطة ، من نوع خاص لا مثيل لها ، تميز علاقته بالله . وفضلاً عن ذلك ،نجده يقدم على إقرارات تبدو فظيعة فذة لو أنها وردت على لسان شخص آخر ، ليس له ما كان ليسوع من الاتزان والوداعة والتواضع . لا يدري أحد أسرار الله سواه : هكذا قال ، ثم أردف ، داعياً إليه جميع المعذبين ... أقوال بالغة الخطورة ، شغلت لب التلاميذ إلى درجة الإعياء ، وكان يوحنا بن زبدى اكثر التلاميذ إنصاتاً وانتباهاً ، فلم يفته شيء من هذه اللحظات التي لا تعوّض ، فنحن مدينون له بتدوين اكثر ما جاء على لسان يسوع في هذا الموضوع . وقد ذكر القديس متى والقديس لوقا بعضاً من هذه الاقوال في نصيهما :

« كل شيء قد دفع إليّ من أبي ، وليس أحد يعرف الأبن إلا الآب ، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن يريد الآب أن يكشف له ذلك. تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمتعبين والمثقلين ، وانا أريحكم . إحملوا نيري عليكم ، وتعلموا مني اني وديع ومتواضع القلب ، فتجدوا راحة لأنفسكم، لأن نيري لين وحملي خفيف . » (متى ١١ : ٢٧ — ٣٠)

***

إن كان يسوع قد استعدى كثيراً من الفريسيين بمعاشرته للعشارين والخطأة، فإن موقفه من يوم السبت زاد جو العلاقات تأزماً واكفهراراً. نحن نعلم ما كان ليوم الراحة الاسبوعية من كبير شأن لدى اليهود، فالفقهاء تفانوا في تصنيف قوائم الأعمال الحلال والحرام، على مدى الأربع والعشرين ساعة، دون أن تفوتهم فائتة، مهما صغر شأنها، من مثل تحديد المسافة القصوى التي يجوز قطعها سيراً على الأقدام.. ولكن يسوع أبدى تجاهلاً تاماً لهذه الأحكام في مناسبات عدة. فكان لا يكاد بصره يقع على واحد من هؤلاء المصابين أو ذوي العاهات الذين كانوا يؤمون المجامع يوم السبت، حتى تثار شفقته ويتغلب عطفه على ميله إلى احترام تقاليد الفقهاء وفتاوى المجتهدين، فتحدث المعجزة ويكون الشفاء. وكان ليسوع، فيما يتعلق بمناسك السبت، مواقف أخرى لم يرض عنها المحافظون المتزمتون: فذات يوم من أيام السبت كان تلاميذه يجتازون الحقول، وأحسوا بالجوع، فأخذوا يقطفون بعض السنابل ويفركونها ليأكلوا حبوبها، على مرأى من هؤلاء القوم ... فكانت الطامة الكبرى! .. حاول يسوع تبرير سلوكهم، لعله يستطيع علاج هذا التزمت الضيق الكاتم للأنفاس: ألم يضطر الملك داود، تحت وطأة الحاجة، إلى تجاوز حدود بعض النواهي الغذائية؟ والكهنة أنفسهم، ألا يؤدون وظيفتهم في الهيكل، يوم السبت، دون إثم ولا حرج، ثم أضاف معولا على أسباب أوثق صلة بشخصه، أن السلطة التي خولها له الآب تمتد إلى السبت ذاته، إنه رب السبت وسيده، مؤكداً بذلك قدرته على التصرف بالنظم التي أعطاها الله لشعب إسرائيل:

« أو ما قرأتم في الناموس أن الكهنة في السبت يدنسون السبت في الهيكل ولا يكون عليهم ذنب ؟ وانا أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل . لو كنتم تعلمون ما معنى : اني أريد رحمة لا ذبيحة ، لما حكمتم على من لا ذنب له . على أن ابن البشر هو رب السبت ايضاً . »

(متى ١٢ : ٥ — ٨)

إن ما كان يثير سخط يسوع لم يكن في واقع الأمر إلا تلك القسوة وتحجر القلب الذي اصدر عنه معارضوه . فقد كان هناك من الاعمال ما لم يتردد أحد في القيام بها يوم السبت : فاذا وقعت دابة في حفرة ، أسيتوانى صاحبها في إنقاذها للحال ؟ فبأي حق إذن يحرمون إعادة الصحة لسقيم أنهكته العلة وأضناه المرض ؟ وللمرة الثانية ارتفع صوته يعلن: « اني أريد رحمة لا ذبيحة » . لقد نادى بهذا المبدأ عندما نعوا عليه اختلاطه بعامة الشعب ، وها هوذا يكرره مرة أخرى في حملته على تضييق السبت .

ويصنع يسوع معجزة شفاء أُخرى في يوم سبت آخر ، فيطفح الكيل ، وتقوم الدنيا وتقعد :

« وعلى أثر ذلك ، خرج الفريسيون وتآمروا عليه لكي يهلكوه . »

(متى ١٢ : ١٤)

إن الاصطدام أصبح امراً لا مفر منه . إلا أنه ينبغي ان نقدر

أبعاد الخلاف على حقيقتها . لقد زعم البعض ان الفريسيين أرادوا أن ينالوا من يسوع ، بدافع من روح الانتقام الطبقي الكهنوتي ، وقد ندد بتزمتهم وتمسكهم بحرفية الشرع . قد يكون مثل هـذا الشعور قد تسلل إلى بعضهم ، بصفة فردية لا جماعية ؛ ولكنه من الجور أن ترد تصرفاتهم إلى هذه العلة وحدهـا . ان الذين تصدّوا ليسوع كانوا يعتقدون انهم إنما ينافحون عن الدين ، ولم يستطيعوا السكوت على ما بدا لهم يستوجب النعي والتنديـد . ونستطيع ان نتصور الموقف هكذا : كان يسوع يزعم لنفسه ما لم يزعمه نبي قبـله من سلطان ولم يكن في وسعهم تبرير مزاعمـه ، حتى ولو سلموا بأنه نبي مرسل . لكن يسوع كان يقوم بأعمال خارقة ، يقدمها بين يديه دلالة على صدق دعوته ... فانتهى الفريسيون إلى حل أوعز به بعضهم ، وهو ان سلطان يسوع الخارق قد يكون مصدره الشيطان .. وراحوا يعربون عن هذا الرأي في السر والعلانية ، أملاً في صد حركة التعاطف التي سرت في صفوف الشعب تجاه يسوع ، والتي لا يقلل من سعتهـا تحفظ تلك القرى الثلاث ، على ساحل بحيرة طبرية الشمالي ، وامتناعهـم عن قبول الدعوة : ففيما عدا ذلك ، كان المستمعون لا يخفـون ميلهم إلى يسوع وتعاليمه . وبعد أن شفى يسوع ذات يوم رجـلاً أعمى أبكم ، أخذ الناس يتهامسون ان يسوع قـد يكون المرتقب ، « ابن داود » ، مبرزين بهذا النسب الأرومة التي ينتمي إليها المسيح الموعود ، باعتراف الكتاب المقدس ، وهي ارومة الملك داود .

« .. لعل هذا هو المسيح بن داود . » (متى ١٢ :٢٣)

وعندئذ أطلق الفريسيون ألسنتهم بالتهمة الواصمة :

« ان هذا لا يخرج الشياطين إلا ببعزبول ، زعيم الشياطين . »

(متى ١٢ : ٢٤)

هذا نقد واضح الوهن وبادي الخطل : إن الروح التي تسيّر الانسان لا تلبث ان تظهر للعيان ، شاء أَم لا يشأ . واذا كان يسوع لا يألو جهداً في تقويض ملك الشيطان ليشيد ملكوت الله ، فكيف يعقل أن يكون أداة يصرفها الشيطان لتحقيق مآربه ؟ فالدفاع سهل يسير : قال لهم يسوع :

« .. كل مملكة تنقسم على نفسها تخرب ، وكل مدينة أو بيت ينقسم على نفسه لا يثبت . فإن كان الشيطان يخرج الشيطان ، فقد انقسم على نفسه ، فكيف إذن تثبت مملكته ؟ (...) أما إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين ، فقد اقترب منكم ملكوت الله » .

(متى ١٢ : ٢٥ — ٢٨)

قال يسوع ذلك في لهجة حازمة ، دون أن يتخلى عن صفائه وهدوئه . ولنلحظ استعماله للعبارة « ملكوت الله » ، وكأنه أراد من ذكر اسم الجلالة دون العبارة التي كانت تستعمل له بديلاً ، أن يزيد كلامه قوة وهيبة. إنه لم يبال بالقذف الذي وجهه إليه أعداؤه ، بقدر ما حزن لعمى أولئك الذين عجزوا عن إدراك عمل الله في العالم ، ومع ذلك نصبوا أنفسهم هداة للناس ومرشدين .

« من أجل هذا إقول لكم إن كل خطيئة وتجديف يغفر للناس ، ما عدا التجديف على الروح ، فلا يغفر . ومن قــال كلمة على ابن البشر يغفر له ، وأما من قال على الروح القــدس ، فلا يغفر له ، لا في هذا الدهر ولا في الآتي » . (متى ١٢ : ٣١ ، ٣٢)

وعاود بعض الكتبة والفريسيين الحملة على يسوع، بغية البت في أمر المعجزات ، فطالبوه بـأن يجري امامهم آية تدل على صدق رسالته . حقاً ، إنها مطالبة غريبة ، تنطوي على إنكار مهين : فكأن يسوع لم يفعل قط إلى ذلك الحين ما يقوم دليـــلاً على صدقه ، بل كأنه متهم يطالب بإثبات براءته . فجاءهم الرد جافاً قاسياً ، جديراً بتلك العقول الموصدة العمياء . ولكن ، هل كان من وراء هذه الصدمة خير يرتجى ؟ مهما يكن من أمر ، فإن يسوع رأى لزامــاً عليه أن يحذر الجمهور من مثل هذه الضلال :

« فأجابهم قائلاً : إن الجيل الشرير الفاسق يطلب آية ، فلا يعطى آية إلا آية يونان النبي ، لأنــه كما كان يونان في جوف الوحش البحري ثلاثة أيام وثلاث ليال ، كذلك يكون ابن البشر في جوف الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال. إن رجال نينوى سيقومون يوم الدين مع هذا الجيل، ويحكمون عليــه ، لأنهم تابوا بكرازة يونان ، وههنا أعظم من يونان . وملكة سبأ ستقوم يوم الدين مع هذا الجيل وتحكم عليه ، لأنها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان ، وههنا أعظم من سليمان » .

(متى ١٢ : ٣٩ – ٤٢)

لا شك في أن العبـارة « آية يونان النبي » بدت غامضة مغلقة على الأسماع ، ولكنها ستتضح فيما بعد . ويتابـع يسوع تعاليمه ، مشيراً إلى أن الحياة الروحية ليست بمأمن من التعثر والكبو ، وأنـه لا خير في حماس فوّار ، يسري كالنار في الهشيم ، ولا تدعمه المثابرة والأناة .

وتنقضي فترة التأزم هذه ليعقبها مشهد أدنى إلى الرقة والحنو ، إذ بينما كان يسوع يتكلم، إذا صوت يرتفع مخبراً يسوع بوصول أمه وبعض أنسبائه — وكانوا يطلقون عليهم لقب الإخوة— فانتهز الفرصة وأعلن لتلاميـذه الحاضرين ؛ ومن سيقتفي أثرهم في المستقبل ، أنهم جميعاً في منزلة أهله ، وفي عداد أقربائه وأنسبائه :

« ثم أومأ بيده إلى تلاميذه وقال : هؤلاء هم أمي وإخوتي ، لأن كل من يعمل مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي »

(متى ١٢ : ٤٩ — ٥٠)

إن أسرته لتشمل كل من يعمل بمشيئة الله أبيه .

* * *

وذات يوم ، وفي الفـترة التي تعنينا ، خرج يسوع من « الدار » ، دار سمعان بطرس في كفرناحوم ، ميمماً شطر البحيرة ، حيث جلس على شاطئها ، وتقاطر عليه الناس حتى ضاقت حلقتهم حوله ، فصعد إلى سفينة ، وعلى بعد خطوات من الشاطيء، بحيث يتمكن الجميع من رؤيته وسماعه ، جلس وفتح فاه يعلمهم من فوق هذا المنبر العائم . كل شيء من حوله يوحي بالهدوء والسكينة، في حين كل صفاء الماء الرقراق

وضوؤه المتلألىء يضفيان على هذا المشهد جواً من الروعة تعنو لسحره القلوب . وإذا بيسوع ينهج في تعليمه نهجاً جديداً ، مغايراً كل المغايرة لما عهدناه على لسانه في عظة الجبل : إنه أسلوب الأمثـال ، يعمد إليه يسوع ليقرب إلى الأذهان أسرار ملكوت الله .

اول هذه الأمثال ، مثل الزارع .

قال يسوع :

« هوذا الزارع خرج ليزرع . وبينما كان يلقي الزرع ، سقط بعض الحب على الطريق ، فأتت طيور السماء وأكلته ؛ والبعض سقط على ارض حجرة ، حيث لم يكن له تراب كثير ، فللوقت نبت ، لقلة عمق التربة ، غير أنه لما أشرقت الشمس احترق ، وحيث لم يكن له اصل ، يبس ؛ والبعض سقط في الشوك ، فطلع الشوك معه وخنقه : وبعض سقط في الأرض الجيدة ، فأعطى ثمراً ، الواحد مائـة والآخر ستين والآخر ثلاثين. من له اذنان سامعتان فليسمع ». (متى ١٣ : ٣ – ٩)

ربما كان مثل هذا الأسلوب مثاراً لدهشة بعض قراء القرن العشرين ، وقد جاء من يسأل : لمـاذا عدل يسوع عن الكلام الصريح والعبارة المكشوفة ؟ ما الذي حداه إلى تغطية افكاره وإلباسها قنـاع الرمز والمثل ؟ .. هذا التساؤل لا يضع في الاعتبار ما درج عليه المستمعون من قديم الزمان : فعلماء اليهود كانوا يلجأون إلى الأمثال في تعاليمهم. والأمثال إنما تحمل ميزة تعليمية لا تنكر : فهي تثير فضول المستمعين

وتطلعهم،وتهون عليهم مهمة الحفظ والتذكر في آن واحد . اما ما كان يكتنفها من غموض ، فكان مدعاة إلى المزيد منالاستطلاع والاستفسار لمن أراد. سار إذن يسوع على نهج فقهاء عصره، فجاءت قصصه شفافة، تستهوي ذوي العقول السوية والنيات الحسنة . امـــا من سواهم من المستمعين ، فكان الله اعلم بما يناسبهم من اساليب القول .

وهذه الامثال ضربها يسوع عن ملكوت السماوات . وهي كثيراً ما تدور حول حياة الزرع والحبالذي ينبت وينمو .اختيار مقصود، أراد به يسوع رفـــع الحجـــاب عن حقيقة لا تلبث أن تصبـــح جلية ملموسة فيما بعد : ان ملكوت السماوات لا يتأسس بفضل الثورة المسلحة ، ولا نتيجة لانقلاب مسرحي يقيم العالم ويقعده . الزمنإحدى مقوماته ، وهو كالزرع بطيء النشأة ، بطيء النمو ،لأن النمو العضوي ينبع من داخل الكائن الحي ، فلا مناص من الوقت ليدرك النضـــج والإينـــاع . وعلى ذلك ، فملكوت السماوات أشبه بكائن حي ، ينشأ من الكلمة التي تلقى في النفوس ، وتنبت رويداً رويـــداً ؛ وكما أن البذور تصبح في النهاية اشجاراً عاليـــة مورقة ، تعشعش في اغصانهـــا الطيور ، هكذا ينتشر الملكوت ليصبح موطناً تلوذ به وتفيء إلى ظله جماعة المؤمنين .

وصورة الحياة هذه يلجأ اليهـــا يسوع ليشبه بها الملكوت تارة ، والعناصر التي يتألف منها تارة أخرى . ففي مثل الزارع الذي تقدم ذكره ، اشار يسوع إلى ان الملكوت ينشأ من الكلمة التي يلقيهـــا

الزارع ؛ وعندما استزاده التلاميذ تفسيراً ، أجابهم موضحاً بان انواع التربة الاربعة التي يسقط عليها الحب إنما تدل على ان حصاد الملكوت يتوقف على ما يبديه كل فرد من قابلية واستعداد . ولنعـــد إلى المثل نستنطقه ، لنقف على ما أودعه فيه يسوع من دروس وعبر . انالذين يشبهون الطريق ، أي الذين قست قلوبهم وسدت مسالك النعمة إليها ، لا يأتون بثمار البتة . اما الارض الحجرة ، فهي تشبه النفوس السطحية الضحلة ، التي لا تصبر على التأمل ولا حيلة لها في تعمق الكلمة : فقد تتقبلها بانشراح وسرور ، إلا انها لا تعرف المثابرة والصمـــود تحت وطأة الاضطهاد وأوزار الشدائد . واما النفوس التي تشغلها هموم الدنيا وشهوة المال ، فسوف تختنق رغباتهـــا الطيبة ، كما أتت الأشواك على الحب قبل ان يثمر . وأما الذين يسمعون فيفهمون ويحفظون ويثمرون بالأناة والصبر فأولئك هم الارض الطيبة التي تعطي الحبة الواحدة فيها ثلاثين وستين ومائة ..

لقد قامت فكرة الحصـاد بدور كبير في أمثال الملكوت ، ولا غرو ،فان موسم جني المحاصيل يبلور جهود الفلاح ويستأثر باهتمامـه . ولكن المعنى الذي قصده يسوع يذهب بنا إلى ما هو أبعـــد مدى وأخطر اثراً : ان الحصاد الذي عناه يشطر الزمن شطرين ، إلى مرحلة كانت وأُخرى ستكون . فالسعادة الكاملة والسلام المقيم لا تستقر اركانها إلا في مرحلة ما بعد الحصاد ، أي بعد الدينونة . وقبل ذلك ، ما على الملكوت إلا ان ينمو وسط العالم وفي زحمة ظروفه وملابساته .

وها هو ذا مثل الزؤان ينبئنا باختلاط الخير بالشر في هذه المرحلة

من حيـاة الملكوت . يشبّه يسوع الملكوت بحقل زرع حبـاً جيداً ، وإذا بعدوّ يأتي خلسة فيلقي بالزؤان وسط الحب . فاذا ما طلـع النبت انكشف الأمر وافتضـح الشر . ولكن ما العمل ؟ ان اقتـلاع الزؤان سيؤدي إلى إهلاك الحنطة ... فلا مناص من الانتظار إلى حين الحصـاد . عندئذ ، يقطع الزؤان فيلقى في النار ، ويجمـع الحب في الأهراء . العبرة واضحـة : ان الملكوت ينبعث ، ثم يرتقي ويتدعـم شيئاً فشيئـاً ، إلى ان يحـل يوم الدين ، وهو المشبه بالحصـاد .. فإذا ظهرت عناصر السوء والفساد وترعرعت في وضح النهـار ، ملازمـة للخير كالظل ، ليس في ذلك مـا يدعو الى الارتباك أو إلى التعـثر : فالفصل ليوم الدين .

وفي مثل آخر ، اتخذ يسوع من الخميرة التي ترفـع العجين وتجعـله صالحاً ليصبح خبزاً طيباً ، رمزاً لروح الإنجيل الحية النابضـة بالطاقة والحياة : فإذا تحلى بها المؤمن ، استطاع ان يبث في البيئة التي يعيش فيها أصول الرقي ومباديء التقدم الحق .

ومن الأمثال ما دعا إلى الجهد والكفاح ، وحثّ على العمل : فإذا كان اصحاب المصالح يضحون عن طواعية ورضى بالغالي والنفيس في سبيل تحقيق مآربهم ، من صفقـــة مربحة يعقدونها ، او ثروة يستثمرونها ، أليس أحرى بالمؤمنين ألا يألوا في سبيل الملكوت جهداً ولا تضحية ؟ وإذا ارادوا لجهودهم في سبيـل الدين قياساً ، فليضعوا في الميزان ما يبذلون ، في مقابل ما يبذله ابناء هذا العـالم ، حباً للمال وسعياً وراء ما في الدنيا من حطام .

وأخيراً يشبه ملكوت السماوات شبكة تلقى في البحر . فإذا ما امتلأت وسحبت الى الشاطيء، فرز الصيد، فجمع الجيّد وطرح الرديء: هكذا سيكون الأمر يوم الدينونة .

بمثل هذه الأمثال ، دأب يسوع يحدد معالم الملكوت وينفي ما هو ليس منه . وحذار ان يذهب بالتلاميذ الظن الى ان العالم سيتجدد ، والملكوت سيخيم على المسكونة كلها ، في مثل لمح البصر وطرفة العين، دون سعي ولا مشقة ، كلا ! ان الملكوت يخطو اليوم خطواته الأولى المتواضعة في نفوس الصغار والودعاء.. غير ان له في الغد شأناً ، ولكل شيء موعد واوان .

الفصل السابع

يسوع على مفترق الطرق

إن أمثال يسوع الأخيرة كانت بمثابة كشف الأوراق الذي ليس بعده للّبس مجال : أعلن يسوع صراحة أن ملكوت السماوات قريب، بل على الأبواب ، وأعلن أنه لن يكون في مرحلته الأولى ملك مجد وانتصار ، وفق ما أملته الجماهير. إنه كالحب المودع في جنبات الأرض يكتنف بوادره التأني والتواضع . إلى أي مدى أدرك المستمعون مغزى هذه الأمثال ؟ يبدو أنها بقيت مغلقة على أذهانهم .

هنا تقع في حياة يسوع مرحلة حاسمة، تضيء معالمها احداث ثلاثة : الأول ، استشهاد يوحنا المعمدان في سجنه ؛ والثاني ، تمنع يسوع عن مجاراة شعب دفعته الحماسة إلى المناداة به ملكاً ، بعد معاينة إحدى معجزاته الباهرة ؛ أما الحدث الثالث ، فيقع بعد ذلك بقليل ، عندما كشف يسوع النقاب عن حقيقة رسالته في حلقة مريديه : هذا الإعلان الأخير نقطة تحول واضحة في حياته. ولنبحث ملياً في الظروف السابقة لهذا الإعلان : فهي قمينة بأن تضفي عليه الضوء الذي يبينه على حقيقته .

كان يسوع في مناسبات عدة ، قــد تذرع بنبوءات أشعيا النبي للتدليل على رسالته . وأوضح مثل لذلك ، ما جرى في الناصرة مغنى طفولته ومرتع شبابه ومقر أسرته . قصدها ليحمل إلى أهلهـا بشارة الإنجيل . وفي أحد أيام السبت ، انضم إلى رجال البلدة الصغيرة ودخل المجمع ، ولم يلبث أن دعي إلى قراءة نبذة من الكتاب المقدس ، وإذا السفر الذي دفعوه إليه هو سفر أشعيا النبي . فلمّا فتحه وجد الموضع المكتوب فيه :

« روح الرب علي ،

لأنه مسحني

وأرسلني لأحمل البشرى الحسنة للمساكين ،

لأبشر الأسرى بالخلاص ،

والعميان بالبصر ،

لأطلق المقهورين ،

وأعلنها سنة مباركة للرب » . (لوقا ٤ : ١٧ — ١٩)

عند هذه الكلمة توقف يسوع : لقــد كانت الآية التالية تدعو إلى الانتقام ، فامتنع عن قراءتها .

« ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الخادم وجلس ، وكانت عيون جميع

من في المجمع شاخصة إليه » . (لو ٤ : ٢٠)

ولما انتهى من شرح هذه الآيات والتعليق عليها ، كانت الانفعالات المتباينة تتنازع الحاضرين ، وأخيراً غلبت على الجمع روح فتنة وعداء ، فنهضوا ودفعوه خارج المدينة ليلقوا به من قمة الهضبة المقامة فوقها مدينتهم ، ولكن يسوع اظهر من الهيبة ما كبح جماحهم وكسر شوكتهم ، فاجتاز صفوفهم دون ان يجرؤ احد على اعتراض سبيله .
ما الذي بدر من يسوع فأثار هذه الفتنة الهوجاء؟ لقد اعلن يسوع ،بعد ان فرغ من تلاوة نبوءة أشعيا ، انه انما أرسل ليحقق ما نصت عليه من اعمال : ألم يكن حمل البشرى الحسنة للفقراء المنبوذين من اخص ما يميز بشارة يسوع؟ غير ان اهل الناصرة لم يكونوا قد آمنوا به ، فاستهولوا اقواله ، وقابلوها بالاستنكار والتسيفية ، وهي اقوال سوف تشهد حياته بصدقها .

أما الجموع فكانت متمادية في اعتقادها بمسيح جبار ، ذي سيف وصولجان ، كما بدا ذلك عند مقتل يوحنا المعمدان . لقد أمر هيرودس أنتيباس بقطع رأس يوحنا في سجنه ، في ظروف شنيعة مهينة . كيف سولت له نفسه اقتراف هذه الجريمة مع ما كان معروفاً عنه من تقدير لشخص يوحنا ، تقدير يخالطه شيء غير قليل من الرهبة الدينية والإجلال ؟ كانت هناك امرأة ، هيروديا ، زوجته الثانية التي اختطفها من اخيه ، والتي لم تكن لتغفر ليوحنا تنديده بعلاقة الزنى التي ربطت بينها وبين الملك ، فباتت تتحين الفرص بصبر لا يعرف الكلل ، حتى

اذا ما لاحت لها بارقة ، بادرت الى اغتنامها وطالبت الملك برأس غريمها . فذهل هيرودس وصعق إلا انه أسقط في يده ولم يستطع إلا الأذعان كارهاً . وسرى النبأ الى تلاميذ يوحنا بمقتل معلمهم ، فجاءوا الى السجن وحملوا جثته ، ثم بادروا الى يسوع يحملون اليه النعي ، فكان وقع الفاجعة عليه قاسياً .

هل خشي يسوع ان تتسبب هذه الجريمة البشعة في إثارة فتنة شعبية قد لا تحمد عقباها ، فآثر الابتعاد ولو فترة ، عن الأضواء ؟.. هذا لا يخرج عن احتمالات الموقف . كما لا يبعد أن تكون حاجة يسوع وتلاميذه الى الصلاة والتفرغ لمناجاة الله هي التي دفعتهم إلى ركوب السفينة ، واجتياز البحيرة ، ليلوذوا بمكان ناء منعزل ، ينقطعون فيه للتعبد وذكر الله . غير ان الجموع اهتدت الى مكمنه ، فأفسدت عليه خلوته ، بعد أن قطعوا أميالاً على الشاطيء للوصول إليه .فأشفق عليهم وشفى مرضاهم ، ثم أطعمهم جميعاً من خمسة أرغفة وسمكتين ، بعد ان باركها ففرقها تلاميذه على الشعب . ولما جن الليل ، أمر تلاميذه بالرحيل بحراً ،ريثما يصرف الجماهير .وقد أجبر يسوع تلاميذه على الرحيل بشهادة القديس متى والقديس مرقس ، ولا شك أن وراء ذلك لأمراً ، كشف عنه يوحنا البشير بقوله إن الحمية التي استحوذت على مشاعر الناس دفعتهم إلى المناداة بيسوع ملكاً . ألم يكن لخبر مقتل يوحنا ضلع في استثارة عواطف الشعب وإلهاب نخوته الوطنية ؟ إلا أن يسوع لم يرض بحماس مبني على تقدير خاطيء لمهمة المسيح الموعود . وهي قبل كل شيء مهمة روحية ، فصمد ولم يجار التيار ، بل أراد ان

يجنب تلاميذه عدوى هذا الاندفاع الشعبي الجارف . فصرف الجموع ، ثم انكفأ يصلي . جرت هذه الأحداث في ربيع سنة ٢٩ ، قبيل عيد الفصح ، بدليل ما أتت به نصوص الإنجيل من ذكر العشب والخضرة التي كانت تكسو أرض الصحراء عندئذ .

أما المعارضة ، فبقيت على حالها لا تلين . ان النصوص التي روت أخبار هذه الفترة تشير الى مشادة وقعت بين يسوع وجماعة من فريسيي اورشليم وكتبتها ، لا ندري ما إذا كانوا وفدوا على يسوع خصيصاً ليراقبوه ، أم عرّجوا عليه في اثناء رحلة لهم الى الجليل . جاءوا إلى يسوع وواجهوه بشيء من الفجاجة قائلين :

« لِم يتعدى تلاميذك سنة الشيوخ ؟ فإنهم لا يغسلون أيديهم عند تناول الخبز . فأجابهم قائلاً : وانتم لِم تتعدون وصية الله من أجل سنتكم ؟ فقد قال الله : اكرم أباك وامك . وقال : من لعن اباه وأمه فليقتل قتلاً . وأنتم تقولون : كل من قال لأبيه وأمه : إن كل ما أملك قربان لله ، أصبح معفى من إكرام أبيه وامه . فقد أَبطلتم وصية الله من أَجل سنتكم » (متى ١٥ : ٢ — ٦)

ان مثل هذه الأموال كانت تعتبر محرّمة على الوالدين بحكم هذا النذر الذي اصبحت بفعله قرباناً لله . وقد تكون مثل هذه النذور مجرد إجراء شكلي ، غير ان الفقهاء كانوا يقرون صلاحيتها ، بالرغم من انهم كانوا يستنكرونها . وعندئذ ، دعا يسوع الجموع وقال لهم :

« اسمعوا وافهموا : ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان ، بل ان ما يخرج من الفم هو الذي يدنس الإنسان . »

(متى ١٥ : ١١ ، ١٢)

لقد آثر يسوع الصمت في موضوع الطهر الشرعي هذا ، وكل ما نسج حوله من التزامات ، منذ خطوات الدعوة الأولى ، فلا نكاد نعثر على اكثر من إشارتين او ثلاث لهذا الموضوع ، في النصف الأول من الإنجيل ؛ فنقرأ ، مثلاً ، انه اوصى جماعة من البرص ، عند شفائهم ، بالتوجه الى الكهنة لعرض انفسهم عليهم ، إثباتاً لشفائهم . ذلك ان شريعة موسى كانت قد وكلت الى الكهنة بعض المهام الخاصة بالمراقبة الصحية ، حسبما اقتضته ظروف المجتمع السائدة آنذاك ، ولم يشأ يسوع ان ينقض هذا الجانب الاجتماعي من الشرع . وحادث آخر ، ربما كان له صلة بموضوع الطهارة الشرعية ، هو ابراء ذلك المجنون الذي كان الشيطان مستحوذاً عليه ، ثم دخول الأرواح النجسة في قطيع الخنازير .. أليس في هذا الحادث تلميح ساخر الى نجاسة الخنازير ؟ .. هذا هو الجانب النظري لموضوع الطهارة الشرعية . اما فيما يتعلق بالجانب العملي ، فإن موقف يسوع كان جلياً لا لبس فيه : انه بمعاشرته لطبقات الشعب الدنيئة ، وضع الشفقة والرحمة فوق نظرة التأثم الضيق التي بالغ فيها الفريسيون .

وهو يعلن اليوم مبدأ عاماً ، سيعود بعد حين الى شرحه ، رداً على استيضاح التلاميذ : «ليس ما يدخل الفم هو الذي يدنس الانسان »

إقرار حازم ، قد يكون له أبعد النتائج : إن النواهي الغذائية لم تعد لها أية قيمة في هذا المنظور الجديد . ولم يدخل يسوع في التفاصيل ، مكتفياً ببعض التعليقات المقتضبة :

« اما تفهمون أن كل ما يدخل الفم ينزل إلى الجوف ثم يطرح خارج الجسم ، وأما الذي يخرج من الفم ، فمن القلب يصدر ، وهو الذي ينجس الإنسان ؟ لأنه من القلب تخرج الأفكار الرديئة : القتل ، والزنى ، والفجور ، والسرقة ، وشهادة الزور ، والتجديف : هذه هي التي تنجس الإنسان. أما الأكل بأيد غير مغسولة فلا ينجس الإنسان».
(متى ١٥ : ١٧ — ٢٠)

وسخط الفريسيون وتأثموا وراحوا يستغفرون الله ، لكن يسوع لم يتراجع قيد أنملة ، بل ندد بمعارضيه ، ورماهم بالنفاق والعمى : إنه مصمم على مواجهة التحدي إلى منتهاه .

ولا غرابة أن تكون هذه الظروف التي قدمناها ، من مصرع يوحنا المعمدان ، إلى تحمس الجماهير لفكرة المسيح ، إلى تصلب الفريسيين ، قد دفعت يسوع أكثر من مرة إلى اللياذ بالأماكن المنعزلة الخالية من العمران ، بل لقد حملته إلى مغادرة منطقة الجليل مرتين في هذه الفترة، كأنه قصد إلى أن يجعل الحدود السياسية حائلاً بينه وبين من أراد أن يتجنبهم . على أنه لم يفكر قط في احتمال الذهاب إلى الوثنيين ليحمل لهم بشارة الإنجيل : هذا أمر سيكون من نصيب التلاميذ ، وقد صرح بذلك بوضوح لامرأة كنعانية كانت قد أقبلت عليه في أثناء رحلته

الأولى إلى منطقة صور وصيدا ، متوسلة إليه في ضراعة وتواضع بالغ ، أن يحرر ابنتها من قيود شيطان عنيد متسلط عليها . فأجابها يسوع : « إنني لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من آل إسرائيل. »(متى ١٥: ٢٤) تذرع بعض قراء الإنجيل بهذا النص ليستنتجوا أن دعوة يسوع لم تكن موجهة إلا لبني إسرائيل .هـــذا استدلال يعوزه التروي والنظر إلى السياق . نحن ندرك من جماع الإنجيل ، أن تبشير يسوع جرى في مكان معين ، واتجه إلى منطقتي اليهودية والجليل ، ولكن العقيـدة التي دعا إليها كانت ذات طابع عالمي ، لا يضيق بأحد بل ينفسح لكل إنسان؛ إنها الدعوة إلى الانضمام إلى الملكوت ، التي سيوجهها الرسل بأمره فيما بعد إلى جميـــع أمم المسكونة . إن يسوع ، وأن لم يذهب إلى الوثنيين بشخصه ، إلا أن حياته كلها ، والمهمة التي أنجزها ، سوف يفيـد منها الوثنيون ، بل الأرض بشعوبها ، فيصبح لها الإنجيل ملحـاً يحفظها من الفساد ، وضياء يهديها سواء السبيل . إذن ، لقد مرت الدعوة بزمنين ومرحلتين ، توالت تطورات المرحلة الأولى في فلسطين ، في أثناء حياة يسوع التبشيرية،وهي التي عناها يسوع في حديثه مع المرأة الكنعانية، حيث قرر أن يخص بجهوده أبناء دينه . غير أن هنـاك مرحلة أخرى قادمة ، حيث يكلف يسوع تلاميذه بتوجيه دعوة الملكوت إلى العـالم بأسره . وإن استجابته لدعاء الكنعانية وإبراء ابنتها ، لدليل على أنه لم ينفض يديه من مصير الوثنيين ، بل نراه على نقيض ذلك ، يثني بـــلا تحفظ على إيمان المرأة وقوة ثقتها به .

ويعود يسوع إلى الجليـل ، ويظهر في كفرناحوم ، ولكنه لم يطل

فيها البقاء . وظل صيته قوياً ولم يدركه الوهن ؛ وليس أدل على ذلك من وفرة الجموع التي كانت تتبعه أينما سار . وها هو ذا يعظهم مرة أخرى في مكان مقفر ، ثم يعيد معجزة تكثير الخبز لإطعامهم . وذات يوم يجيء إليه الفريسيون والصدوقيون يطلبون منه آية . فيجيبهم كما سبق أن فعل من قبل ، رداً على سؤال مماثل : إن آيته ستكون آية يونان النبي ، الذي اختفى ثلاثة أيام قبل أن يعود إلى الظهور في عالم الناس . ولم يلبث يسوع أن رحل مع تلاميذه ، متوجهاً صوب الشمال : إنه لعلى وشك أن يرفع لأول مرة ، ذلك الحجاب الذي كان يواري شخصيته ورسالته .

* * *

غادر يسوع ورفاقه منطقة الجليل ، تاركين خلفهم الأراضي الخاضعة لحكم هيرودس أنتيباس. وعندما أصبحوا على مقربة من القرى التابعة لقيصرية فيلبوس ، حول يسوع الحديث إلى موضوع طالما فكر فيه الجميع « من هو ؟ » . كان يستطيع أن يتحدث عن نفسه ، ولكنه رأى أن يترك تلاميذه يقولون فيه ما يشاءون . فسألهم : « من يقول الناس أني هو ؟ » . (مر ٨ : ٢٧) فأجابه التلاميذ :

« يقول البعض إنك يوحنا المعمدان ، وآخرون إنك إيليا ، وآخرون إنك واحد من الأنبياء . » (مر ٨ : ٢٨) إجابة قد ندهش لها ، لكنها تدل على مبلغ التوتر الذي اصاب العقول ، لأن عودة النبي إيليا وغيره من الانبياء كانت تعتبر علامة لانقضاء الزمن. أما هيرودس ،

وكانت أشباح الجريمة التي ارتكبها لا تزال تقض مضجعــه ، فنراه يعتقد أن يوحنا المعمدان قد بعث حياً في شخص يسوع .

تلك أقوال الناس ، نقلها التلاميذ إلى يسوع كما طرقت مسامعهم . ولكن ما قولهم هم أنفسهم فيه ؟ إنهم إلى هذه اللحظة حذروا من ان يطلقوا لألسنتهم العنان ، لأن يسوع كان يطالب بالصمت كلما جاءت إحدى معجزاته البينات مثيرة لحماسة الجمهور ، وإذن ، فكان أحرى به ان يشجب كل تعبير علني عن الايمان بمسيحيتــه . ولكن ذلك لم يمنع التلاميذ من ان يتبادلوا الآراء في أمره ، فيستقر رأيهـم على أنه هو المسيح الموعود . هذا هو ما كان يوحنا المعمدان قد أفهمهم إياه من قبل ؛ والمرأة السامرية ، بعد حديثها مع يسوع عنــد بئر يعقوب ، خرجت بنتيجة مماثلة ، إذ أخذت تردد حولها : « ألا يكون هــذا هو المسيح ؟ » . والهتاف الذي كان يستقبل به يسوع أحيــاناً : « يا ابن داود » ، ليدل بوضــوح على ان الفكرة كانت آخذة في الذيوع والانتشار . أما يسوع ذاته فكان يلزم الصمت .

وكان التلاميذ في مركز فريد لمراقبة سيدهم . فلم يسبق لهم ان قابلوا شخصية أقوى منه تأثيراً . فإلى جانب ما بدا عليــه من توازن وحكمة وتواضع أصيل ، وعلم بخفايا النفوس ونزعات القلوب ، كانت مظاهر الحنان والرحمة ، وكانت المعجزات الشافية ، بالإضــافة الى بعض التصريحات المذهلة : فقد قال ذات مرة إن أحــداً لا يعرف الله سواه ؛ وقال ان كل شيء قد دفع إليــه من الله ... وكانت بعض الخوارق تصيب التلاميذ بالذهول : ألم يصرخ سمعــان بطرس ، ذات

مرة ، مأخوذاً مبهوراً : « ابتعد عني يا سيد ، لأني رجل خاطيء » . فيبادر يسوع إلى تهدئته ... كان يسوع يجذب إليـه الجماهير جذباً ، حتى انهم كانوا يأتون من بعيـد ليروه ويسمعوه . وأما الذين كانوا يصاحبونه ، فكانوا يعجبون من علاقته الودية بالله ، فكلمـاته تنم عن حساسية دينية عميقة ، أكدتها أعماله . وإذ افتقدوه ذات يوم عنـد شروق الشمس ، وجـدوه قد لاذ بالخلاء ، بعـد ان غادر القرية قبل الفجر ، ليناجي الله على انفراد في صلاة مبكرة ، لا يقطعهـا عليـه رائح ولا غاد . كل ما كان يتفوه به كان دفـءاً ونوراً وقوة نافذة ؛ وفي كنفه ، كان المرء يحس بجـو من التفـاهم والمحبة ، يغمره ويستأثر بلبه . وسنسمع ذات يوم اثنين من تلاميذه يتهامسان في وجد ونشوة ، بعد حديث طويل معه : « ألم تكن قلوبنا مضطرمة فينا حين كان يخاطبنا في الطريق ويشرح لنا الكتب ؟ . (لو ٢٤ : ٣٢)

وكان التلاميذ وهم معه يتمتعون بالامن والاطمئنان . ألم يكونوا من جماعـة هؤلاء « الصغار » ، الذين وعـدوا بالملكوت ؟ وإن تلك العاصفة التي أخمدها ، يوم كانوا على وشك الغرق ، ما برحت ماثلة في ذاكرتهم ، تدعوهم إلى الثقة به والاتـكال عليـه . وإذ ساورهم القلق ، يوم فاتهم ان يتزودوا بالغذاء ، ألم يطمئنهم بتذكيرهم بمعجزتي تكثير الأرغفة ؟ وما زالت دعوة يسوع ترنّ في آذانهم : « تعالوا اليّ يا جميع الكادحين .. » وعندما أخذت مطالب الانجيـل تبدو على حقيقتها ، وأخذ ضعاف الايمان المترددون يتخلون عنه ، اتجه يسوع إلى اصفيائه ، وسألهم إذا ما كانوا يريدون هجره — لأنه ما كان ليلجأ إلى الضغط

أياً كان للاحتفاظ بهم، فمن تبعه، فبملء إرادته ومطلق حريته ـ فأجابه عندئذ سمعان بطرس بهذه الانطلاقة الساذجة المحببة التي تميزه، أنه لا يعرف معلماً خيراً منه: « وإلى من نذهب، يا سيد؟ إن لديك كلام الحياة الأبدية ». (يو ٦: ٦٨)

هكذا كان يسوع يبدو لتلاميذه. أما أولئك الذين عرفوا سر مولده، مثل مريم أمه، فكانوا يعتقدون أيضاً أنه هو المسيح. ولد يسوع في بيت لحم، في أيام هيرودس الأكبر، أي، قبل السنة الأولى من التقويم الميلادي بأربع سنوات [١]. ونظراً لما سبق هذا المولد من حوادث خارقة، نرى من الأفضل أن نسوق للقاريء عرضاً شاملاً لأهم هذه الأخبار.

منذ تسعة أشهر مضت، كانت مريم، وهي فتاة من الناصرة، في مقاطعة الجليل، قد خطبت إلى رجل من بيت داود يدعى يوسف، على ما جاء في نص الإنجيل حسب رواية القديس لوقا:

« وفي الشهر السادس، أُرسل الملاك جبرائيل من قبل الله، إلى مدينة في الجليل تسمى الناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف من بيت داود، واسم العذراء مريم. فلما دخل إليها الملاك قال لها:

(١) انه من الطبيعي ان يوافق بدء التقويم المسيحي تاريخ ميلاد المسيح، ولكن ديونيسيوس الاصغر الذي وكلت اليه مهمة تحديد هذا التاريخ في القرن ٦، لم يحالفه الصواب في كل خطواته، فحدد لهذا التاريخ بداية متأخرة، وما زلنا نسير على ما وضعه الى اليوم.

السلام عليك يا ممتلئة نعمة ، الرب معك ، مباركة أنت في النساء . أما هي ، فاضطربت لكلامه ، وفكرت ما عسى أن يعني هـذا السلام . فقال لها الملاك : لا تخافي ، يا مريم ، فإنك قـد نلت حظوة عند الله ، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع . وهـذا سيكون عظيماً وابن العلي يدعي . وسيعطيه الرب الإله عرش داود أبيه ، فيملك على آل يعقوب إلى الأبد ، ولا يكون لملكه انقضاء. فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا ، وأنا لا أعرف رجلاً ؟ فأجاب الملاك وقال لها :إن الروح القدس يحل عليك ، وقوة العلي تظللك ؛ لذلك فالقدوس المولود منك سيدعى ابن الله » . (لو ١ : ٢٦ — ٣٥)

لا يمكن أن يكون هذا الإبن الذي بشرت بـه مريم غير المسيح ، الأمر الذي لا يقبل الشك : إن عبارات مثـل « عرش داود ، والملك الأبدي » ، لا يمكن أن تنطبق إلا على المسيح . مريم إذن تلقي سؤال الاستعلام والاستيضاح ، ويجيئها جواب الملاك موضحاً شافياً: إن الله لن يدعوهـا للتضحية بعفتها في سبيل الامومة ، لانـه قادر على أن يجعلها تجمع بـين هذين الشرفين، وهو القـدير العلي ؛ فابنها هـذا سيكون آدماً جديداً ، لا أب جسدي له . وأردف الملاك ، شأن من يريد أن يزيد قوله قوة وتأثيراً : إن الله على كل شيء قدير ؛ وها هو ذا قد استجاب لدعـاء أليصابات نسيبتها ، وزوجها زكريا ، اللذين طعنا في السن دون ان يندمل جرح قلبيهما لحرمانهما من الولد والذرية .. نعم ، إن أليصابات العاقر قـد حبلت بعد يأس ، وسوف تلد ابناً ، هو يوحنا الذي سيلقب بالمعمدان .

« وها هي ذي أليصـابات نسيبتك قد حبلت هي ايضاً بأبن

في شيخوختها ، وهذا الشهر هو السادس لتلك المدعوة عاقراً ، لأنه ليس أمر غير ممكن لدى الله . فقالت مريم عندئذ : ها أنذا أمة الرب ، فليكن لي حسب قولك . » (لو ١ : ٣٦ – ٣٨)

اما يوسف الصّديق ، خطيب مريم ، فقد انحنى راضياً أمام مشيئة الله عندما كشف له سر هذه الأحداث . بعد ذلك ، شدّت مريم الرحال إلى بيت أليصابات ، لتشاطر نسيبتها الأعباء في فترة الحمل وأيام الولادة . ثم عادت إلى الناصرة ، لتستأنف حياتها مع يوسف .

ولد يسوع في بيت لحم ، مدينة صغيرة على بعد ثمانية كيلومترات جنوبي مدينة أورشليم في مقاطعة اليهودية ، حيث حضر يوسف ومريم ، إتماماً لإجراءات الإحصاء الذي أمر به أغسطس قيصر ، لأن يوسف كان من سلالة داود ، ولأن بيت لحم هي مدينة داود ومهد أسرته . ولما يئس يوسف من العثور على مكان يأوى اليه في نزل او خان ، هدته قدماه الى مغارة ، لاذ بها مع مريم الحامل ، وقد دنا وقتها . في هذا المأوى ، ولدت ابنها يسوع ؛ وإذا برعاة يقبلون ليشاهدوا الطفل الوليد . وهكذا ظهر المسيح بيننا فقيراً معدماً ، لا يجد السبيل إليه إلا اولئك الذين هم فقراء بالروح مثله . وقد غمرت قلوب الذين شهدوا الطفل فرحة عميقة تنبأ بها الملاك الذي تراءى للرعاة ، حين قال لهم : « ها أنذا أبشركم بفرح عظيم يحل على جميع الشعب : إنه ولد لكم اليوم مخلّص ، وهو السيد المسيح ، في مدينة داود . وهذه علامة

لكم : إنكم تجدون طفلاً ملفوفاً ، مضجعاً في مذود . وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماويين ، يسبحون الله قائلين : المجد لله في العلى ، وعلى الارض السلام للناس الذين نالوا رضى الله . »

(لو ٢ : ١٠ — ١٤)

هذه الأحداث طوتها السنون ولكن ذكراها ما زالت في قلب امرأة ، في قلب مريم أم يسوع ، تستحضرها في ذهنها ، وهي تقوم بالأعمال اليومية الرتيبة ، بينما يسير ابنها مع تلاميذه ، بعيداً ، يذرع الطرق والدروب ليبشر بالملكوت. ما اسعدها أويقات تلك التي عاشتها في إملاق مغارة بيت لحم ، ربما بسبب هذا الإملاق ذاته . لقد تحنن الله على الانسان ، واستجاب بلطفه للدعاء الحار الذي طالما ردده المؤمنون وهم ينشدون المزامير : « أعد إليّ بهجة خلاصك . » (المزامير ٥١ / ٥٠ : ١٤) لقد ولد المسيح ، وسوف ينجز مهمة الخلاص التي جاء من أجلها . فكيف لا يثير مولده الابتهاج ، ويبعث الفرح في النفوس !

وتتوارد الذكريات على مريم وتتصل حلقاتها . إنها ترى الآن بعيني قلبها شيخاً وقوراً يقبل عليها وهي في هيكل الرب ، في أورشليم ، تقضي طقوس التطهير ، حسب شريعة موسى ــ وكم كانت في غنى عنه ، هي التي لم يعرف الدنس إليها سبيلاً ــ عندما بلغ الطفل أربعين يوماً ؛ علم سمعان الشيخ من الروح القدس أنه لن يموت قبل أن تقر عينه برؤية المسيح ؛ وها هو ذا الآن يحتضن الطفل ، بينما تهمس

شفتاه في مناجاة حارة صافية :

« الآن تطلق عبدك أيها الرب ، على حسب قولك ، بسلام ،

فإن عيني قد أبصرتا خلاصك ،

الذي أعددته أمام وجوه الشعوب كلها ،

نوراً ينجلي للأمم ،

ومجداً لشعبك إسرائيل . »　　　(لو ٢ : ٢٩ – ٣٢)

لقد فاضت نفسه دعاء، في حين أخذ لسانه يردد عبارات أشعيا النبي، وطغى عليه الاستبشار ، فراح يعلن أن مجيء المسيح إنما هو أمل ونور لأمم العالم أجمع ؛ واستطرد يقول ، وقد شابت صوته فجأة رنة من الاسى :

« إن هذا الطفل قد جعل علامة لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل، وهدفاً للمخالفة . وأنت، سوف ينفذ سيف في قلبك ، هكذا تنكشف نوايا قلوب كثيرة » .　　　(لو ٢ : ٣٤ ، ٣٥)

وجاء مقتل يوحنا المعمدان مذكياً لهذه الذكريات الدفينة في نفس مريم ، بل ربما ساورها الهلع على ابنها ، بعد هذه الجريمة النكراء .. نعم لقد سبق أن انتابها مثل هذا الخوف الرهيب ، منذ أعوام مضت، حيث كان يسوع ما زال طفلاً ، يوم قدم من الشرق مجوس ، جاءوا

لتحيته وتكريمه ، فتأججت نار الغـيرة في قلب هيرودس الملك ، ولم يسع مريم ويوسف إلا أن يهربا بالطفل إلى أرض مصر ، ولم يعودوا إلى ديارهم إلا بعد انقضـاء فترة من الزمن ، فاستقروا في بلدتهم الناصرة . والآن ، ماذا عسى ان تأتي به الاحداث ، وقد عادوا الى قتل الانبياء وإهدار دماء الأبرياء.. ما أسرع ما تحس الأم بما يهدد ابنها من اخطار.. ويسوع ابن مريم الوحيد .

لم تلد مريم اولاداً من بعد يسوع : فقد كان يوسف يكبر عفتهـا ، فتسامى إلى مقامها وصانهـا ، وقام بمهمته الأبوية على خـير ما يقوم به أب حقيقي بحسب الجسد ، حتى اعتقـد الجميع أن يسوع ابنـه . ولم تذكر النصوص زمن موته ، غير انه كان على قيد الحياة عندمـا صعد يسوع إلى أورشليم ليقضي الزيارة الشرعية الأولى للهيكل ، لما بلغ الثانية عشرة ، حسب ما فرضته شريعة موسى . ولكنه كان قـد فارق هذا العالم عندما استهل يسوع حياته العامة .

من هم إذن إخوة يسوع هـؤلاء ، الذين ذكرهم الإنجيل وأتى باسمائهم ، يعقوب ويوسف وسمعان ويهوذا ؟ إنهم أقرباء يسوع الأدنين ، حسب الروايات القديمة الثابتة . وهـل يعقل أن يعهد يسوع بأمه إلى يوحنا بن زبدى ، ليرعاها من بعده ، إذا كان هؤلاء الأشخاص إخوة له بالمعنى الضيق المصطلح عليه اليوم ؟ ما الذي حـدا إذن بأهل الناصرة

إلى تسميتهم إخوة ؟ الواقع أنه لم يكن في وسعهم أن يستعملوا لفظة جماعية أخرى ، لخلو اللغة العبرية — شأن اللغة العربية أيضاً — من لفظة واحدة تشير الى ابن العم وابن العمة وابن الخال وابن الخالة ، على خلاف ما نجده في معظم اللغات الاوربية . ويبدو ان علاقات النسب التي كانت تربط يسوع بهؤلاء الرجال الأربع لم تكن واحدة : فقد كان يعقوب أخاً ليوسف بحسب الجسد ، وهكذا كان سمعان ليهوذا ، دون ان يكون الاربعة إخوة أشقاء ، ولا يخفى مدى ما يبلغ الكلام من تعقيد إذا لزم اللجوء إلى مختلف المصطلحات كلما أريد الإشارة إليهم جميعاً ؛ فلم يبق سوى لفظة « الاخوة » تطلق توسعاً ، للخروج من هذا التعقيد . وقد سبق أن استعملت في كتب العهد القديم ، لانواع مختلفة من الانسباء ، ولكن في حدود القرابة القريبة الضيقة .

وفي هذه الاثناء ، كان الحديث الذي عقده يسوع مع تلاميذه في الطريق ، ، عند مشارف قيصرية فيليبس يجري هادئاً في أعنته ، ليصل إلى القمة التي أرادها له يسوع . وفجأة طرح عليهم السؤال الفيصل الحاسم : « وانتم ، من تقولون أني هو ؟ » وما كاد صوت يسوع يخلد إلى الصمت حتى انبرى للإجابة سمعان بطرس ، وكان أول الاثني عشر ، وأحد أصفياء يسوع الثلاثة ، مع يعقوب ويوحنا ابني زبدى ، انبرى سمعان بطرس يقول : « أنت هو المسيح » . فأجابه يسوع : « طوبى

لك يا سمعان بن يونا ! فإنه ليس اللحم ولا الدم هما اللذين كشفا لك هذا ، لكن ابي الذي في السماوات . » (متى ١٦ : ١٧) هذا قول صريح : ان يسوع يعترف أمام جماعة تلاميذه بأنه هو المسيح .

الفصل الثامن

ان لم تمت حبة الحنطة ...

جاء وقت الإفصاح وحان ليسوع ان يكشف عن أوراقه . لقد لزم الصمت شهوراً طويلة على حقيقة رسالته ، وربما كنا أدق تعبيراً بقولنا إنه آثر التلميح على التصريح ، تاركاً الفرصة لكل شخص ، تلميذاً كان أم واحداً من أفراد الشعب ، لكي يسبر الموقف بنفسه ، ويحدد بالتالي موقفه منه على ضوء ما تكشف له تجاربه الشخصية ،بعد طول العشرة والمراقبة والألفة . وكان يعمل في وضح النهار ، مصرحاً بما تسلم من سلطان ، معلناً في غير تحرج أنه أعظم من كبار الأنبياء الذين طبقت شهرتهم الآفاق. في كنفه نما إيمان جماعته الصغيرة وتوطدت أركانه . غير أنه أدرك ، بثاقب فراسته ، أن جماعة الشعب ليست بعد على استعداد لقبول ما كان مزمعاً أن يقوله . لذلك طلب من تلاميذه ألا يعلنوا بعد أنه هو المسيح : لقد رأى أن يقصر حديثه عليهم دون سواهم من الناس .

وما دام بطرس قد شهد أنه هو المسيح ، فلينتهزها يسوع فرصة ليعلق على شهادة تلميذه بكلمة يوجهها لجماعة الذين آمنوا به والذين

سينضمون إليهم فيما بعد . لقد تبرأ الاثنا عشر مقام الصدارة بين سائر الذين آمنو بيسوع ، وهو أمر لم يستغربه أحد : فقد كان دير الأسينيين في قمران تحت إشراف مجلس مكون من اثني عشر عضواً ؛ غير أن يسوع اليوم ينظر إلى الغــد ، حين تتطور جماعته الصغيرة لتصبح كنيسة [1] . وإذا به يقرر أن الأساس الذي سيشيد عليه كنيسته إنما هو إيمان أعضائه بمسيحيته،أي بأنه هو المسيح،وبالتالي المخلص. اما بطرس فسيعطى مفاتيح ملكوت السماوات ، ليقوم بدور الوكيل، الذي يربط ويحل ، أي الذي يملك حق الموافقة أو الرفض ، حسب التعبير السائد آنذاك في آداب علماء اليهود ؛ وبعبارة اخرى ، إنه هو الذي سيتولى السلطة فيها . لم يقل يسوع اكثر من هذا الآن ، سوى أن كنيسته ستنتصر آخر الامر لا محالة ، متغلبة في نضالها من ابواب الجحيم ، اي ضد قوى الشر والموت .

« وأنا أقول لك : انت الصخرة،وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي ، وابواب الجحيم لن تقوى عليها ،وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما ربطه على الارض يكون مربوطاً في السماوات ،وكل ما حللته على الارض يكون محلولاً في السماوات . حينئذ أوصى تلاميــذه بألا يقولوا لأحد أنه هو المسيح . » (متى ١٦ : ١٨ — ٢٠)

وشرع يسوع منذ ذلك الحين يركز أحاديثه مع تلاميذه على المصير

(١) نلاحظ ان كلمة كنيسة سامية الاصل، وكانت متــداولة في قمران كاسم لجماعة النساك .

الذي كان ينتـظره ؛ وتفرغ للسهر على تعليمهم ، محاولاً تجنب زحمـة الجماهير وضغطها عليه . هذا التحول الخطير في حياة يسوع نظر إليـه البعض على انه علامة الفشل والخيبة ، وعلى ذلك ، يكون عدم قبول الشعب لدعوته هو الذي دفعه إلى العزلة وإيثار الخلوة . وقد بلغ بهم الظن الى أن عداء الفريسيين المتزايد كان سبب انسحابه من الميدان وإرجاء مواصلة نشاطه ، إلى ان يحدث حادث ما ، يقيله من عثرته ، ويهيء ظروفاً مؤاتية لأستئناف سير دعوته . هذه نظرة لا تمت إلى الواقع بصلة ؛ لا نلمس قط من قراءة الاناجيل ان يسوع قد تخاذل أو يئس من نتيجة نضاله ، في هذه الآونة من حياته ، بل يبدو لنا ، على نقيض ذلك ، هادئاً ، مالكاً لزمام نفسه ، مصمماً على متابعة السير في الطريق الذي ارتسمه والجهة التي اختارهـــا . واذا كان موقف الجماهير التي رضيت به بوجدانها ، دون ان تنحاز إليه بعقلها وإيمانها، اذا كان ذلك يعتبر فشلاً ،فانه مجرد نكسة او فشل جزئي ، لا ينبغي ان يطغي على النظرة الموضعيـــة والتقدير السليم : إن يسوع لا يطرح السلاح جانباً ، فضلاً عن ان يستسلم للواقع الأليم ،لكنه يحمل النضال الى ميدان آخر .

كيف تكون نشأة ملكوت السماوات ؟ هذا ما بقي لنا ان نعرفه عن الملكوت ، بعد ان استمعنا إلى يسوع ينبئنا بقرب قيامه ، ثم يفصل لنا الروح التي يجب أن تسود أبناءه.لقد أوضحت الأمثال ان حياة الملكوت تنقسم الى مرحلتين : مرحلة نمو ، حيث الخير والشر يمتزجان ويختلطان ، ومرحلة مجد وانتصار ستحل بعد يوم الدين .

اما الآن ، فعلى يسوع ان يفصح عن الخطوات الاولى لنشأة الملكوت ولانطلاق نموه ، أن يبين كيف يلقي الحب في الارض ، ان جاز أن نصطنع تشبيهاً نستقيه من الامثال ... لا شك أن الملكوت ينشأ عند الكرازة بالانجيل ، كما أبان يسوع ذلك في شرح مثل الزارع . إلا أن هذه الانطلاقة ستتم بوسيلة أخرى ، أشار اليها يسوع تعريضاً لا تصريحاً بقوله :

« الحق الحق أقول لكم ، إن حبة الحنطة التي تقع في الارض ، إن لم تمت ، فهي تبقى وحدها ، وإن ماتت ، أتت بثمر كثير .

من أحب نفسه فقد أهلكها ، ومن أبغض نفسه في هذا العالم ، فقد حفظها للحياة الابدية . » (يو ١٢ : ٢٤ — ٢٥)

ومنذ ذلك اليوم عكف يسوع على شرح هذا المعنى لتلاميذه ، فأصبح من سائر تعاليمه بمثابة المركز من الدائرة ؛ فلا سبيل إلى اغفاله، لا سيما وان الوثائق القديمة كلها تتفق على أنه كان كثير الورود على لسانه ، وان الكنيسة المسيحية الاولى ركزت عليه بشارتها منذ اول عهدها . ان المسيح ، قبل ان يتبوأ كرسي مجده ، كان عليه ان يجابه معارضة كتلك التي واجهها من قبل كثير من الانبياء ، والرسالة التي نهض لتأديتها سوف تكلفه التضحية بحياته . غير أن الآية ستنقلب ، وسيقوم من قبره مظفراً ، ليحتل مقام العزيز المنتصر يوم الدين : هذا ما سيوضحه في تعاليمه المقبلة :

« ومنذ ذلك اليوم ، بدأ يسوع يبين لتلاميذه أنه ينبغي ان يمضي إلى أورشليم ، ويتألم كثيراً من المشايخ ورؤساء الكهنة والكتبة ، ويقتل ، ويقوم في اليوم الثالث . » (متى ١٦ : ٢١)

ويوصي يسوع تلاميذه بالتزام الصمت ، فلم يفته ما كان للخبر من وقع أليم في نفوسهم! فأحرى بعامة الشعب أن تنفعل له ، وأن يشتد عليها وقعه ، اذا علم النبأ وتفشى الخبر : فسيسخر أعداؤه في وقاحة وشماتة ، ولن يدرك مرماه أولئك الذين يشعرون بالميل نحوه . ولكن لم يعد الوقت يحتمل التردد : من أراد ان يتبعه ، وجب عليه ان يعتنق مبادئه ؛ فرسالته لا تقتصر على عرض مثل أعلى للناس يتطلعون إليه : إنها ترمي قبل كل شيء إلى تبصرهم بالطريق ،بل إلى شق الطريق أمامهم — للحاق بهذا المثل .. وهكذا ، سيحمل الناس إلى التفكير في خطة الخلاص التي وضعها ، لعلهم يدركون عندئذ ، أن روح الطوباويات ستبقى حلماً جميلاً ما لم يسيروا خلفه على هذه الطريق ، طريق الصليب ، ربما تبين لهم معنى التواضع الحق ، ومعنى الخطيئة ، وبالتالي ، معنى الولادة الجديدة التي يجب أن يولدها كل من أراد ان يدخل في ملكوت السماوات ... ربما أدركوا أن سر العظمة الحقة لا يكمن في السلطان او الأبهة ،ولكن في هذا الحب الذي يفوق الطبيعة. عندئذ ستنجلي أمام بصيرتهم المتجددة مبادىء الطوباويات السامية ، قبل ان يتغنوا بها يوماً ما في مجد السماء ، لأن روعة روح الفقر ، والرحمة ، وحب السلام ، لا تنجلي إلا في وهج الضوء الابدي .

ها هوذا يسوع إذن يعلن عن موته وعن قيامته . ويهلع التلاميذ ،

وتنبهر الأنفاس من شدة الصدمة وتنعقد الالسن .. إلا ان بطرس ، زعيم الاثني عشر ، والرجل السريع الانفعال ، لم يقو على ضبط مشاعره : لا بد له من أن يفصح ليسوع ، على انفراد ، من الخلجات التي تعتمل في الصدور . لكن رد يسوع جاء صارماً جازماً كحد السيف : إن الطريق التي شرع يسلكها إنما هي مشيئة الله عينها وإرادته ، والدعوة إلى الحيد عنها لا تتم إلا عن جهل وقلة دراية بأمور الله .

« فأخذه بطرس نحوه ، وبدأ يزجره قائلاً : حاشا لك يا سيد ! لا يكون لك هذا . فالتفت يسوع وقال لبطرس : إذهب خلفي ياشيطان ، فقد صرت لي حجر عثرة اتشككني ، لأنك لا تفطن لما لله لكن لما للناس . » (متى ١٦ : ٢٢ ، ٢٣)

ثم وجه يسوع الخطاب للجميع ، كأنما أراد أن يكسب كلامه أهمية وقدراً ، ولا يترك للسامعين مجالاً للتوهم أو اللبس : إن سبيل التجرد التام ليس وقفا عليه وحده ، بصفته مسيحاً ، بل إن كل من أراد أن يتبعه لا بد له من اقتفاء خطاه واحتذاء حذوه . ولم يشأ يسوع أن يتوهم السامعون أن دعوته دعوة يأس : إنها على نقيض ذلك دعوة إلى السعادة الحقيقية . لذلك رفع الستار عن ناحية جديدة من مهمته : إنه ، هو إبن الانسان – كما آثر أن يسمي نفسه – هو الذي سيأتي عند انقضاء الأزمنة ، في مجد أبيه ، ليعطي لكل واحد قسطه من السعادة حسب أعماله . إذا كان هذا التصور للمسيح المتألم ثورة على ما كان يتخيله التلاميذ ، فإن فكرة مجده النهائي لم تكن أقل منها غرابة على الأذهان .

فما معنى « مجيئه في مجد أبيه ؟ » ... ولكن حسب التلاميذ هذا القدر من الصدمة والانفعال .. إنـــه لا يطالبهم بالصبر إلى آخر الزمان : فليعلموا أن محنة موته ليست إلا سحابة عابرة لا تلبث أن تنقشع ، لتمهد السبيل إلى انتشار الملكوت ، وهي رؤيا ستكتحل بهـا عيون الكثيرين ممن يستمعون إليه . نعم ، إذا مـا ماتت الحبة في الأرض ، فما أسرع ما تخضر الحقول .

« حينئذ قال يسوع لتلاميذه : من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبــه ويتبعني ؛ لأن من أراد أن يصون نفسه أهلكها ، ومن أهلك نفسه من أجلي ، سوف يجدها . ومــاذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ أم ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه ؟

« لأن ابن البشر مزمع أن يأتي في مجد أبيه مع ملائكته ، وحينئذ يجازي كل واحد بحسب أعماله . الحق أقول لكم ، إن قوماً من القائمين ههنا لا يذوقون الموت حتى يروا ابن البشر آتياً في ملكوته . »

(متى ١٦ : ٢٤ — ٢٨)

ظلت هذه النظرة إلى المستقبل بناحيتيه تراود أذهـــان التلاميذ في الأيام التاليـــة : موت ونصر ، أو بتعبير أدق ، إجتياز الموت لتحقيق النصر .

وتابع يسوع جولته وبلغ مع تلاميذه جبلاً عالياً،لم تذكر الأناجيل اسمه ، فارتقاه مستصحباً أخصاءه الثلاثة ، بطرس ويعقوب ويوحنا .

وبينما كان منفرداً يصلي ، تجلى فجأة أمامهم، فصار يشعّ ضياء ونوراً، وتراءى للتلاميذ موسى وإيليا يتحدثان إليه :

« وإذا غمامة منيرة قد ظللتهم ، وصوت من الغمامة يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت ، فله أنصتوا . فلما سمع التلاميذ الصوت سقطوا على وجوههم ، وقد اعتراهم خوف شديد . »

(متى ١٧ : ٥ ، ٦)

هذه الغمامة المنيرة ، وقد أطلق عليها العهد القديم اسم « شُكينا »، جاءت لتذكر بمعجزات الخروج التي تمت على يد موسى . إنها كانت علامة وجود الله ، بقدرته الحامية الحافظة وسط شعبه. هذه الرؤيا إنما هي شهادة للتلاميذ ، إنها واحة خضراء في صحراء الأنباء الكئيبة التي اعتادوا سماعها منذ أيام. غير أنها شهادة لم يقصد بها غير التلاميذ الآن: فليلزموا إذن الصمت في شأنها ، كما أوصاهم بذلك يسوع ، « إلى حين قيامته من بين الأموات . »

ويطرق يسوع مرة أخرى موضوع الحوادث المقبلة التي أزعجت أنباؤها القديس بطرس،فكادت تكون لإيمانه محنة قاسية ، ليؤكد لتلاميذه أن يوحنا المعمدان إنما هو إيليا الجديد الذي جاء بين يدي يسوع ... ولكنه قتل ، ومصيره هذا هو الذي يتربص الآن بيسوع .

« أقول لكم ، إن إيليا قد جاء ، ولكنهم لم يعرفوه، بل صنعوا به كل ما أرادوا ؛ هكذا ابن البشر أيضاً مزمع أن يتألم منهم . حينئذ ،

فهم التلاميذ أنه قصد بقوله هذا يوحنا المعمدان . »

(متى ١٧ : ١٢ — ١٣)

ولما انحدر يسوع من الجبل، وجد التلاميذ في جدال مع رجل كانوا قد عجزوا عن إبراء ابنه من الصرع الذي كان يضنيه . وانتفض يسوع شاكياً معاتباً : لو كان لتلاميذه مزيـد من الإيمان ، لو أنهم ابتهلوا إلى الله ضارعين ، لاستجيب لهم .

« الحق أقول لكم : لو كان لكم إيمان مثل حبة الخردل ، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من ههنا إلى هنـــاك فينتقل ، ولما استعصى عليكم أمر . »

(متى ١٧ : ١٩)

ونتتبع يسوع فنجده بعد هذا الحادث بقليل، يطوف في قرى الجليل، ولم يشأ ان يعرف الناس انه هناك لأنــه كان يعلـّم تلاميذه ، وكان يكرر لهم أنه سوف يسلـّم ألى أعدائه ، فيقتلونه ، إلا انه في اليوم الثالث سيقوم. ويسود التلاميذ جو كئيب من الوجوم والصمت وعدم الإدراك ، دون ان يجرؤ أحد على سؤاله .

***

ستمر أيام عديدة قبل ان يدرك التلاميذ العلة الحقيقيـة لكل ما سيجري من أحـداث وسيعود يسوع إلى طرق الموضوع فيما بعـد . ومع ذلك، لم تنقشع الغشاوة من فوق بصيرتهم إلا بعد ان قضي الأمر . ذلك أن الأفـكار لا تتغلغل في أغوار الزمن إلا رويداً رويداً ، بعـد

سير خفي في مسالك النفس وشعابها . وقد ساعد على هذا النضوج في نفوس التلاميذ طول معاشرتهم للكتاب المقدس، وتلك ميزة كانت عامة متفشية بين طبقات الشعب . ولكن الفضل الأكبر في هـــذا النضوج مرده أولاً الى الروح القدس .

ويحمل الكتاب المقدس نصوصاً عديدة ، تناول فيهـــا موضوع الألم والموت من مختلف الوجـــوه ليصدر في هاتين المشكلتين المحيرتين أحكاماً لا سبيل إلى سلامة إدراكها إلا اذا نظر إليهـــا في مجموعهـا كوحدة واحدة ، وإلا كنا عرضة للاستدلالات الجزئيـــة المضللة . من هـــذه النصوص ما يجعـــل الألم والموت عقاباً للخطيئة ، وجزاء وفاقاً للجريمة : فنقرأ مثلاً أن الخاطيء لن يتمتع بطول البقاء على الارض ، لأنه محروم من بركات الله ، او لأن سلوكه السيء يستعجل القضـــاء العادل الذي هو أهل له .

هذا إلى جانب الروايات التاريخيـــة التي يرويها الكتاب المقدس والتي تسوق أمثلة للآثار الهدامة التي تورثها الخطيئة ، سواء في الأسرة أو في المجتمع . وما اكثر الآلام التي يستطيع المرء ان يتجنبهـــا اذا امتنع عن ارتكاب الإثم الذي يجرها . أما الموت ، فالنصـوص تنظر اليه عامة على انه جـــاء نتيجة لحسد الشيطان وللخطيئة التي ارتكبها آدم ، بعد ان أسلم له نفسه .

« فان الله خلق الانسان خالداً ،

وصنعه على صورة ذاته ،

لكن بحسد إبليس دخل الموت إلى لم ، العا

فيذوقه الذين هم من حزبه . »   (الحكمة ٢ : ٢٣ – ٢٤)

هذا كله لا يشق على التلاميذ فهمه . ولكن أنّى لهم ان يتصوروا أن شخصاً بريئاً طاهراً مثل يسوع سيصبح ضحية للألم والموت ؟ وهل يعقل أن تقع على المسيح أوزار ذنوب لم يقترفها ، وهو الذي جاء لتدعيم البر وتوطيد الصلاح على الارض ؟ وهل يليق بالله عز وجل ان يترك الامور تتدهور إلى هذا الحد ، في الوقت الذي كانت قدرته على وشك التجلي ؟ كل ذلك بعيد كل البعد عن المنطق : لذلك ثار بطرس واحتج .

على ان الكتاب المقدس لم يقتصر على هذه النصوص ، بل يورد نصوصاً أخرى مكملة لها ، تبين ان الألم والموت قد يكونان من نصيب البطل الذي يجاهد في سبيل وطنه او في سبيل ربه ، وعندئذ يصبح جهاده وتضحيته داعية فخر وسبب مجد وإعتزاز . وعلى ذلك ، فإن يسوع الذي أقبل على أداء رسالته رغم المخاطر التي كانت تكتنفها ، كان جديراً بأن يسمو كثيراً في أعين التلاميذ ويرتقي ! وكم من شهيد فيما بعد سيستمد من تضحية يسوع القوة والصبر على بذل النفس ، شهادة على إيمانه وإثباتاً لحبه لله . . ولو ان يسوع تقهقر ولم يصمد لما لاقاه من مقاومة أوردته مناهل العذاب والموت ، كيف كان سيفعل كل الذين قتلوا من أجل اسمه على مر السنين والاجيال ؟ هذه النظرة إلى تضحية الشهيد ليست بغريبة على العهد القديم ، فنحن نسمع لها أصداء في

أكثر من سفر من أسفاره ، لا سيما في سفري المكابيين والحكمة : فقد استشهد عدد كبير من اليهود في عهد المكابيين في سبيل عقيدة التوحيد ، ونصوص سفر الحكمة تعد بالسعادة الابدية كل الذين يبذلون حياتهم في سبيل الله :

أما نفوس الصديقين فهي بيد الله ،

فلا يمسّها عذاب .

وفي ظن الجهال أنهم ماتوا ،

وقد حسب خروجهم شقاء ،

وذهابهم عنا عطباً ،

أما هم ففي سلام . » (الحكمة ٣ : ١ — ٣)

ومهما يكن من أمر ، فان يسوع ، في هذا المجال ، اراد ان ينذر تلاميذه بما ينتظرهم من تضحيات : فسبيل الانجيل لا تعرف التهاون والاسترخاء ؛ فنبههم إلى انهم سيساقون أمام سلطات تناصبهم العداء، بسبب الرسالة التي يؤدونها ، أي بسبب الانجيل . وبعد ان أنبأهم بالصراع الذي سوف ينشب بين افراد الأسرة الواحدة بسببه ، أردف يقول :

« ستكونون مبغضين من الكل من أجل اسمي ، غير أن الذي يصبر إلى المنتهى فذلك يخلص . وإذا اضطهدوكم في مدينة ما ، فاهربوا إلى أخرى . الحق أقول لكم ، إنكم لن تفرغوا من التجوال في مدن

إسرائيل حتى يأتي ابن البشر . ليس تلميذ أفضل من معلمه ، ولا عبد أفضل من سيده ؛ حسب التلميذ أن يكون مثل معلمه ، والعبد أن يكون مثل سيده . وإن كان رب البيت قد سموه بعل زبوب ، فكم بالأحرى أهل بيته . » (متى ١٠ : ٢٢ — ٢٥)

ثم حرض تلاميذه على ألا يخشوا تهديداً ولا إرهاباً ، لأن الروح القدس ذاته سيكون سندهم ونصيرهم :

« فإذا أسلموكم ، لا تهتموا كيف تتكلمون أو بأي إجابة تجيبون : إنكم ستتلقون في تلك الساعة ما تتكلمون به ، لأنكم لستم انتم المتكلمين ، لكن روح أبيكم هو المتكلم فيكم . » (متى ١٠ : ١٩ ، ٢٠)

« ولا تخافوا ممن يقتل الجسد ولا يستطيع أن يقتل النفس ، بل خافوا ممن يقدر أن يهلك النفس والجسد في جهنم . أليس عصفوران يباعان بفلس واحد ؟ ومع ذلك ، لا يسقط على الارض واحد منها بدون إرادة أبيكم ، أما أنتم ، فإن شعر رؤوسكم جميعه محصى . فلا تخافوا ، فإنكم أفضل من عصافير كثيرة .

« كل من يعترف بي أمام الناس ، أعترف أنا به أمام أبي الذي في السماوات ؛ ومن ينكرني أمام الناس ، أنكره أنا أمام أبي الذي في السماوات . » (متى ١٠ : ٢٨ الى ٣٣)

إذن ، مهما ترتب على بشارة الإنجيل من نتائج ، ومهما خلفت دعوة الإنجيل من مآسى ، تلك كلها أمور يجب أن تكون في الحسبان ، لان

الحياة الحقة لا تنال إلا بالتضحية . بل قد تفرض الرسالة على المؤمن ان يقمع أحب المشاعر الى نفسه ، اذا تعارضت مع ملكوت السماوات ! وماذا يجديه نفعاً أن يربح العالم كله إذا أدى ذلك الى إهلاك نفسه ؟ .

« لا تظنوا أني جئت لألقي على الارض سلاماً : لم آت لألقي سلاماً بل سيفاً . لقد أتيت لأفرق الانسان عن أبيه ، والابنة عن امها ، والكنة عن حماتها ؛ وأعداء الانسان سيكونون اهل بيته . من أحب أباً او اماً اكثر مني ، فلن يكون أهلاً لي . ومن أحب إبناً او بنتاً اكثر مني ، فلن يكون أهلاً لي . ومن لا يحمل صليبه ويتبعني ، فلن يكون أهلاً لي . من وجد نفسه يهلكها ، ومن أهلك نفسه من أجلي ، يجدها . » (متى ١٠ : ٣٤ – ٣٩)

كلا ، ليست هذه اللهجة لهجة التشاؤم ، لكنها لهجة من لا يصرف عينيه عن الواقع . إن عذاب اللحظة العابرة ، انما هو شرط السعادة الابدية . فمن قبله حباً لله ، أعد نفسه لحياة لن يكون في وسع أحد أن ينتزعها منه .

***

غير اننا اذا ما تعمقنا في البحث الى ما هو أبعد غوراً من عنصري العقاب والاستحقاق ، صادفنا عنصر آخر ، لا يقل عن سابقيه أصالة في تعاليم الكتاب المقدس ؛ مؤداه أن الانسان الذي يرتكب خطيئة في حق الله ، وكل خطيئة ، ولو اقتصرت على المساس بحق من حقوق

الغير ، إنما هي أصلاً انتهاك لحرمة شريعة الله ومعصية لوصاياه ، هذا الانسان الخاطيء ، لا يسعه ان ينال الصفح والغفران إلا اذا تاب عن جريرته و كفر عن ذنبه ، شأنه شأن الانسان الحر ، المسؤول عما جنت يداه : هذه هي سنة الله في خلقه العاقل .

ولا غرابة في ان يطالب المذنب بالتوبة . لقد خلق الله الانسان حراً ، وربما كان أدعى ما في الخلق الى الدهشة والاستغراب ، أن يهب الله الوجود لكائنات في مكنتها ان ترضى وتطيع ، وفي مكنتها ان تتمرد وتعصي . ولم يرض سبحانه بأن يكون خالقاً للمادة وحسب ، او للحيوانات العجماوات ، التي لا تفتأ تكرر بلا تمييز حركات فرضتها عليها الغريزة فرضاً . لقد أراد ان يخلق من العدم كائنات جديرة بان تتعبد له طوعاً واختياراً ، قمينة بأن تدعوه أباً ، وان تخلص له الحب والوفاء .

لذلك ، حرص الله في العهد القديم على ان يبين للإنسان ما تستتبعه حريته من تبعات ، وربما كان الوعي بالخطيئة وخطورتها من أَخص القيم الدينية المميزة لرسالة العهد القديم ، فيتقن المؤمن ان الخطيئة إهانة لله ، وقد قال له في نزوة التمرد والعصيان : لا ، لم أطع .

وإياك وحدك عصيت ، وما هو شر أمام عينيك صنعت . »

(المزامير ٥١/٥٠ : ٦)

ولكن هذه النصوص التي تشير الى الخطيئة تكتسب كل قوتها اذا

ما وضعت في سياق تعاليم الكتاب المقدس . لا شك ان بعض نصوص سفر المزامير وأسفار الانبياء كان لها أثر عميق في إرهاف الضمائر ، وجعلها أكثر رقة وأشد حساسية ، بما دعت إليه من إيمان بعطف الله ورحمته وحنانه وحبه ، فعلّمت الخاطيء كيف يكبح جماح كبريائه ، ويعترف بسلوكه الجاحد المشين تجاه خالقه ، بدلاً من أن يتلمس لزلاته العلل والأعذار . فتعليم الكتاب كله كان دعوة للخاطيء ليسلك نهج الندامة والتوبة .

إلى جانب هذه الدعوة ، كان تأثير الكتاب قوياً في الحث على التفكير . وفي هذا، اعتمدت تعاليمه على الحاسة الدينية التي فطر عليها الإنسان ، والتي تلقي في روعه أن « الحسنات يذهبن السيئات » . وما دامت الخطيئة تترك في النفس آثاراً عميقة ، فلا بد لهذه الآثار من أن تنسخ وتزال ؛ وحيث أهدرت حقوق الناس ، يجب أن تعاد هذه الحقوق إلى اصحابها ؛ وحيث تعدّى الإنسان على حدود الله، لا مناص من التكفير والتعويض . لهذا السبب ، فرض الناموس تقديم ذبائح الاستغفار عن الخطايا ، وذبائح التكفير عن آثارها الباقية في أعماق النفس .

إن سنة الله هذه لم تنل لدى بعض الناس فهماً وقبولاً : فهم يتساءلون : لم لا يغفر الله كل شيء ويعفو عن كل شيء ، عندما يعود إليه الإنسان مستغفراً تائباً، والله هو الشفوق والرحمن الرحيم؟ ما كان أحد حينذاك ليرتاب في سعة رحمة الله ، إلا أن هذه الرحمة ذاتها هي التي دفعته تعالى

إلى معاملة الإنسان معاملة العاقل الحر المسئول ، أملاً في تربيته وترقيته عن طريق هذا التكفير الرمزي ، الذي يطالبه به كلما أخطأ فتاب .

هل تلحق الخطيئة بالله أذى ؟ إن الجواب بالنفي ، بطبيعة الحال ، لأن الله في حد حد ذاته ، لا يمكن أن يناله الأذى والضرر ، فهو منزه عن ذلك كله . إنما الخاطيء يسيء بلا جدال إلى مجد الله في هذه الدنيا، إلى الفكرة التي يكونها الإنسان عنه عز وجل، إلى المحبة التي ينبغيأن يخصه بها الإنسان، إلى هذا كله يسيء الخطأة عن وعي أو بدون وعي. فالخطيئة ليست مجرد دنس يمكن الاغتسال منه أو التطهير : إنها قبل كل شيء إهانة موجهة إلى الله .

« إياك وحدك عصيت » .

ولم تكن الذبائح الحيوانية الشرعية هي وسيلة التكفير الوحيدة المتبعة ؛ فقد أدركت بعض النفوس أن هناك تقديمات أخرى ، تقدم إلى الله تكفيراً عن آثار الذنوب والخطايا ، فوجد من لاذ بالصوم لكفر عن خطيئة زنى ، كما وجد من الخطأة من كانت نفوسهم تذوب ندامة وحزناً كلما تذكروا آثامهم وذنوبهم؛وقد أفصح عنذلك أحد المزامير، حيث يتضرع الخاطيء التائب إلى الله قائلاً :

« فإنك لا تبتغي ذبيحة ،

ولا ترضى بمحرقة إذا ما قدمتها ؛

إنما ذبيحتي روح منكسر ،

القلب المنكسر المنسحق لا ترذله ، يا الله . »

(المزامير ٥١ / ٥٠ : ١٨ — ١٩)

إذن ، لقد تعلم الإنسان في العهـد القديم ضرورة التوبة ووجوب التكفير . ولكن رغم ذلك، كانت النفوس المتدينة تشعر بأنه يستعصى على الإنسان أن يقدّم عن خطاياه التكفير الملائم العادل، لأنه أساء إلى الله ، وشتان بين كفارة يؤديها الإنسان ، وإهانـة يقصد بها الله . إنها إذن رحمة الله أولاً وآخراً ، التي تكفل للخاطيء العفو والغفران .

وكانوا ينظرون إلى التوبة على أنها أمر ذاتي ، لا يخص إلا الخاطيء وحده : فالإنسان حر ، ولا يستطيع أحد سواه أن يتصرف بمصيره . أما فيما يتعلق بالتكفير ، فالأمر يختلف ، وليس ما يمنع من التعاون والمساعدة في هذا المجال ، إذ لا يبطل مبـــدأ المسؤولية الشخصية أن يساهم شخص آخر في التكفير عن خطيئة مذنب ما . على أن يفهم أن هذه المساهمة ممكنة في ميدان التكفير لا التوبة ، أي أنهـا تقتصر على إعانة التائب على إزالة بقايا خطيئته .

لماذا هذا الوقوف الطويل عند مباديء كانت النفوس المتدينة متشبعة بها في ذلك الوقت ؟ كان لا بد من ذلك، لان هذه المباديء وحدها هي التي تستطيع أن تكشف عن المغزى الحقيقي لمـــا قاله يسوع ، وهو بالقرب من قيصرية فيليبس . وحسبنا الآن أن نقارنها ببعض النصوص

التي اشتمل عليها سفر أشعيا النبي .

لقد سبق أنصادفتنا بعض العبارات المستقاة من أشعيا النبي ،سواء على لسان يسوع أم على لسان بعض ممن كانوا معه : ولكن الجزء الثاني من سفر أشعيا يروي أربعة أناشيد منفصلة ومتفاوتة في الطول . إنها ترسم صورة لشخص، تطلق عليه لقب عبد الله، وهو ذو وداعة وأناة، سيعاني الآلام ثم الموت طوعاً ، ليكفر عن خطايا كثيرين . وعبد الله هذا يتعهد بإداء رسالته الخلاصية تجاه شعب إسرائيل أولاً، ثم بالنسبة إلى العالم اجمع ، وسيصبح في النهاية نوراً للشعوب . وكثيراً ما يشبّه شعب النبي ذاته في سفر اشعيا، بعبد الله هذا ، إلا انه ، هنا ، في الأناشيد الاربعة ، لا يمكن ان ينطبق على الشعب ، ولو من باب التشخيص ، لان النص ينبئنا صراحة بأن خلاص الشعب سيتم على يد عبد الله هذا . وبينما يشير سائر سفر أشعيا إلى ان الآلام التي يرزح الشعب تحت وطأتها ، إنما هي جزاء عادل لسلوكه الآثم ، إذا الاناشيد المذكورة تصف هذا العبد بأنه طاهر، بريء من كل إثم وأنه قدّم ذاته ليخلص الشعب .

كان يسوع يشعر بأنه يحقق في شخصه نبوءة العبد ، كما وردت في سفر اشعيا ؛ كان يدرك تماماً ان المضي في اداء مهمته ، وفق مشيئةابيه السماوي ، معناه اختيار سبيل المخاطر. ولكنه قدم حياته ، وهو يعلم جيداً ان هذه التقدمة ، بما فيها من طاعة ومحبة،لا تعادل جرائم التمرد والتجديف على الله فحسب ، لكنها ستمحوها محواً وتكفر عنها

تكفيراً.هذا هو مؤدى نبوءة العبد ، التي نورد فيمايلي نبذاً قصيرة منها:

« أحزاننا حملها ،

وأوجاعنا رزح تحتها .

أما نحن ، فحسبناه معاقباً ،

مضروباً من الله ، مذلولا .

طعن من أجل خطايانا ،

وسحق من أجل آثامنا ،

التأديب الذي يعود علينا بالرضى ، عليه وقع ،

وبفضل جروحه شفينا .

كلنا ضللنا كالغنم ،

وانحرفت بكل واحد منا السبل ،

فألقى الرب عليه إثم كلنا .

تحت وطأة الذل القاصم تواضع ،

ولم يفتح فاه .

مثل الحمل ، سيق إلى الذبح ،

كالنعجة الصامتة أمام الذين يجزونها ، لم يفتح فاه . »

(أشعيا ٥٣ : ٤ — ٧)

. . . . .

« فإنه إذا جل نفسه ذبيحة تكفير ،

يرى ذرية ، وتطول أيامه .

ومرضاة الرب ستتم على يده .

بعد المحن التي عانتها نفسه ،

سيرى النور ويشبع .

بفضل آلامه سيبرر عبدي جموعاً غفيرة،

لأنه حمل عليه عبء آثامهم . » (أشعيا ٥٣ : ١٠ ، ١١)

عندما فطن التلاميذ إلى أن نبوءات سفر أشعيا في عبدالله إنما كانت خاصة بالمسيح ، وقد تحققت ، حينئذ اطمأنت قلوبهم ، وعاد إليها الهدوء والسلام .

أما اناشيد سفر أشعيا هذه ، فقد غدت ذخيرة تزودت بها نفوس المسيحيين الأوائل مدة طويلة ،حتى ان كثيراً من تعبيرات البشيرين ، وهم يضعون اللمسات النهائية لنص الانجيل ، تعزى الى هذه الأناشيد .

فالقديس متى ، مثلاً ، إذ أراد ان يعبر عن وداعة يسوع وعالمية رسالته ، كتب مستشهداً بنشيد العبد الاول :

« لكي يتم ما قيل بأشعيا النبي القائل :

هوذا فتاي الذي اخترته ،

حبيبي الذي سرّت به نفسي .

أُحل روحي عليه ،

فيبشّر الامم بالايمان الحق ،

لا يشاجر ولا يصيح ... »

(متى ١٢ : ١٧ — ١٩ وأشعيا ٤٢ : ١ وبعده)

وكذلك يقال في العبارتين « نور الشعوب » و « حمل الله » اللتان وردتا على لسان سمعان الشيخ ويوحنا المعمدان : فهي مقتبسة من أناشيد العبد .

واذا تجاوزنا نظرية الجزاء الذي يناله الشهيد عند تضحيته ، بدا لنا أن موت العبد ، يعود بنا إلى موت الحبة التي تلقى في الارض ، فتصبح ، بحكم تضحيتها مصدر خير وحياة .

الفصل التاسع

الخدمة ، سر العظمة الحقة

كان احتجاج بطرس على طريق قيصرية فيلبس تعبيراً عما ساوره من قلق : لقد خشي على يسوع من الذل والهوان في أعين النـــاس . هكذا فكر أول الاثني عشر ، كما يفكر سواد النـــاس ، اذ يرون العظمة في السلطان والهيبة . أما يسوع ، فقد أبدى استهانتـه بهـذه القيم وأبى ان يعترف بها ؛ ذلك عين ما فعل يوم جرّبه إبليس ، بعد صيامه في وادي الاردن . وهو الذي كان دائماً مضرب المثل في الشرف وعزة النفس والسلطان العجيب ، سوف يرشد تلاميـــذه إلى موطن العظمة الحقة .

وسرعان ما تهيأت ليسوع الفرصة لتبصير تلاميذه بما أراد . ففيما كانوا ذات يوم في طريقهم إلى كفرناحوم ، احتدم بينهم النقاش حول من سيكون الأكبر بينهـــم . لقد كان بطرس يتمتع بمنزلة فريدة في جماعتهم الصغيرة ، ولكن ، بعـد ما كان من انتهار يسوع له ، ربمـا تغيرت المراتب ، وفتـح باب الترشيح . ويجري النقاش ، ويتحاشى يسوع متابعته او الولوج فيه .

« وجاءوا إلى كفرناحوم. وبعد ان استقروا في البيت سألهم : فيم كنتم تتباحثون في الطريق ؟ فلزموا الصمت ، لأنهم كانوا يتباحثون في الطريق فيمن هو الاعظم بينهم . فجلس ، وأدنى منه الاثني عشر ، وقال لهم : إن أراد احد ان يكون الاول ، فليكن آخر الكل وخادماً للكل . ثم أخذ صبياً وأقامه وسطهم واحتضنه ، وقال لهم : من قبل واحداً من هؤلاء الصبيان باسمي ، فإياي يقبل ، ومن قبلني ، فهو لا يقبلني انا ، بل الذي ارسلني . »

(مر ٩ : ٣٢ - ٣٦)

ان الطموح لهو من الدوافع الانسانية التي نادراً ما تخلو من الكبرياء والزهو والرغبة في التظاهر والتباهي . فلا عجب أن يستشعر التلاميذ شيئاً من الخجل لافتضاح أمرهم إذن فالمناسبة لا تعوض ، والتعليم سيكون وقعه في النفوس أقوى وأبقى . إن موقف يسوع صريح : فهو لا ينفي على المجتمع مراتبه ودرجاته ، ولم يقل شيئاً بالنسبة لبطرس ، فسوف يتبين لنا ان مكانته وسط الاثني عشر لم ينلها تغيير . والطموح ذاته لم يشجبه يسوع ، بل ربما حث عليه ، على شريطة ان ان يتخذ له ركيزة وهدفاً من القيم الصادقة الحقة . اما العظمة الحقة ، فعديلها لديه التواضع والخدمة ؛ والطفل الذي يبرزه في حلقتهم ، فليكن للطامحين تذكرة ورمزاً . وقد كتب الأب (لاجرانج) في هذا المعنى ، فقال : « ان الواجب يدعوهم إلى وضع أنفسهم في خدمة الطفل ، الذي هو رمز للتلاميذ ورمز للصغار ؛ أما جزاؤهم ، فهو في أنهم يخدمون المسيح والذي أرسله . »

ويعود يسوع إلى ذكر الأطفـــال أكثر من مرة ، ليقدمهم نموذجاً لتلاميذه ليحتذوا حذوهم ، منوهاً ببساطة نفوسهم التي تؤهلهم لتلقي الـكلمة وقبولها . إن الصغار ليحفلون بأقــل بادرة من عناية واهتمام ، لا يفكرون وهم بين البالغين في المراتب الاولى ليطمعوا فيها ، بل كثيراً ما يذهب بهم البذل والجود إلى مدى لا يبلغه اولئـــك الذين بلغوا واستقروا ، أو الذين قست عليهم الحياة ، فحطمت آمالهــم وجمدت عواطفهم . إلا أن هذه الروح لا شأن لهــا بالسذاجة البلهاء ، وسيجلو يسوع في أمثال كثيرة ، مدى القوة والشجاعة اللتين يود أن تتحلى بهما نفوس مريديه . ومهما يكن من أمر ، أليس صحيحاً أن من يتحلى بروح الفقر ، يحمل نفسية هي وروح الطفولة سواء ؟ إن الطفولة الروحية لتلتقي على صعيد واحد مع روح الفقر ، وإليها أشار يسوع عندما تفوه بالطوباوية الاولى .

« وقدموا إليه الاطفال ليضع عليهم الايدي . فلما رآهم التلاميذ : زجروهم ، وارادوا إبعادهم ؛ امـــا يسوع فدعاهم إليه وقال : دعوا الصغــار يأتون إلي ولا تمنعوهم ، لأن ملكوت الله لمن هو مثلهم . الحق أقول لـكم : إن من لا يقبل ملكوت الله مثل الطفل البريء لا يدخله . »

(لو ١٨ : ١٥ — ١٧)

هل من غرابة ، وهذا موقف يسوع من الصغار ، ان نراه يندد بشدة بالذين يصبحون لهؤلاء الاطفال، او للتلاميذ ، سبب عثرة وحجر

كبوة ؟ لم يحدث ان جنح يسوع الى قاسي الكلام، إلا في القليل النادر: لذلك ، فإن قسوة كلامه وشدة لهجته في هـــذا الظرف ، لتشهد على تقديره البالغ لنفوس الصغار ، وما تستوجبـه براءتهم من احـترام وعناية .

ومن قبل طفلاً مثل هذا باسمي ، فإياي يقبل . ومن تسبب في عثرة واحد من هؤلاء الصغار المؤمنين بي ، فأجدر به أن يعلق في عنقه حجر الرحى ، التي تسخر الحمير لإدارتها ، ثم يطرح في لجـة البحر . ويل للعالم لشراكه التي تتعثر بها النفوس. واذا كان لا محيد عن العثرة ، فالويل على كل حال لمن يتسبب في وقوعها . »

(متى ١٨ : ٥ — ٧)

ما هي العلة الحقيقية التي يستحق الصغار من اجلها مثل هـــذه الحفاوة البالغة ؟ العلة ان الطفل ، شأن التلميذ ايضاً ، يعيش في كنف الله ، وتحت بصره الذي لا تفوته فائتة .

« احذروا ان تزدروا أحـــد هؤلاء الصغار ! فإني اقول لكم إن ملائكتكم في السماوات يعاينون بلا إنقطاع وجه أبي الذي في السماوات. »

(متى ١٨ : ١٠)

وينتقل يسوع من فكرة الخدمة هذه الى الكلام عن الرحمة والصفح، وهو موضوع طرقه مراراً في هذه المرحلة من حياته . وسنحت الفرصة ليتناول موضوع التأديب الاخوي فقد يكون سلوك أحـــد افراد

الجماعة خطراً وقدوة سيئة للآخرين،مما يستوجب المؤاخذة والشجب. ولكن القسوة السابقة لأوانها ، قد تسد في وجه المذنب سبل الإصلاح. لذلك ، رسم يسوع خطة للتأديب ، شعارها الأناة والحكمة : فنلفت نظر المذنب إلى ذنبه أولاً ، ونعاتبه في رفق ، بعيداً عن أعين الناس . فإذا مـا انتصح وأصلح نفسه كانَ به ، وإلا وجب إعادة الكرة في حضور واحد أو اثنين من الإخوة ، ليشهدوا عليه فيما بعد، إذا ما فسد الامر . فإذا تمادى في غيه ، فما علينا حينئذ — وحينئذ فقط — الا ان نطرح الامر أمام جماعة الكنيسة . فإذا أبى وتمرد ، فلتفصله الجماعة فصلاً ، ولتقطع الاسباب بينها وبينه قطعاً . وفي هـذه المناسبه ، قال يسوع للاثني عشر ، مستعملاً صيغة الجمع ، وفي لهجة تفيد التوكيد والاهتمام :

« الحق أقول لكم ، إن كل ما ربطتموه على الارض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما حللتموه على الارض يكون محلولا في السماء . »

(متى ١٨ : ١٨)

لقد سبق ليسوع أن عيّن بطرس وكيلاً للكنيسة وهو الآن يجعل من باقي الاثني عشر رفاقاً له وشركاء .

ويردف يسوع على التو ، فيقول إن اتفاق ذويه ووئامهم ، سيستنزل بركة الله عليهم ؛ والجماعات التي يعيش افرادها بسلام ووحدة المشاعر، فإنه يعدها بمساندته،بل وبحضوره بين أفرادها حضوراً سرياً ،مؤكداً بذلك قيمة الوفاق الاخوي الصادق . وجاءت تعاليمه عن الصلاة

الجماعية ، التي يستجاب لها ، متممة لاقواله في عظة الجبل ، فيما يتعلق بالتصالح الذي لا بدّ من توفره بين الإخوة، قبل القيام بأي عمل ديني، لان دعاء النفوس المتحابة المتصافية هو وحده المستجاب لدى الله :

« وأقول لكم ايضاً : إذا اتفق اثنان منكم على الارض فيما يطلبونه من امر ، اياً كان ، فإن ذلك يمنح لهما، من قبل ابي الذي في السماوات، لانه كلما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي ، كنت أنا حاضراً بينهم . »

(متى ١٨ : ١٩ ، ٢٠)

اما المؤمن ، فاذا اسيء في حقه ، فليصفح عن المسيء قبل ان يستغفره ويترجاه ، حتى اذا كان ذلك « سبعين مرة سبع مرات » ، كما يقول يسوع ، ملمحاً إلى أنه لا ينبغي ان تكون ثمة حدود للسماحة والعفو . وإنه لمن العار علينا ، وقد تنازل الله عن فادح ديوننا ، ان نتمسك بالقليل التافه الذي يدين به الآخرون إلينا ؛ والله لا يغفر الذنوب لأولئك الذين يرفضون ان يصفحوا من الاعماق عن زلات إخوانهم .

وعلى مر الساعات والايام ، راح يسوع يتلمس الفرص العادية منها والطارئة ، ليواصل تربية تلاميذه ، ويطبع نفوسهم على هذه الروح التي كانت معالمها تتضح لبصيرتهم يوماً بعد يوم ، من زهد وإيثار ، وثقة تامة بالله ، واتكال كلي عليه ، وطيبة نفس صادقة ، تتجلى في البذل والتسامح والرحمة ، وربما كانت هذه الخصال الاخيرة ، أعني طيبة النفس وسماحة القلب التي تعبر عنها كلمة الرحمة ، من أخص

خصائص هذه الروح التي عمل يسوع على نشرها .

لقد انبعثت الرحمة نوراً ودفءاً تشع من كل اعمال يسوع كما شعت من اقواله ، وليس أدل على ذلك من تتبع تصرفاته مع المرضى ، ومع الجماهير والاطفال والتلاميذ : كلها تشهد بحنانه ورقة قلبه . وكان لا ينفي يتغنى برحمة الله اللامتناهية التي تفرض على الانسان وجوب التمثل بها ، اذا ما اراد ان ينال من الله رحمة وعفواً .

كل هذه الحقائق اراد يسوع ان يعالجها بطريقة الأمثال . هذه قصة الابن الشاطر ذات التأثير البالغ ، التي تقطر رحمة رقيقة طاهرة ، وهي مشهورة حتى لا يكاد أحد يجهلها ، في إطارها العام على الأقل ، وإن كانت تفاصيلها وحبكة لوحاتها لم تحظ بما تستحقه من النظرة المتروية المتأملة. لا شك في أن يسوع قد صدم مستمعيه حين عرض عليهم قصة هذا الأب الذي رضخ لنزوات ابنه ، إذ كيف يتصور أن يطالب ابن أباه بما يعود عليه من الميراث ، في مجتمع يعتبر سلطة الاب من دعائم كيانه ؟ ثم ما أروع المشاعر التي يتبادلها الاب والابن عند العودة والتلاقي ! إن هذا المثل يصف في الظاهر مشاعر اب تجاه ابنه العاق ثم التائب ، ولكنه في الحقيقة يوحي بموقف الله الابوي من الانسان : إن الله يحترم الحرية التي منحها الإنسان ، ولو تمادى هذا في إشباع نزواته إلى حد الضلال في طريق الإثم ، والتمرغ في حمأة الشر والفساد. ولكن ما أرق الحنان الذي يستقبل به الآيبين التائبين .. وكم من امرىء تصفح هذا المثل الخالد ، فقرأ فيه قصته ، وتبين صورته ، وهو رازح ، ينوء تحت كلكل الشر ، ثم وهو غارق في فيض حنان الله ودفء حبه

وامتنانه بعودة الذي كان ضالاً فوجد .

« رجل كان له ابنان ، فقال اصغرهما لابيه : يا ابت ، اعطني النصيب الذي يخصني من الميراث . وقسم الاب لكل منهما ماله . بعد ايام غير كثيرة، جمع الابن الاصغر كل ما له ورحل إلى بلد بعيد ، حيث بذر ماله ، عائشاً في الخلاعة والمجون . فلما أنفق كل ما لديه ، حدثت مجاعة شديدة في ذلك البلد ، فأصابه الجدب ونال منه الفقر وألجأته الحاجة إلى واحد من أهل ذلك البلد ، فأرسله إلى ارض له يرعى فيها الخنازير . وكان يشتهي ان يملأ بطنه من الخروب الذي كانت الخنازير تأكله ، ولم يعط منه شيء . فرجع إلى نفسه وقال : كم لأبي من أجراء يفضل الخبز لديهم ، وانا هنا أهلك جوعاً . اقوم وأمضي إلى ابي ، وأقول له : يا أبت ، قد أخطأت إلى السماء وإليك، ولست مستحقاً بعد أن أُدعى لك ابناً ، فأجعلني كأحد أجرائك . فقام وعاد إلى أبيه .

وفيما هو بعيد ، رآه أبوه ، فرق له قلبه ، وأسرع وألقى بنفسه على عنقه وقبله. فقال له الابن: يا أبت ، قد اخطأت إلى السماء واليك ، ولست مستحقاً بعد ان أُدعى لك ابناً . فقال الأب لعبيده : هاتوا الحلة الاولى وألبسوه إياها وإجعلوا في يده خاتماً وفي رجليه حذاء ، وآتوا بالعجل المسمن وانحروه ، فنأكل ونفرح . لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش ، وكان ضالاً فوجد . فطفقوا يفرحون . »

(لو ١٥ : ١١ — ٢٤)

وللمثل بقية ، قصد بها يسوع أولئك المتزمتين بصرامة الفضيلة ، فضيلة الممارسات التي تعوزها نبضات القلب وحرارة العاطفة ، تخفق للقريب بقدر ما هي خفاقة لله . على هذا الطراز من الناس ، كان الابن الأكبر ، فقد انتزعت فضيلته شأفة الرحمة من قلبه ، حتى انه لم يفطن إلى القحط الذي سوف يصيب أخاه التائب ، في جو الحياة العائلية السوي الرتيب الذي عاد اليه ، وكم سيكون في حاجة الى الدفء ، وإلى ندى القلوب كي لا يستسلم مرة أخرى إلى نزوة التمرد والى جموح الشهوات . لا بأس ، فان قلب الأب يتسع له ، كما لم يضق بأخيه ، وسيخرج إليه ، ويترفق في حديث طويل معه . وهل من كلمات أروع وأدلّ على المروءة والحنان من قول هذا الأب الشيخ لأبنه الأكبر :

« كان ينبغي أن نتنعم ونفرح ، لأن اخاك كان ميتاً فعاش ، وكان ضالاً فوجد . » (لو ١٥ : ٣٢)

وأورد يسوع تشبيهاً آخر ، عزز به المكانة التي يجب ان تنزلها الرحمة من قلوب تلاميذه . ذلك هو مثل الراعي الصالح ، الذي يترك وراءه التسعة والتسعين خروفاً من قطيعه ، ترعى في الخلاء ليطوف الجبال والوديان ، في سعي حثيث دائب عن الخروف الضال ، الى ان يعثر عليه :

« أي رجل منكم ، اذا كان له مائة خروف فأضاع واحداً منها ، لا يترك التسعة والتسعين ترعى في الخلاء ، ويمضي في طلب الضال حتى

يجده ؛ فاذا وجده ، يحمله على منكبيه فرحاً ،ويأتي الى بيته ، فيدعو الأصدقاء والجيران ، ويقول لهم :افرحوا معي ، فإني وجدت خروفي الضال . أقول لكم انه هكذا يكون فرح في السماء لخاطيء واحد يتوب ، اكثر مما يكون بتسعة وتسعين صديقاً لا يحتاجون الى توبة . »
(لو ١٥ : ٤ — ٧)

وفي مكان آخر شبه يسوع نفسه بالراعي الصالح ، « الذي يفدي خرافه بنفسه » .

ونلتقي هنا بشعور الفرح الذي يغمر سكان السماء، وكثيراً ما نلتقي به في الإنجيل ، فهو تارة الفرحة بلقاء المسيح ، وتارة أخرى ، وهي الأغلب ، فرحة الخلاص ، كتلك التي يبشر بها الملائكة عند مولد المسيح . أما في مثال الابن الشاطر والخروف الضال ، فهي الفرحة بالنجاة من الموت والهلاك .

أما رأفة يسوع فتجلت ، على أبهى صورها في بعض حوادث التوبة التي أعاد فيها بعض النساء العاهرات إلى سواء السبيل : كن موضع الاحتقار والتعيير والاهانة لسلوكهن الفاجر فمد لهن يد الشفقة وخفض لهن جناح الرحمة والحنان. ومشهد المرأة الزانية لهو من أشهر هذه الحوادث. قبض عليها متلبسة بالزنى، وأُتي بها إلى يسوع ، وكان قد قصد الهيكل مبكراً وجلس يعلم الشعب . إن الناموس يقضي برجمها، ولكن ما رأيه هو في الموضوع؟ وراح الكتبة والفريسيون يستجوبونه. القلوب قاسية، والعيون تلمع ببريق الشماتة من المرأة ، بل ومن يسوع . ويصمت

يسوع ، ويطرق إلى الارض ، عابثـاً بأصبعه في التراب ، لا يبالي ولا يحير جواباً .

ولما كثر الإلحاح واللغط ، انتصب قائماً وقال :

« من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ ويرمها بحجر . »

وانتابهم الذهول ، وأعماهم الضوء الذي ألقاه يسوع على ضمائرهم ، وكان فيها بقية من حياء ، بينما تركهم يسوع وضمائرهم ، وأكب يخط بأصبعه على الارض ثانيـة . ولما رفع عينيـه عن الارض ، كانوا قـد تسللوا بعيداً عن الميدان ، متوجسين من الفضيحة هاربين . فنظر إلى المرأة وقال لها في رفق ورأفة :

« وأنا ايضاً لا احكم عليك . اذهبي ولا تعودي تخطئين . »

(يو ٨ : ٢ — ١١)

الفصل العاشر

الطريق الى أورشليم

كل شيء يشير إلى أن الامور آخــــذة في الاستقرار . فالظروف مكنت الفئات الجليلية المختلفــة من كشف أوراقها ، باعلان رأيها في يسوع ، وليس ثمة ما يدعو إلى الظن أنهـا ستعدل عنه . بقي رئيس الربع هيرودس أنتيباس ، وبقي موقفه الذي يكتنفه الغموض .. ماذا عسى « هذا الثعلب » ، كما أسماه مرة يسوع، ان يفعل ؟ أليس من سبيل إلى الابتعاد عنه ؟ إن يسوع لا يميل إلى الاغتراب ، والرحلتان اللتـان قام بهما خارج فلسطين ، لم تطل مدتهما طويلاً . ومع ذلك ، نراه يحزم امره على مغادرة الجليل ، ولكن وجهته هذه المرة أورشليم . ولم تكن هذه اول مرة يقصد فيها المدينة المقدسة مع تلاميذه . لقد سبق ان ارتادها مراراً مع افواج الحجاج ، عمــلاً بأوامر الناموس ، بمناسبة الحفلات والاعياد. وكان له مع اليهود المحافظين هناك مناقشات حادة ، وقد وجد المعارضة فيها اقوى شوكة منها في القرى والارياف ، لأن ما تناولته من موضوعات كان اكثر حرجاً وأشد برسالته لصوقاً واندماجاً.

وقد خلفت هذه المناقشات في نفس يوحنا بن زبدى ، هذا الشاب النقي الذيل المرهف الحس ، انطباعات قوية ، فحفظها في قلبه ، وربما لم تترك أثراً عميقاً في اذهان رفاقه ، لنزعتهم العملية الواقعية ، فلم يولوها كبير اهتمام في رواياتهم .

إلا أن الصعود إلى اورشليم في الظروف الحالية كان بمثابة التحدي الصريح . لكن يسوع كان مصمماً عليه ، وقد شرح لتلاميذه سبب إقدامه عليه ، فتنبأ بما سيجري من امور هناك ، وادركوا ما سوف يترتب على هذا التصميم وعلى تلك الزيارة ، ما دامت تحدياً للمعارضة في عقر دارها . بيّن يسوع ذلك كله أثناء الرحلة . وقد لاحظ مرقس بالاستناد إلى ذكريات القديس بطرس الدقيقة الطريفة ، عن التلاميذ ، أنهم « كانوا في الطريق صاعدين إلى اورشليم ، وكان يسوع يتقدمهم ، وهم في ذهول يتبعونه متوجسين . » (مر ١٠ : ٣٢)

ان يسوع يعرف جيداً ما ينتظره ؛ ومع ذلك ، فهو يسير ثابتاً في الطريق ، منتصب القامة ، بارز الهيئة ، وسط الوادي ، وادي الاردن ، تكتنفه سلاسل الجبال المقفرة ، ويتبعه تلاميذه ، كما يتبع القطيع الراعي ، ولكن على بعد ، كأن ثقلاً ثقيلاً يوقر كواهلهم . وسوف نسمع واحداً منهم ، وهو توماس ديديموس ، ذلك الرجل الخشن ، المتشائم الصلب المراس ، يهيب برفاقه ، وهم على الصعدة الأخيرة المؤدية إلى اورشليم ، قائلاً :

« لنذهب نحن ايضاً ولنمت معه » (يو ١١ : ١٦)

إن الذين لم يكونوا على علم بالمأساة المقبلة ، ربما اعتبروها محاولة جديدة للتغلب على القدر . فإذا رفض يسوع أن ينادى به ملكاً ،وهو في الجليل ، لعله آثر ان يصل إلى اورشليم لينزل على رغبة الشعب ، ويستهل فيها عهده كمسيح الله المختار .وكانت هتافات الناس المرددة : « يا بن داود » ، تصل إلى مسامعه ، وهو يجتاز مدينة أريحا : وكان بين الهاتفين عميان ، توسلوا إليه أن يشفيهم . ولكن ، ألا تشهد هذه التسمية بأن العقول كانت على أحر من الجمر في انتظار المسيح الموعود؟ وإلا أكانت ستلجأ الى هذا النسب المميز له ؟

يبدو ان عدة شهور انقضت بين مغادرة يسوع لمقاطعة الجليل للمرة الأخيرة ، ووقوع المأساة التي انهت حياته في اورشليم ؛ كانت الجماعة الصغيرة تتجول في اثنائها متنقلة بين القرى . والذي ينبغي ان نلاحظه ، ان يسوع ، الذي كان في الفترة السابقة ، كما اسلفنا ، يحاول ان يتجنب الجماهير ، وينقطع إلى تعليم تلاميذه ، صار يترك الناس يأتون اليه ، بل ويعود إلى تعليم السائلين الراغبين ، منتهجاً ، كدأبه، أسلوب الامثال . وقد دعته مناسبات طارئة إلى تحديد معالم مذهبه ومتابعة تنشئة تلاميذه .

اما المناسبة الاولى ، فعرضت وهو في وادي الاردن ، عبر النهر . انها مناقشة ، أثارها أعداؤه حول سؤال بريء المظهر ، خداع المخبر ،

كأنه فخ منصوب . كان هدف معارضيه ايجاد الدليل القاطع على ان يسوع يناهض شريعة موسى ويستهين بها . ربما أملوا في ان يورط نفسه فيما يشتم منه هيرودس رائحة التنديد بحياته الزوجية غير الشرعية . وبما أن يسوع حرم الطلاق في عظة الجبل ، بالرغم من ان الناموس يحلله ، ففي الموضوع حقل خصيب لمناوراتهم : « هل يحل لرجل ان يطلق امرأته ؟ » . واحتدم الحوار ، وراح الفريسيون يذكرون تحليل الطلاق ، وواجب الرجل في منح مطلقته وثيقة طلاق قبل تسريحها . فأجابهم يسوع في حزم وسلطان :

« انه لأجل قساوة قلوبكم ، كتب لكم موسى هذه الوصية . ولكن في بدأ الخليقة ، ذكراً وأنثى خلقهم الله . لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ، فيصيران جسداً واحداً . فليس هما اثنين بعد ، ولكنهما جسد واحد . وما جمعه الله لا يفرقه إنسان . »

(مر ١٠ : ٥ ـ ٩)

الإجابة واضحة : إن العلاقة الزوجية تقوم على تبادل العهود والالتزامات بين الزوجين، وليست تملّك واحد منهما للآخر ، بل هي وحدة سامية أرادها الله . وبذلك يرفع المسيح القضية إلى اصلها الطبيعي ، إلى بدء الخليقة ، حيث لم يوجد سوى رجل واحد وامرأة واحدة . وبذلك ، دعم مبدأ وحدة الزوجة ، واستحالة فصم عرى الزواج . وعندما خلا يسوع بتلاميذه ، وراحوا يستزيدونه شرحاً

وتفسيراً ، أعلن في جوابه لهم :

« من طلق امرأته وتزوج أخرى فقد زنى عليها . وإن طلّقت امرأة رجلها وتزوجت آخر فقد زنت . » (مر ١٠ : ١١ — ١٢)

إن يسوع بقوله « زنى عليها » ، اي على الزوجة الأولى ، إنما يقرر حقها في أن تكون الزوجة الوحيدة. هذه هي طبيعة رابطة الزوجية : إذا ما اقترن أحد الزوجين بثالث ، فإنه يصبح زانياً في حق القرين الشرعي ، وعلى ذلك ، فالطلاق لا يأتي بجديد في الأمر ، كما يؤكد يسوع ذلك . وتحريم الطلاق هذا يفترض ضمناً ، القضاء على تعدد الزوجات . ويفترض شيئاً آخر ، يفترض الاعتراف بكرامة الزواج وسموه . إن من لوازم الروح الجديدة التي دعا إليها الملكوت التضحية في هذا الميدان ، وضبط النفس : ذلك ما أعلنه يسوع من قبل ، حين أكد أنه خير للمرء ان يقتلع له عيناً أو يبتر يداً ، إذا ما كانتا له سبب عثرة وأداة فساد ، ولا يطرح بسببهما في جهنم الأبدية . ولكن الآراء السائدة عن الزواج آنذاك ، ملكت على التلاميذ أمرهم ، فدهشوا لهذا التزمت الجديد، ولم يروا في كلام يسوع إلا إنكاراً لحق الرجل في تقرير مصير المرأة وفق هواه . لقد وقف يسوع سداً في وجه الاستهتار العاطفي الذي يريد أن يفرض نزواته على المرأة في هذا الميدان الخطير. إلى أي مدى أدرك التلاميذ أن روح المحبة التي جاء بها الإنجيل أولى من روح الأثرة التي جاءت بها الفطرة، وافصحت عنها الشهوات؟إلا انهم ،

مهما بلغ إدراكهم من مـــدى ، لم يتمالكوا أنفسهم عندئذ ، واندفعوا يقولون : « إذا كان هذا هو شأن الرجــل تجاه المرأة ، فأحرى به ألا يتزوج . » فأجابهم يسوع : « لا يطيق هــذا الكلام كل إنسان ؛ إلا الذين وهب الله لهم أن يطيقوه . لأن من الخصيان من ولدوا كذلك من بطون أُمهاتهم ، ومنهم من خصاهم الناس ، ومنهم من خصوا أنفسهم من اجل ملكوت السماوات . فمن استطاع أن يحتمل فليحتمل . »

(متى ١٩ : ١٠ — ١٢)

لم ينكر يسوع أن الحياة الزوجية هي الحــالة الطبيعية للإنسان ، ولكنه أبى أن يعترف بهذه الحتمية الصارمة التي فرضتها على تصورات الناس للزواج حضارة منغمسة إلى آذانها في الجنس وموضوعاته وعقده. وكما أن بعض الناس تلجئهم الظروف إلى الامتناع نهائياً أو بصفة وقتية عن ممارسة هذا النشاط، فكذلك قد تكون العفة من مطالب ملكوت السماوات . هذا هو ما يبرر البتولية الاختيارية ، لا تلك التي هي ثمرة الانانية والخوف من المسؤوليات ، بل العفة الحقــة التي تستهدف خدمة افضل في ظل الملكوت .

لم تترك اقوال يسوع في الزواج مجالا للبس او فرصة لخلاف، إلا في عبارة واحدة ، غمضت فاختلفت حولها الآراء ، وهي قوله :

« وأنا أقول لكم من طلق امرأته إلا لعلة زنى ، وأخـــذ أخرى فقد زنى . »

(متى ١٩ : ٩)

لا وجود لهذه الجملة الاعتراضية الخاصة بالطلاق في روايتي مرقس ولوقا : فتحريم يسوع للطلاق في نصيهما عام لا استثناء فيه . كيف يفسّر إذن هذا النص الذي انفرد بروايته البشير متى ؟ كثير من الناس يعتبرونه كأنه تحليل للطلاق في حالة زنى القرين، وبالتالي تحليل للزواج الثاني . اما الكنيسة الكاثوليكية ، فإنها تفسّر الجملة الاعتراضية تفسيراً مغايراً ، مستندة في تفسيرها إلى شواهد وروايات عريقة، غاية في القدم إنها تفهمها على ان يسوع أراد أن يقول إن حالة الزنى تتطلب حلاً آخر : التخلية والفراق ، دون الزواج الثاني . ففي زمن يسوع كانت الشريعة الموسوية تعاقب الزنى بالموت : ولم يكن الزواج الثاني في حالة الزنى بموضوع ذي بال . وقد لاحظ بعض المفسرين من أمثال الأب لاجرانج ، على اسلوب القديس متى ، ان الجملة الاعتراضية : « إلا لعلة زنى» ، موضوعة بين حكمين يجري احدهما على التخلية والآخر على الزواج الثاني ، فإنه يبدو أنها لا تتعلق إلا بالحكم الاول ، أي التخلية، وهي مباحة في حالة الزنى ، ولا تتعلق بالحكم الذي يليها ، أي بالزواج الثاني ، فهو محرم تحريماً لا استثناء فيه ، لأن الزواج الاول باق دون فصم ولا فسخ . وعلى ضوء هذا التفسير ، يكون نص البشير متى متفقاً تماماً ونص مرقس ولوقا .

ومرة أُخرى تتيح المناسبات ليسوع فرصة جديدة للتحدث عن المال . فبينما كان ذات يوم يلاطف صبية صغاراً ، اذا رجل يهرع إليه مستفسراً عما ينبغي ان يفعل لينال الحياة الابدية . تأثر الشاب بطيبة

يسوع وهو يلاطف الأطفال ويداعبهم ، فناداه مجاملاً : « أيها المعلم الطيب » . ولم يكن من يسوع إلا أن قاطعه بقوله : « لماذا تدعوني طيباً ؟ إنه لا طيب إلا الله وحده » . وقد كثرت التعليقات على هذا الجواب بين الذين تخيلوا في كلمات يسوع تلميحات تفيد الموافقة والإقرار، وأخرى النعي والتنديد. ربما لم تكن هذه الكلمات أكثر من رد مؤدب على مديح متكلف ، تفادياً من التعرض لصلب السؤال ، إذ أن تصنع الشاب باد ، في حين تناول سؤاله موضوعاً بالغ الأهمية . ما العمل لنيل الحياة الأبدية؟حسناً، لتحفظ الوصايا! وراح يسوع يعدد لسائله الوصايا العشر ، مقتصراً على تلك التي تنظم علاقة الإنسان بقريبه ، دون الأخرى الخاصة بعبادة الله . ويجيب الرجل بأنه ما زال لها حافظاً منذ صباه .

« فنظر إليه يسوع ، وأحبه ، ثم قال له : واحدة تنقصك : اذهب وبع كل ما لك ، وأعطه للمساكين ، فيكون لك كنز في السماء ، وتعال اتبعني . فوجم الشاب لهذا الكلام ، ومضى حزيناً ، لأنه كان ذا مال كثير . » (مر ١٠ : ٢١ ، ٢٢)

ما كان خطر المال ليظهر بأفصح بيان! لم يكن الرجل حراً طليقاً، فما الفائدة من دعوته إلى الانخراط في سلك الكمال ، ما دام عاجزاً عن تلبية هذه الدعوة ؟ ولشدة إدراكه لما للمال من سحر وإغراء ، أردف يسوع في قوة وإلحاح ، غير مبال بالاعتقاد السائد بين تلاميذه من أن

الثراء بركة من الله وعلامة على رضاه ، فقال :

« ما اشق دخول ملكوت الله لذوي الثراء والغنى ! فذهل التلاميذ لكلامه . غير أن يسوع أردف قائلا : يا أبنائي، ما أعسر الدخول في ملكوت الله . إنه لأسهل على الجمل أن يجتاز ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت الله . فازدادوا دهشة وأخــذوا يقولون فيما بينهم : من يستطيع إذن إدراك الخلاص؟ فنظر إليهم يسوع وقال: بالنسبة للناس هذا مستحيل ، لا بالنسبة لله : لأن الله على كل شيء قدير . »

(مر ١٠ : ٢٣ — ٢٧)

هذا إعلان صريح : لا يستطيع الإنسان بمحض قدرتــه تحقيق الخلاص لنفسه ، فالخلاص وقف على نعمة الله وحــده . وفطن بطرس عندئذ إلى أن الاثني عشر قد تركوا كل شيء ليلبوا دعوة يسوع ، فسأله ماذا يكون جزاؤهم ؟ فأجابهم يسوع قائلاً إن ثوابهم على الأرض سيبلغ مائة ضعف ما ضحوا بــه ، وفوق ذلك سيعانون الاضطهاد ، غير أنهم سينالون في الآخرة الحياة الأبدية .

هذه الموضوعات كلها ، سواء المــال ، أو الزواج ، أو جزاء الزهد والتجرد، لقد طرقها يسوع من قبل . ولكن، ما دام الإنسان يتصرف بدافع من شهوات وميول هي هي لا تتغير، فلا غرابة أن يضطر يسوع إلى طرقها مراراً ، وإلى توسيع نطاق القول فيــها ، بحكم ملازمته للناس ومعاشرته للجماهير .

ومثل ذلك يقال فيما يتعلق بالطمع وبمراتب الشرف . لقد أثبت يسوع أن مراتب الملكوت ستسفر عن مفاجآت لا يستطيع أحد التنبؤ بها، وأن منزلة كل واحد سوف تكون مغايرة لما قد يظن مسبقاً:

« كثيرون من الأولين يكونون آخرين ، ومن الآخرين اولين . »

(مر ١٠ : ٣١)

هذه القضية أوضحها يسوع في عدة امثال ، لا يتسع المجال لعرضها بالتفصيل ،فضلاً عن التبسط في التعليق عليها . يرسم أحد هذه الامثال صورة الغني القاسي القلب ، الذي يطرح في جهنم ، في حين ينقل الملائكة إلى احضان ابراهيم لعازر الفقير ، الذي طال به الاستجداء على باب الغني . ومثال آخر يروي مشهداً من حياة العمال ، في أعقاب يوم من أيام العمل في الحقول ، وقد أمر صاحب العمل بأن يعطى العمال الذين استؤجروا في ساعات النهار الاخيرة مثل الأولين : فأثبت المثل انه ليس من حق الاولين ان يثوروا ويعترضوا ، اذا ما شاء صاحب العمل ، بدافع من الشفقة والرحمة ، ان يمنح الذين لم يعملوا إلا ساعة واحدة مثلما أعطاهم . وفي مثل ثالث ، يشير يسوع إلى انه لا ينبغي التكالب على مجالس الشرف في الولائم ، وعلى موائد الدعوات على الطعام ، بل ليبق المدعوون بعيدين عنها ،في أدب وتواضع : ربما دعاهم اصحاب الوليمة إلى التقدم إلى الأمام ؛ وعلى كل ، فانهم يتفادون الحرج والخجل ، فيما لو طلب إليهم أن يخلوا مقعدهم لضيف أرفع منهم مقاماً

وأعظم قدراً . وهذه الروح ذاتها تتجلى في وصية يسوع لتلاميذه بعدم التكالب على ألقاب الشرف او لقب السيد والمعلم ، وبألا يدعوا احداً أباً . ولنلاحظ ما اتصف به أسلوب يسوع من صريح المبالغة ، التي ترمي إلى شحذ الخيال وإثارة الاهتمام ، ولا يقصد منها التطبيق الحرفي الضيق ، اذ أننا ما زلنا ندعو بلقب الأب ذلك الذي أنجبنا . ولكن لا ينبغي ان نتذرع بهذه الملاحظة للاستهانة بوصية يسوع . ان الإنجيل ليقدر قدر كل سلطان يصدر من الله ، لأن روح الإنجيل تتصف بالبساطة والحرية والانشراح ، وهي على نقيض المطامع الدنيئة ومشاكل التشريفات والرتب .

وهدف يسوع من كل هذه التعاليم ، إقناع التلاميذ بضرورة التواضع ، وبوجوب التحلي بما كان يسميه الفقر الروحي . ان النعمة هي كل شيء في ملكوت الله ، وليس مثل النفوس المتواضعة ، تفتحاً لها وقابلية لتأثيرها . أما المتكبرون المزهوون بأنفسهم ، المعتدّون بها ، فإنهم عميان ، أنفسهم يجهلون ، وعيوبهم لا يبصرون ؛ فموقفهم من الله والناس زائف ، قائم على الجهالة والغباء .

« وقال هذا المثل لقوم كانوا يعتدّون بأنفسهم بأنهم أبرار صالحون ، ويحتقرون الناس . رجلان صعدا الى الهيكل ليصليا ، أحدهما فريسي ، والآخر عشار . أما الفريسي ، فانتصب واقفاً يصلي في نفسه ويقول : أللهم ، اني لست كسائر الناس الخطأة الظالمين الفاسقين ، ولا مثل هذا العشار : فإني أصوم في الاسبوع مرتين ، وأعشر كل ما أملك .. وأما

العشار ، فوقف على بعد ، ولم يجرؤ على رفع عينيه الى السماء ، بل كان يقرع صدره قائلاً : أللهم ارحمني ، أنا الخاطيء . أقول لكم ان هذا نزل إلى بيته مبروراً دون الآخر ، لأن كل من رفع نفسه اتضع ، ومن أذل نفسه ارتفع . » (لوقا ١٨ : ٩ – ١٤)

ما أقساه مثلاً يلهب كبرياء الفريسيين ، هم الذين يعتبرون أنفسهم الصفوة الدينية الممتازة ، وسط شعب إسرائيل ! ويضرب لهم يسوع مثلاً آخر ، ينوه فيه بجود رجل سامري والسامريون هم سكان مقاطعة السامرة ، الخارجون على عقيدة الجماعة ، المرذولون بسبب هجنتهم واختلاط دمائهم . وفي مقابل كرم السامري، يرسم المثل صورة للجفاء قاتمة ، برزت في شخص كاهن ولاوي : رجل سطا عليه اللصرص في برية اليهودية ، وتركوه مثخناً بالجروح ، بعد أن جردوه من كل ما له . ويمر به كاهن ، ثم لاويّ ، ولا يعبآن به ، ولم يكن إلا هذا السامري الذي رآه ، فتحنن عليه ورثى لحاله وأسعفه ، ثم عنى بعلاجه . العبرة لا تحتاج إلى تأويل : الإنسان أخ لكل فرد من أبناء جنسه ، ولو كانوا أعداء لوطنه ؛ فالتصنيف الاجتماعي والسياسي الذي يفرق بين الناس، لا دخل له في قيمة الإنسان الدينية والخلقية . والمثل يندد بإعراض المتدينين وأهل الفضيلة والخير ، وتجاهلهم أبسط مقتضيات النجدة والمروءة ، بدافع من الأثرة والرضى عن النفس ، أو بواعز من غريزة الاستعلاء .

واصلت فرقة التلاميذ سيرها صوب الجنوب . ويختلي يسوع مرة أخرى بالاثني عشر ، ليحدثهم عن أورشليم، وعن المصير الذي ينتظره

هناك ، والآلام التي سيعانيها ، ثم عن مجد القيامة الذي سيعقب هذه المأساة . وينصت التلاميذ ، وكانهم لا يعون ماذا يسمعون .. وما كان أحوج يسوع إلى اصطناع الصبر وطول البال ، لينفذ إلى قلوبهم ! فبينما هو منهمك في شرح أدق الأمور وأخطرها ، إذا اثنان منهم يعترضان حديثه بسؤال، مصدره الأنانية ومرماه أغراض تتنافى وروح الإنجيل. السائلان هما يعقوب ويوحنا ، ابنا زبدى ، وهما مع بطرس أصفياء يسوع الثلاثة المخلصين ، وكانت امهم ، مع بعض النساء الصالحات ، تنتقل مع جماعة التلاميذ ، كما تنص على ذلك رواية القديس لوقا . هل ابتدرا يسوع بالأمر ، أم هي أمهما التي قامت بدور الوسيط بينهما وبين يسوع ؟ مهما يكن من أمر ، فإنهما عند سماع حديث يسوع عن آلامه وقيامته ، لم يفطنا إلا لشيء واحد : الملكوت قد أوشك أن يتحقق ، بل إنه على قاب قوسين أو أدنى من بلوغ غايته ، ومن ثم أصبح لزاماً عليهما أن يسعيا ليضمنا المراتب الرفيعة فيه ، قبل أن يزاحمهما مزاحم . فتنحوا بيسوع ، تصحبهما أمهما، ورجياه أن يعطيهما العهد والميثاق على أن يخصهما بأسمى المراتب . فيجلسهما الواحد على يمينه ، والثاني على يساره في الملكوت . أما هو فأجابهما بسؤال: هل يستطيعان أن يخوضا الشدائد والآلام ، كما هو مزمع أن يفعل ؟ فأجاباه أن نعم.. غير أنه لم يستجب لطلبهما :

« أما جلوسكما على يميني ويساري ، فليس لي أن أعطيه ، إلا للذين أُعد لهم من قبل أبي.» (متى ٢٠ : ٢٣) وبلغ الحوار مسامع العشرة: فسخطوا ، وغضبوا ، وثاروا . وكأني بهم ينسون في مثل هذه العجالة

تعاليم الأسابيع السابقة ، وما قاله لهم عن العظة الحقة ؟ لا بأس ، سيكرر يسوع الدرس :

« قد علمتم أن زعماء الامم يسودونها، وعظماءها يتسلطون عليها : أما أنتم ، فلا يكن الأمر بينكم على هذا المنوال ، ولكن من أراد أن يكون فيكم كبيراً ، فليكن لكم خادماً ، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً ، فليكن لكم عبداً . » (متى ٢٠ : ٢٥ — ٢٧)

واستطرد يسوع معبراً في عبارة موجزة عن صميم رسالته ، مشيراً الى نفسه بلقب ابن الانسان . ولنلحظ على لسانه كلمة « الفداء » التي تدل على انه يطابق بين شخصه وشخص عبد الله المتألم ، كما وصفه أشعيا في نبؤته . وكلمة أخرى تسترعي الانتباه هي « جموع كثيرة » ما عسى ان تكون هذه الجموع ؟ أليست جماعة بني الانسان التي كان قد وصفها بانها شريرة (متى ٧ : ١١) ، ثم أسماها في مكان آخر « بالجيل الشرير الفاسق (متى ١٦ : ٤) ، « وبالجيل غير المؤمن الأعوج » (متى ١٧ : ١٧) ، العاجز عن إدراك الخلاص بذاته (متى ١٩ : ٢٦) ، المفتقر إلى مخلص يفديه ... هذا هو نص الكلام الذي أضافه يسوع .

« ان ابن البشر لم يأت ليُخدَم بل ليَخدِم ، وليبذل نفسه فداءعن جموع كثيرة . » (متى ٢٠ : ٢٨)

وما دامت العظمة الحقيقية تكمن في الخدمة ، فان العمل الذي

كان مزمعاً أن ينجزه في أورشليم سيحمل طابع هذه العظمة ، طابع الخدمة .

***

لم يعد يسوع غريباً مجهولاً في اورشليم . ولكن شخصه كان يحير أولي الألباب ، فيتساءلون : من يا ترى يكون ؟ أما في الجليل ، فإن معجزاته ، ثم موقفه من شريعة السبت او الطلاق او قانون العين بالعين أو الطهر الشرعي ، كان كل ذلك قد أثار دهشة ، ما لبثت ان تحولت الى قلق . باسم من يا ترى كان يفعل كل ذلك ؟ ما هو هـذا السلطان الذي يخول له ان يسلك هذا المسلك ؟ إن الوداعة والتواضع كانتـا تشعان من شخصه ، فانه كان يؤكد أنه جاء للناس منقـذاً ومخلصاً ، وان له القدرة على أن يفتح أبواب السماء يوم الدين او يغلقها بكلمته . ألم يعلن ، وهو عند قيصرية فيليبس ، متحـدثاً عن نفسه تحت لقب ابن البشر :

« ... لأن ابن البشر مزمع ان يأتي في مجـد أبيه مع ملائكته ، وحينئذ يجازى كل واحد بحسب اعماله . » (متى ١٦ : ٢٧)

وأيضاً :

« لأن من يستحي بي وبكلامي في هـذا الجيل الفاسق الخاطيء ، يستحي به ابن البشر عند مجيئه في مجد أبيه ، مع ملائكته القديسين. » (مر ٨ : ٣٨)

والمهمة الخلاصية ذاتها ، التي أسندهـا إلى بطرس والاثني عشر ، وما لزمها من قدرة على الربط والحل ، كانت أمراً عجيباً لا يبلغـه التصور . فمن هـو ، يا ترى ، ذلك الذي يجرؤ على التفوه بمثل هـذه التصريحات ؟

ولم يكن تصرفه في أورشليم عندما صعد اليها من قبـل ، بأقل غرابة منه في مقاطعـة الجليل : ألم يقم بطرد الباعة من الهيكل ؟ ألم يبرىء بعض المرضى يوم السبت ؟ فكيف لا يصدّم المحافظين ، ويثير مخاوف العقائديين التقليديين ؟ وللمرة الثانية ، يقتحم يسوع حصنهم ، وينازل العلماء في حلقات تعليمهم : فلا غرو ان يحمى الوطيس ويكون اكثر من معارك الجليل احتدامـاً وضراماً . ثم إن يسوع اختار اورشليم ليكشف عن سره ويميط اللثام عن شخصيته . انه يكرر من جديد ، وفي أشد المواقف خطورة ، انه هو المسيح .

وفي اورشليم ايضاً ، عاد يسوع الى وصف العلاقة التي تربطه بالله ، فتناول بالتفصيل التصريحات التي أدلى بها في الجليل ، حسب روايات الاناجيل المتقابلة ، عن الله الذي يسمو عن ان يدرك الانسان كنهه ؛ ويستدل من صدى أقواله على مستمعيه ، وفق ما جاء في رواية القديس يوحنا ، مدى ما بلغه كلامه من خطورة في أعينهم . لأن مطالبته لم تقتصر على لقب المسيح وكفى ، بل قال إنه ابن الله ، لا مجازاً او تشبيهاً ، كما هي الحال عندما نقول ان جميع الناس هم ابنـاء الله ، ولكن في معنى آخر بالغ القوة ، فريد في نوعه ، لا يسع مخلوقاً ان يطلقـه على نفسه .

هذه الإقرارات التي نقلتها إلينا روايات الانجيل الاربع ، يجب ان نبحثها ملياً ، قبل الخوض في دراسة الازمة الاخيرة التي تصدى فيها يسوع لسلطات اورشليم الدينية والمدنية .

لاجدال في أن جواً من التوتر ساد الاوساط الرسمية في اورشليم بسبب يسوع ، بدليل أن نيكوديموس ، وهو عضر المحفل الذي كان يميل إلى يسوع ، ظل وحيداً لم يشاركه أحد في رأيه ، ولم يجرؤ على مقابلة يسوع إلا ليلاً . كثيرون غيره آثروا الحيطة والتحفظ ، مرجئين حكمهم فيه ، مسوفين، في حين وقف منه غيرهم موقفاً عدائياً صريحاً، وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن من بين ما نعاه الفريسيون على جماعة التلاميذ وسائر المنحازين إلى يسوع ، أنهم من عامة الشعب السذج ، القليلي الدراية بدقائق الناموس .

« هل أحد من الرؤساء ، او من الفريسيين آمن به ؟ فما عدا هؤلاء الجموع الذين لا يعرفون الناموس . ألا إنهم لملعونون . »

(يو ٧ : ٤٨ — ٤٩)

ولم يكلف المعارضون أنفسهم عناء التحري عن مولد المسيح في بيت لحم ، ولا عن نسبه الذي يرتقي به إلى داود ، بل تظاهروا باليقين والثبات ، مستهينين بالجليليين ، شأن أهل العواصم مع سكان الأقاليم . هذا ما يفسر قولهم لنيكوديموس :

« ابحث في الكتاب ، واعلم أنه لم يقم نبي من الجليل . »

(متى ٧ : ٥٢)

في شتاء سنة ٢٩ ـ ٣٠ ، اشتدت شوكة المعارضة وقوي عودها :
« كان اليهود قد تواعدوا على إقصاء كل من يعترف بيسوع مسيحاً من مجامعهم . » (يو ٩ : ٢٢)

ولكن الانصاف يوجب علينا القول بان يسوع ، وقد ضاق ذرعاً بغطرستهم ،جابههم بكلمات قاسية جارحة، دمغ بها كبرياءهم وأثرتهم. فقال يوماً لعلماء الناموس ، الذين برعوا في البحث والتنقيب في الكتاب المقدس ، ولكنهم رفضوا الايمان به :

« غير أنني عرفتكم جيداً ، وأعلم ان محبة الله غير ساكنة فيكم . » (يو ٥ : ٤٢)

ومرة اخرى قال :

« أليس موسى هو الذي أعطاكم الناموس ؟ وما أحد منكم يعمل بالناموس . » (يو ٧ : ١٩) وحذرهم من الموت في خطاياهم ، إذا هم أصروا على عدم الايمان به (يو ٨ : ٢٤) . غير ان اقسى ما واجههم به يسوع قد يكون قوله :

« لو كنتم عمياناً ، لما كانت لكم خطيئة ، ولكنكم إذ تقولون نحن مبصرون ، فقد ثبتت خطيئتكم . » (يو ٩ : ٤١)

ولكننا نقع في خطأ فادح إذا ما نسبنا عداء الأوساط الدينية ليسوع إلى رغبة في الثأر دنيئة ، أو إلى مجرد حقد وكراهية ، أساسها

تناقض الآراء في مسائل اللاهوت . لا شك أن المعارضة قامت للدفاع عن حقوق الله وشرفـــه ، ضد شخص بدت تصريحاته وكأنها نتاج الهوس والجنون .

« وقال كثير منهم إن به شيطاناً ، وقد جن . » (يو ١٠:٢٠)

ولكن كيف يحسب مجنوناً من كان مثـله آية في الاتزان والتروي والرحمة ؟ وليس أقوى من حياة يسوع شاهداً على بطلان هـذا الزعم وفساده . فلم يبق أمام الذين رفضوا الإيمان ، سوى قذف يسوع بتهمة التجديف على الله . وقد وجدوا الفرصة لذلك ، عندما سمعوه يحدثهم عن نوع العلاقة التي تربط بينه وبين الله .

وكان شفاء المخلع الملقى عند بركة الغنم في أورشليم ، وقد تم في يوم سبت ، بمثابة الشرارة الأولى التي أضرمت النار . ولكن يسوع دافع عن نفسه لإبطال تهمة الاعتداء على حرمة السبت ، متذرعاً بمثل أبيه ، ولم يفت أعداءه مغزى قوله ، مما زادهم عداء وسخطاً. فكانوا يقولون: « إنه يدعو الله ذاته أباً له ، جاعـلاً نفسه مساوياًلله » (يو ٥ : ١٨) فأجابهم يسوع متحدثاً عن علاقته بأبيه السماوي ، قائلاً إنــه لا يعمل شيئاً من تلقاء نفسه ، ولكنه يقوم بالأعمال ذاتها التي يعملها أبوه . وفيما يلي نص كلامه ، وفيـــه نلمس الإشارة إلى رابطة المحبة التي توثق بينه وبين ابيه :

« الحق أقول لكم ،

إن الابن لا يقدر أن يعمل من نفسه شيئاً

إلا ما يرى الآب يعمله :

فالذي يفعله الآب

يفعله الابن على مثاله .

لأن الآب يحب الابن ،

ويريه جميع ما يفعل ،

وسيريه أعظم من هذه الأعمال ،

وأنتم ستتعجبون لذلك .

فكما أن الآب يقيم الموتى ،

ويعيدهم إلى الحياة ،

كذلك الابن يحيي من يشاء .

لأن الآب لا يحكم على أحد ،

بل أعطى الحكم كله للابن ،

ليكرم الابن جميع الناس ،

كما يكرمون الآب .

ومن لا يكرم الابن ،

لا يكرم الآب الذي أرسله . »   (يو ٥ : ١٩ — ٢٣)

ولقد أعطاه الآب الحـــكم ، فهو يتصرف في الحياة كما يفعل أبوه السماوي :

« الحق الحق أقول لكم ، إنها تأتي ساعة ، وهي الآن حاضرة ،

يسمع فيها الأموات صوت ابن الله ،

والذين سيسمعونه يحيون .

فكما أن الآب له الحياة في ذاته ،

كذلك اعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته ،

وجعله الديان الأعلى،

بما أنه ابن البشر . »   (يو ٥ : ٢٥ — ٢٧)

هـــذه التصريحات لا تشير إلى موضوع تحويل السلطات إلى الابن فحسب ، بل إلى التكريم الّذي يجب ان يناله الابن. ولا خلاف في أن مطالبة يسوع بأن يكرم كما يكرم الآب مطالبة فذة، بل فظيعة، ما لم تكن شخصية يسوع تخفي سراً رهيباً لم يرفع النقاب عنه بعد .

ومن بين الافكار التي عرضها يسوع في أورشليم ، والتي كان قد

تناولها في أحاديثه وهو في الجليل ، ان احداً لا يعرف الآب إلا هو ؛ هذا مــا قاله في خريف سنة ٢٩ :

« انكم لا تعرفونني أنا ، ولا أبي .

ولو كنتم تعرفونني ، لعرفتم ايضاً أبي . (يو ٨ : ١٩)

« لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني ،

لأني من الله خرجت ومنه أتيت . » (يو ٨ : ٤٢)

وتغافل المسئولون عن العقيدة الرسمية هذا الموضــــوع آنذاك ، فصبروا وتربصوا . ولكن ، عندما قال لهم يسوع إنه موجود قبـل مولده بحسب الجسد،عندما وضع نفسه فوق الزمان ، زاعماً أنه سابق في الوجود لإبراهيم ، عندما لجأ إلى العبارة : « أنا كائن » ، وهي ذات القوة البالغة لما تتضمنه من تلميح إلى العبارة العبرية التي أشار بها الله الى ذاته ، وهو يخاطب موسى في العهد القديم ، عندئذ طفح الكيـــل ، فهمّوا برجمه . ولا يخفى ما في انفعالهم هذا من برهان ساطع على قوة إقرارات يسوع : فانه كان يطمح بنفسه إلى مرتبة أسمى من أن تبلغها الخلائق . وكانت شريعة موسى تعاقب التجديف بالموت ...

« فقال لهم يسوع :

الحق الحق أقول لكم ، قبل ان يكون ابراهيم ،

أنا كائن .

فأخذوا حجارة ليرجموه ، لكنه توارى وخرج من الهيكل . »

(يو ٨ : ٥٨ — ٥٩)

وفي أورشليم أيضاً ، أعلن يسوع أنه هو الراعي الصالح ، وواصل حديثه عن الله ، داعياً إياه أبا له :

« أنا الراعي الصالح ،

وأعرف خاصتي وخاصتي تعرفني ،

كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب ،

وأبذل نفسي عن خرافي .

ولي خراف أُخرى ليست من هذه الحظيرة ،

ينبغي ان آتي بها ايضاً ،

وستسمع صوتي ،

وتكون رعية واحدة وراع واحد . » (يو ١٠ : ١٤ — ١٦)

وفي شتاء ٢٩ — ٣٠ ، بلغ الخلاف حد الحرج ودخلت المناوشة في دور التأزم . كان يسوع قد صعد إلى الهيكل ليحتفل بعيد التجديد . وكان الجو بارداً ،فصار الجميع يتمشون في رواق سليمان،طلباً للتدفئة. واحتدم الجدال بين يسوع ومعارضيه ، إلى أنهم ابتدروه طالبين ان

يقول لهم من هو. لم يجبهم يسوع إلى ما أرادوا مباشرة : لقد كان ضوء الحقيقة فوق ما تطيقه أعينهم ، ومع ذلك كان جوابه خليقاً بتمهيد السبيل وتهيئة النفوس إلى الفهم والإدراك :

« إن خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها وهي تتبعني ،

وأنا أعطيها الحياة الأبدية ،

فلا تهلك إلى الأبد ،

ولا يخطفها أحد من يدي .

إن الآب الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل ،

فلا يقدر أحد أن يخطف شيئاً من يد الآب .

أنا والآب واحد . » (يو ١٠ : ٢٧ — ٣٠)

وفي هذه المرة ، كما في سابقتها في خريف سنة ٢٩ ، تثور ثائرة اليهود ، وتتملكهم سورة من الغضب والاستنكار ، « فتناولوا حجارة ليرجموه » ، معلنين بملء أفواههم العلة التي من أجلها يريدون قتله : «للتجديف، ولأنك تجعل نفسك إلها، وأنت إنسان ». وعلا الصخب وارتفع الضجيج ، بينما أردف يسوع ، متذرعاً بأسلوبهم الجدلي ،كلاما لم يفهموا معناه ومغزاه ، كما أن القراءة المتسرعة قد تعرضنا نحن اليوم ، إلى إساءة فهمه ، قال لهم ، مستشهداً بآية من سفر المزامير تطلق على قضاة إسرائيل لقب الآلهة ، باعتبار المهمة الملقاة على عواتقهم: إنه إذا

ذهب بهم التساهل والتوسع في التعبير إلى قبول هذه التسمية ، على ما هي عليه من مبالغة صارخة ، فالعجب كل العجب من قوم يتهمون بالتجديف القدوس المرسل من الله ، لأنه قال إنه ابن الله ! ولم يسحب يسوع حرفا مما قال، ولم يتراجع قيد شعرة ؛ والأمر جلي، بدليل أنهم حاولوا القبض عليه: « فطلبوا أن يمسكوه، ولكنه لم يمكنهم من نفسه »

في هذا الجو المشحون بالانفعالات الثائرة ، أصبح بقاء يسوع في أورشليم أمراً محفوفاً بالمخاطر، فانسحب مع تلاميذه « إلى عبر الأردن، إلى حيث كان يوحنا يعمد أولاً (يو ١٠ : ٤٠) وبقوا هناك إلى آخر فصل الشتاء . فأتى إليه كثيرون.. وآمن به كثيرون »(يو ١٠ : ٤١ ، ٤٢) وسيتناول يسوع مراراً فيما بعد ، في أورشليم ، موضوع علاقته بالآب، غير أنه بدا جلياً أن الأنسان فيه يخفي سراً عظيماً من أسرار المعرفة والحب ، الذي يربطه بالله ، فيؤهله أن يقول : « الآب وأنا واحد . »

ليس في نيتنا أن نقتفي آثار جماعة يسوع الصغيرة في أثناء شتاء سنة ٢٩ — ٣٠ ، فإن هذا الاستقصاء لن يجدينا نفعاً ، نظراً لندرة ما ورد في الأناجيل من بيانات عن هذه المرحلة . قضت الجماعة عيد التجديد في أورشليم ، ثم بعد فترة تجوال في وادي الأردن ، إذا بها عند نهاية الشتاء تأخذ سمتها إلى أورشليم . وتصعد بهم الطريق رويداً رويداً من مدينة أريحا إلى أعلى جبل الزيتون ، لاهثة متباطئة ، في منطقة مقفرة ، بين التلال والأودية الجرداء . لا زرع ولا خضرة ، اللهم إلا تلك البقع المخضرة السوداء ، في الأفق البعيد ، عند خط القمم ، تهدي إلى بعض القرى المجاورة لأورشليم ، وكانت بيت عنيا إحداهما ، وهي لا تبعد

عن المدينة المقدسة بأكثر من ثلاثة كيلومترات .

تبدو بيت عنيا في الانجيل وكأنها واحـة مشرقة خضراء : ففي حين تنكر ليسوع كثير من الناس وناصبوه العداء ، ما انفك أهـل تلك القرية يستقبلونه بالاستبشار والترحيب ، وكثـيراً ما نزل ضيفاً على لعازر واختيه مريم ومرتا ، كما ينزل الاهل والأقرباء ، حتى ان مرتا نعت على اختهـا ، ذات يوم ، جلوسها منصتة متأملة بين يدي يسوع ، بينما كانت هي تروح وتغـدو ، منهمكة في إعداد الطعام وتنسيق المائدة : ألم يكن أولى بمريم ان تشمر عن ساعد الجد ، زيادة في تكريم الضيف المحبوب ؟ فيجيب يسوع معاتباً ملاطفاً :

« مرتا مرتا ، انك مهمومة ومشغولة البال بأمور كثيرة ، في حين أن الشيء الواحد يكفي ! لقد اختارت مريم النصيب الأوفى وهو لن ينتزع منها . » (لو ١٠ : ٤١ ، ٤٢)

عندما ارتقى يسوع وتلاميذه للمرة الاخيرة السفح المؤدي إلى بيت عنيا وأورشليم ، كان لعازر قد قضى على اثر مرض خبيث اختطفه من بين أختيه البائستين الولهانتين ، وكانوا قد واروه التراب منذ أيام . ويروي الانجيل ، حسب بشارة القديس يوحنا ، مشهد لقاء مرتا بيسوع ، وما أعربت عنه من ايمان بالغ رغم الفجيعة التي اعتصرت قلبهـا . ويتأثر يسوع ، وتنحدر من عينيه الدموع ، إشفاقاً ومواساة. واذ بدا من بعض المعزين ما يشبه العتاب على ذلك الذي كثيراً ما شفى وأقام ، وهو اليوم لا يحرك ساكناً ، أمر يسوع ان يفتح القبر ، ونادى لعازر ،

فلبى الميت النداء ، وخرج من القبر حياً . المعجزة باهرة ساطعة ،وهي تحدث على أبواب اورشليم ، فلا غرو ان يكون لها دوي هائل ، تردد صداه في جميع أحياء المدينة ، فآمن به كثيرون . إلا أن القلق خيم على السلطات الدينيـــة : ماذا لو لعبت الحماسة بعقول الشعب ؟ ان الرومان لقمينون بتدمير المدينة ، لسحق الثورة تحت انقاضها . فليس إذن من سبيل سوى التخلص من يسوع :

« ألا تعلقون أنه خير لكم ان يموت رجل واحد عن الشعب ، ولا تهلك الأمة كلها ! » (يو ١١ : ٥٠)

هذا عين ما قاله كبير الكهنة قيافا . أما يسوع وتلاميـــذه ، فتجنبوا العاصمة،وساروا صوب الشمال إلى بلدة تقع على حافةالمرتفعات المزروعة ، عند بدء المنحدرات الجرداء المؤدية إلى الأردن البعيد ، إلى بلدة إفرائيم ، التي تسمى اليوم (طيبة) ، ومكثوا هناك إلى أنأذنت تباشير عيد الفصح .

الباب الحادي عشر

في أورشليم
قبيل عيد الفصح ، عام ٣٠

اتسم سلوك يسوع في الأيام التي سبقت عيد الفصح بهدوء كبير ورباطة جأش عجيبة . الأمر يثير الدهشة ، إذا قورنت الحال بما كان يعتمل حوله من مؤامرات وتهديدات . أما بالنسبة إلى السلطات الرومانية المحتلة ، فإن هذه الفترة من السنة كانت من أعصب الفترات ، لما تتطلبه مراقبة الجماهير المحتشدة في أورشليم من يقظة لا تني ولا تكل. لم يكن الحاكم بونتس بيلاطس الغليظ الطبع ، ممن يتقاعسون عن سفك الدماء ، ولم يدرك لا هو ولا سواه من رجال الاحتلال ، فيما عدا قائد مائة من الحرس ، المأساة التي قدر لهم أن يخوضوا غمارها. وأما بالنسبة إلى السلطات اليهودية، فكانت هذه الفترة فرصة لعقد المؤامرات وحبك الدسائس الهادفة إلى وضع حد لما اعتقدوه تجديفاً وإثماً ، بالقضاء على هذا الذي حسبوه نبياً كاذباً. وأما التلاميذ والمريدون، فكانوا يطلقون العنان لحماس لا يخلو من بعض الوهم ، يمنون النفس بأن يتدارك يسوع الموقف ، مهما بلغ من التدهور وسوء الحال، بآية من آيات القوة والبأس.

ولكن يسوع بالرغم من إدراكه التام لما سوف يحدث ، ظل على المنهاج الذي ارتسمه ، غير وجل ولا هياب ، وراح يستكمل تعاليمه ، مرجئاً أهمها إلى النهاية .

صعد يسوع إلى أورشليم مع تلاميذه ، قبل عيد الفصح بستة أيام ، واستقبلتهم قرية بيت عنيا ، حيث دعوا إلى مأدبة في بيت سمعان الأبرص . وإذا امرأة تدنو منه : إنها مريم ، أخت لعازر ومرتا ، وفق ما أشارت إليه النصوص ؛ ها هي ذي تصب قارورة من العطر النفيس على رأس يسوع . ويستنكر التلاميذ الفعلة ، وتتملكهم أحاسيس من السخط المكتوم، وهم يشاهدن السائل الثمين يهدر في لمحة بصر . ولكن، هل الوقت لمثل هذه الاعتبارات المادية ؟ سوف تدنو من جسد يسوع أيد تحمل عطراً آخر لتكفنه به : لقد مثل هذا المشهد بارزاً في مخيلة يسوع : إن ما قامت به مريم ما هو إلا رمز مسبق لما سوف يحدث . وقرأ يسوع الامتعاض على وجوه التلاميذ فقال لهم :

« لماذا تلومون هذه المرأة ؛ إنها قد صنعت بي صنيعاً حسناً . إن المساكين هم عندكم في كل حين ، وأما أنا ، فلست عندكم في كل حين . فإن هذه المرأة ، إذ سكبت الطيب على جسدي ، إنما صنعت ذلك لدفني . الحق أقول لكم ، إنه حيثما يكرز بهذا الإنجيل في العالم كله ، يخبر بما صنعت هذه المرأة ، تخليداً لها . » (متى ٢٦ : ١٠ – ١٢)

أما يهوذا ، وكان أمين صندوق جماعة التلاميذ ، فقد بلغ به

الاستياء أشده ؛ فتبرأ منذ ذلك الحين من رسالة سيده ، وراح يعرض خدماته على أعداء يسوع المتآمرين عليه . ان خيانة يهوذا ما زالت تحير عقول الباحثين . ما الذي دفعه إلى التورط فيها ؟ نحن لا نكاد نصدق أن إغراء المال يفسر كل شيء . أكان من أنصار النظرية القائلة بالمسيح المجيد المظفر ، ذي المُلك الدنيوي والصولة والصولجان ، فيكون يسوع ، بإشارته الصريحة إلى موته الوشيك ، قد قضى على آماله وبدد اوهامه ، فأشاع اليأس في جنبات نفسه ؟ ربما فطن انه قد علق مصيره برجل متردد خامل ، يواجه الشر بالرضوخ والاستسلام ، فسيطرت عليه ثورة عنيفة ، قلبته حرباً عليه ؟ ثم إننا لا نملك الجزم فيما اذا كان ليهوذا سابق معرفة بدوائر الرؤساء الدينيين ، أم كانت مؤامرته اول احتكاك له بهذه الدوائر . وعلى كل ، فان جواً من الكآبة يخيم على هذه المأساة . أما يسوع ، فلم يحرك ساكناً للابقاء على يهوذا ، وهو الذي لم يسبق ان فرض على أحد قط ان يتبعه على الرغم منه .

عندما كان الغد ، طار النبأ بين جمهور الحجاج الذين قدموا للعيد : إن يسوع مقبل إلى اورشليم . وكانت الطريق المؤدية من بيت عنيا الى لمدينة المقدسة تسير صعداً ، زاحفة فوق السفوح الموصلة إلى جبل الزيتون . وعند بلوغ الصعدة الأخيرة ، يستشرف النظر ، مبهوراً ، بناء الهيكل الفخم وساحته الفسيحة ، ثم المدينة المقدسة ، قابعة داخل اسوارها : عرض رائع ، تتجلى فيه مدينة داود الرابضة عبر

أخدود الكدرون ، في أبهى منظر وأروع حلة ، وقد أحاطتها يد الربيع الصناع ببساط من السندس المنمق بالورود ، قل ان تزهو بمثله في سائر أيام السنة . وما كاد يسوع يصل إليها راكباً جحشاً متواضعاً، حتى استولى على الجموع تيـــار لا يقاوم من الحماس ، لم يتعرض لمثله يسوع من قبل . أقبـل الناس على حقول الزيتون الممتـدة على جانبي الطريق ، ينتزعون منها الاغصان ، ليفرشوا بها الطريق . منهـم من قطع سعف النخيل ، ومنهم من ألقى برادئه بساطاً ،تعبيراً عن مشاعر الترحيب والتكريم التي تجيش في صدره . ودوت الاهازيج ، وضجّت الصيحات ، هاتفة باسم المسيح ابن داود . ويبـــدي يسوع الرضا ، ويتقبل آيات التكريم دون تردد ، معترفاً بأحقيته لها ، في علانية لا لبس فيها . وراحت الجموع ، من تقدمه منها ومن جاء خلفـه ، تهلل صارخة وكأنها رجل واحد :

« هوشعنا لابن داود ،

مبارك الآتي باسم الرب ،

هوشعنا في الأعالي .

ولما دخل اورشليم ، ارتجت اركان المدينة ، وتساءل الناس : من هذا ؟ وكانت الجموع تجيب : إنه يسوع النبي من ناصرة الجليل . »

(متى ٢١ : ٩ – ١١)

في هذا الموكب الصاخب الهـادر العجيب ، سار يسوع حتى بلغ

الهيكل . ولكن سرعان ما خبت الحماسة وخفقت الاصوات وكبت الناس مشاعرهم : لقد ظهر رجال الهيكل بوجوههم المتجهمة ، فتكلف الجميع الهدوء والصمت ، ما عدا الاطفال ، الذين ظلوا يصرخون بملء حناجرهم ، بتلك الجرأة التي تبيحها لهم حداثة سنهم : « هوشعنا لابن داود » .

« فغضب رؤساء الكهنة والكتبة وقالوا له : أتسمع ما يقول هؤلاء ؟ فقال لهم يسوع : نعم ، أما قرأتم قط هذه الآية : من أفواه الاطفال والرضّع ، هيأت لك تسبيحاً ؟ »

(متى ٢١ : ١٥ – ١٦)

وانقضى اليوم وحل المساء على يسوع وجماعته ، وهم في طريقهم إلى بيت عنيا . وسوف يعمل التوجس الذي أثاره يسوع في نفوس السلطات الدينية عمله ، فيزداد الموقف تدهوراً . إن اصطداماً عنيفاً لم يحدث ، ولكن يسوع قد بدد كل وهم وأزال كل لبس ، بتركه ألوف الألسن تعلن على الملأ أنه المسيح ، دون ان ينجرف هو في خضم نظرية المسيح السياسي ، وما قد تؤدي به الحماسة الوطنية الى مغالطة وعنف .

***

الايام التالية ترينا يسوع في الهيكل من جديد ، حيث استأنف تعاليمه كعادته . لقد غدا شغل سلطات الهيكل الشاغل البحث عن

حجة يتذرعون بها لقتله . ولكن الشعب الملتف حوله يقف عقبة دون تحقيق أغراضهم: إنه يلازمه كالظل ، يتتبع خطاه ، متلهفاً إلى سماعه. فاقتضت الحنكة أن يحرصوا على تفادي الاصطدام بالشعب ، خوفاً من الفتنة .

إذن ، سيشهرون في وجهه سلاح المناوأة لإحراجه ، خلف ستار من الاسئلة المربكة ،سوف تدفعه الى التورط في تصريح يهوي بشعبيته ويؤدي بهيبته وسلطانه : هذا ما منّوا به أنفسهم .

وكان للسؤال الأول الذي ألقوه عليه صفة شبه رسمية ، لأنه جاء على لسان رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ ، الذين شنوا أول هجوم عليه ذلك اليوم . وقد كان كبير الكهنة في تلك السنة قيافا ، وكان صهر حنان ، كبير الكهنة السابق الذي عزله النائب الروماني من منصبه في عام ١٥ ؛ إلا ان حنان هذا ما زال يتمتع بمكانة أدبية بالغة ونفوذ قوي ، جعله في مقام رئيس آخر للكهنة ، لا سيما وأن عزله كان قد أضفى عليه شرف من حظي بكيد المستعمر البغيض .

لا شك ان الهيكل هو بيت الله وبالتالي بيت جميع عباده ... ولكن لا بد من أشخاص يشرفون على العقيدة وعلى الاخلاق ،حرصاً على سلامتهما . فجاءوا إذن إلى يسوع يسألونه بأي سلطان يتصرف كما فعل ؛ ثم إن الجموع هتفت به على انه آت باسم الرب ، فهلا يقدم للمسؤولين تفسيراً معقولاً لما جرى برضاه ؟

لم يخامر يسوع شك في حقيقة البواعث التي دفعتهم إلى هذا السؤال: إنه العداء ، والعداء السافر . فما جدوى الإجابة إذن ؟ فأجاب يسوع على سؤالهم بسؤال آخر كعادته ، قد يضطرهم إلى إماطة اللثام عن نواياهم الاصلية :

« وأنا لي سؤال أُريدكم ان تجيبوني عليه : « معمودية يوحنا ، من السماء كانت أم من الناس ؟ » (لو ٢٠ : ٣، ٤)

وأُلجمت أفواههم ، اذ كيف ينكرون رسالة يوحنا المعمدان ، دون ان يثيروا ثائرة الشعب ؟ وإذا اعترفوا بها ، ألم يعتبر ذلك اعترافاً ضمنياً برسالة يسوع ، الذي بشّر به المعمدان . فظلوا صامتين . إلا أن يسوع لم يعفهم من سماع الجواب ، وان لم يأت به مباشرة بل مغلفاً في زي المثال الشفاف الذي لا يمكن ان يفوتهم معناه ومغزاه .

إن مثال العمَلة القتلة يتناول قصة رجل صاحب كرم استأجر عملة على كرمه ، ثم أرسل عند الأوان من يطالب العملة بحقه في الثمار . فأرسل إليهم عبيداً في أول الأمر ، ثم أوفد ابنه الحبيب ... إنه مثال، ولكنه يستعرض في صوره وإيحاءاته ، تاريخ إسرائيل بأكمله . فرب الكرم هو الله ، وليس الكرم سوى شعب إسرائيل ، وهي الصورة التي تتردد مراراً على لسان الأنبياء. أما عبيد رب الكرم ، فهم الأنبياء الذين ما زال الله يرسلهم إلى الشعب ، فكان جزاء الكثيرين منهم التشريد والقتل ، وأما الابن الحبيب ، فلم يشك أحد في أن يسوع إنما

عنى به نفسه ، مشيراً مرة أخرى إلى منزلته الفريدة من الله . إذن ، لم يعد في الأمر أي غموض : إن السلطان الذي بـه يعمل يسوع إنما هو سلطان الله الذي أرسله بصفته ابنه الوحيد . وأمـا هؤلاء العصاة المتمردون ، فسوف ينبذهم الله ، بسبب كفرهم وجحودهم .

« وجعل (يسوع) يقول للشعب هذا المثل . غرس إنسان كرماً وسلمه إلى عملة ، ثم سافر في رحلة طويلة . ولمـا حان الوقت ، أرسل عبداً إلى العملة ليسلموه نصيبه من ثمار الكرم ، لكنهم جلدوه ثم طردوه خالي الوفاض . فعاد وأرسل عبـداً آخر : فجلدوه أيضاً وأهانوه وارسلوه فارغ اليدين . فعاد وأرسل ثالثاً : فجرحوا هـذا أيضاً وطردوه خارجاً . فقال رب الكرم : مـاذا أصنع ؟ إني مرسل ابني الحبيب ، لعلهم إذا رأوه يهابونه . فلمـا رآه العملة ، تآمروا فيما بينهم قائلين . هذا هو الوريث ، لنقتـله حتى يصير الميراث لنا . فطرحوه خارج الكرم وقتلوه . . فماذا يفعل بهم رب الكرم ؟ إنه سيأتي ويهلك هؤلاء العملة ، ويسلم الكرم إلى آخرين . فلما سمعوا ، قالوا : حاشا ان يكون ذلك . » (لو ٢٠ : ٩ — ١٦)

وخيم على الحاضرين جو من التوتر والوجوم ، ولم يعودوا في حاجة إلى تعليق يسوع على المثال ، كما لم يفت رؤساء الدين ولا الفريسيين أن يسوع إنما كان يعنيهم وهو يسرد كما فعل ، تاريـخ إسرائيل . والأمر جدير بأن نتأمله ، إذ ربما جنت السنون ، كدأبها ، على حقيقة الحوادث الغابرة ، فأبلت معالمها وذهبت بتأثيرها . ولكن ، ليعـد القاريء

القهقرى ، إذا ما أسعفه الخيال ، وليتصور الهيكل تعج باحاته بالجموع الغفيرة من المؤمنين: كان كل شيء حولهم يذكرهم بأنهم شعب الله المختار ، وقد نشأوا على هذه العقيدة وشبوا ، فتغلغت في أعماقهم راسخة كالطرد عندئذ سوف يدرك مدى الصدمة التي أصابت المستمعين من وقع كلام يسوع ، وقد شدتهم فصاحته وهيبته إلى شفتيه شداً ... ارتعدت الفرائص ، وكيف لا ترتعد ، والقول بأن معصية شعب موسى وموقفه حيال الأنبياء سوف يجران عليه الجزاء المحتوم ، فتنتزع منه امتيازات الشعب المختار لتعطى إلى أمم أخرى ، قول خطير ، بالغ الخطورة !

عالج يسوع الموضوع نفسه في مثال آخر ، مثال المدعوين إلى وليمة العرس . انها قصة ملك أقام وليمة ، وأرسل يستحث المدعوين . ويصورهم يسوع وهم يتعللون بالأعذار ، للهروب من الدعوة . ولما ألح عليهم المرسلون ليحملوهم على الحضور ، فما كان منهم ، على ما هم عليه من قلة الاكتراث بالملك ودعوته ، إلا ان ثاروا في وجههم ، وراحوا يوسعونهم إهانة وضرباً . فيضطر الملك الى الاقتصاص منهم . وعندئذ يوجه الدعوة إلى سواهم من الناس ، فيلبونها مسرعين ؛ غير أن واحداً منهم لم يبال بلياقة ملبسه ، فيأمر الملك بطرده . والقصة في في حد ذاتها لا تخلو من غرابة ، اذا قيست بالحياة الواقعية . الحقيقة ان فهمها يستلزم اللجوء إلى مفتاح ، كما هي الحال في القصص الرمزية : فالمثال يتعلق مرة أخرى بتاريخ إسرائيل ، بدعوته ثم بتخاذله وتجنيه على المرسلين إليه ، وأخيراً نبذه . العبرة الكبرى أن عصيانه سيجلب عليه العقاب الصارم ؛ أما ملكوت السماوات ، الذي وعد به شعب

موسى اول الأمر ، سوف يعرض الدخول فيه على الشعوب الاخرى من مختلف الاجناس والمشارب والاوطان .

وكان الفريسيون في هذه الاثناء يتأهبون لتسديد ضربتهم . فاوفدوا إلى يسوع نفراً من تلاميذهم ، يؤازرهم رجال من شيعة هيرودس ، ليطرحوا عليه سؤالاً : « قل لنا رأيك : أيجوز دفع الجزية لقيصر أم لا ؟ » ظاهر السؤال سذاجة بريئة ، غير ان باطنه كمين مرصود ؛ فيسوع بين أمرين لا ثالث لهما : إعلان قبوله للاحتلال الروماني ، او سخطه عليه ؛ وهو على بعد بضعة امتار من قلعة الأنطونيا ، حيث يربض الجنود الرومان في مراقبة لا تكل ولا تمل . كانت الجزية مكروهة لدى الوطنيين ، بينما لم تمانع الأوساط المتعاملة مع الرومان من أدائها ، بصفتها شراً لا بد منه . مهما كان جواب يسوع ، فإنه سيؤدي لا محالة الى إغضاب أحد الفريقين ، وأخطر الشرين ان يفتي بعدم جواز الجزية : فالعيون المبثوثة سوف تطيّر الخبر إلى آذان المحتل المتوجس الشَموس . ما الذي جرى إذن ؟ أظهر يسوع انه واع بالشرك الذي نصبوه له ، ووضع جوابه في قالب من البداهة التي لم يقو أحد على نقضها : فطلب منهم ان يأتوه بعملة الجزية :

« فأتوه بدينار . فقال لهم يسوع : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فقالوا : لقيصر . حينئذ قال لهم : أوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فلما سمعوا جوابه ، تعجبوا وتركوه وانصرفوا . »

(متى ٢٢ : ١٩ — ٢٢)

ان يسوع ، بتمييزه هذا بين محيطي السياسة والدين ، قرر مبدأ يخالف كل تقاليد الاجيال السابقة . كان الدين في تلك الأزمنة يكاد يشمل كل شيء ، دون استثناء لما نعتبره اليوم من صميم ميدان العلم مثلاً ، أو الرعاية الصحية . وقد توالت على الناس قرون عديدة قبل ان يدركوا أن للحياة مرافق عدة ، لها كيانها المستقل بالنسبة إلى الدين . ولكن لا ينبغي ان يلتبس علينا الأمر ، فيذهب بنا الوهم إلى ان يسوع إنما قطع كل الجسور بين الدين والدنيا : إنه لم يفصل ، لكنه يميز . لا شك ان الدين لا يمكن ان ينفض يده عن المجتمع : له رأيه فيه ، يجب ان يقال فيُسمع . ولكن ، لا ينبغي ان يمليها أوامر نافذة ونواهي جازمة : هذا شأن السلطة الدنيوية ،وإلا اعتُبر ذلك احتكاراً دينياً وطغياناً... إن الدين ، إذ يدأب جاهداً في تربية الضمائر ، يساهم في تكوين الافراد الصالحين للجماعات الإنسانية الطبيعية،مثل الأسرة، وجماعة المهنة ، والوطن ، والإنسانية ذاتها . في مقابل ذلك ، فإن إحدى مهام الدين ورجاله إنما هي الحرص على ان يتوفر للأفراد هذا الحد الأدنى من الحرية ، لكي يتحقق نموهم الإنساني والديني . ولا ينبغي في الظروف العادية أن يتخذ الدين موقفاً معيناً في ميدانالسياسة والاقتصاد ، أللهم إلا فيما إذا أصبح هذا الحد الأدنى من الحرية مهدداً بالإهدار من قبل سلطات غاشمة ، لا تحسب للكرامة الانسانية حساباً. والتدخل عندئذ يجب ان يكون بطريقة غير مباشرة ، لا تؤدي إلى الخلط بين ما هو لقيصر ، وما هو لله . حسب الدين آنذاك ان يذكّر أولي الأمر بحقوق الله وحقوق الانسان . وسوف يظهر التاريخ ان هذا المبدأ الذي أقره يسوع عسير التطبيق ، وان شهوات الانسان

ونزواته كثيراً ما تلهيه عن ذكره وتشغله عن العمل بمقتضاه ؛ ولكنه مبدأ ثابت ، باق ، يسطع كالمنارة في ظلمة الليل البهيم ، رغم حجب الضباب وأغشية السحب ، مهما طال بها الأمد .

ما زال الجو الذي يحيط بيسوع متجهماً مكفهراً؛ إلا أن الصدوقيين ربما خففوا من حدته ، بعرضهم قضية من هذه القضايا الطريفة التي يستعين بها طلاب العلوم الدينية ليشحذوا أذهانهم ويتدربوا على الجدل ومقارعة الحجج بمثلها . لم يكن غرضهم إحراج يسوع وحده : إن سؤالهم عنى أيضاً الفريسيين ، وجميع من كانوا يسلمون ببعث الجسد ويؤمنون بالحياة الأخرى .

ما الذي يبرر الإيمان بالبعث : هذا كان مغزى سؤالهم ؛ أتستطيع المرأة التي تعاقب على التزوج بها عدة رجال زواجاً شرعياً ، أتستطيع أن تكون في الحياة الأخرى زوجة لجميع هؤلاء الأزواج معاً ؟ جاء جواب يسوع جلياً شافياً ، أبرز ما فيه أنه ينفي من الحياة الأخرى الغرائز النوعية الجنسية ، وبالتالي يبطل وظيفتها ، كما يوعز بأن الإنسان يعجز عن أن يتخيل طبيعة سعادة الحياة الآخرة. كفاه علماً بأنها سعادة عفيفة منزهة فائقة الروعة ، تربو على كل ما يصبو إليه قلبه. قال يسوع:

« إنهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون ، ولكن يكونون كملائكة الله في السماوات . أما من جهة قيامة الأموات ، أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : أنا إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله

يعقوب ؟ والله ليس إله أموات ، وإنما هو إله أحياء . »

(متى ٢٢ : ٣٠ — ٣٢)

أما الشرك الأخير الذي نصب ليسوع، فلم يكن في الحقيقة شركاً ذا بال: سئل عن كبرى وصايا الناموس ، ماذا عساها أن تكون ؟ وأجاب يسوع على السائل ، ذاكراً الوصيتين اللتين تنصان على حب الله وحب القريب . ومن الطريف أن نلاحظ أنه سئل عن وصية واحدة فأجاب باثنتين ، وإذ أضاف أن الثانية شبيهة بالأولى، فقد نبه إلى طبيعة الصلة التي توجد بين الاثنتين ، معلناً أنه ما من أحد يقدر أن يصفو قلبه لحب الله ، ما لم يُخلص الحب لإخوته بني الإنسان .

أجاب يسوع السائل قائلاً : « أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك : هذه هي الوصية العظمى الأولى ؛ والثانية التي تشبهها ، أحبب قريبك كنفسك . حول هاتين الوصيتين ، يدور الناموس كله والأنبياء . » (متى ٢٢ : ٣٧ — ٤٠)

وهنا اثار يسوع موضوع ابن داود، اي موضوع المسيح الذي يدعوه داود ربه في احد المزامير : كيف يكون ربه وهو ابنه ؟ إن مرمى يسوع لا يخفى : فهو يريد ان يلفت مستمعيه إلى انه ، وهو المسيح ، اعظم من داود الملك . ولكنهم لاذوا جميعاً بالصمت: لقد اثبت يسوع انه سيد الموقف وسيد الميدان ، بعد ان فشلت محاولاتهم للإيقاع به ، وتبددت مساعيهم المضللة ادراج الرياح .

* * *

لنواصل اقتفاء اثر يسوع خطوة خطوة ، في هذه الأيام الأخيرة

الحاسمة ، التي سبقت عيد الفصح . نحن نستبعد ان يكون جميع رواد الهيكل في هذه الأيام قد تمكنوا من سماع كل ما قاله يسوع ، باستثناء الاثني عشر ، وبعض المحظوظين المقربين . واما من عداهم من الناس ، فكان يدنو من يسوع حسبما اتفق ، وبالقدر الذي كانت تسمح به حركات الجماهير . ومهما يكن من امر ، فإن شيئاً اخذ يبدو جلياً ، وهو ان الأزمنة الجديدة التي افتتحها المسيح لا يمكن ان تنفسح لأصحاب العهد القديم الذين اصموا آذانهم عن تلقي الدعوة . إذن ، إنها البقية الباقية من بني إسرائيل فقط ، هي التي ستحظى بالانضمام إلى الدعوة ، كما سبق ان حصل من قبل في تاريخ إسرائيل ؛ إنها هي ، تلك البقية الصغيرة ، التي ستحفظ الأمانة ، لتحملها بدورها إلى العالم بأسره ، دون استثناء سلالة الذين رفضوا الدعوة أنفسهم ، من باب أولى .

تلك هي الزاوية التي ينبغي أن يُنظر منها إلى حملة السيد المسيح ضد الكتبة والفريسيين . إنها تدمغ الأنانية والخيلاء والتزمت الضيق الذي يبديه أولئك الذين يتقوقعون داخل دائرة مشاغلهم الشخصية ، وهم في رضى عن أنفسهم ، لأنهم يمارسون حرفية الناموس ، في حين يجهلون روح الناموس . هكذا ندرك سر المصير القاسي الذي ينتظرهم .

« احذروا من الكتبة الذين يتبخترون في الحلل الفضفاضة ، ويزهون بكثرة التحيات في الأسواق ، ويحتلون صدور المجالس في المجامع ، وأول المتكآت على الموائد ، الذين يأكلون بيوت الأرامل بحجة تطويل صلواتهم : فهؤلاء ستنالهم دينونة أقسى. » (مر. ١٢ : ٣٨ — ٤٠)

وينعي يسوع على أعدائه عزوفهم عن دخول ملكوت السماوات ، ثم وقوفهم عقبة في سبيـــل الراغبين في دخوله ، سواء بالتحريض أو بالقدوة السيئة . ولم يُعف يسوع من نقده البصير تلك الغيرة التبشيرية التي كان يبديها الكتبة والفريسيون : إن ثمارها لتحكم عليها : تلك الثمار هي الروح التي تتجلى في سلوك الدخلاء الجـدد . ويشجب يسوع دون هوادة هذا الجدل العقيم الذي يدفـــع إلى التلاعب بالحجج السطحية ، متناسياً الفرائض الكبرى ، ودعوة النفوس إلى ما هو فوق الطبيعة . والواقع أن هذا التنديد الذي ارتفع به صوت يسوع، لم يفقد حدته على مر الزمن : فالتمسك بالشكليات وبالأحاجي القانونية الجدباء التي حذر منه يسوع ، ما زال ماثلاً ، بدرجات متفاوتـة ، في كل المجتمعات ، دينية كانت أم دنيوية . ضررها في أنهـــا تؤدي إلى تصلب النفس ، وجعلها عاجزة عن الحب .

ويوالي يسوع تعليمه ، غير أن هدوءه لم يعد قادراً على إخفاء هذا الحزن العميق الذي أخذ يغشي عينيه : إنـــه لا يتأسى على مستقبل الملكوت ، لأنه يعلم علم اليقين أن دعوة الله لا محالة منتصرة ، ولكنه كان يحب قومــه ، وها هي ذي نفسه تذهب حسرات بسبب موقف هذا الشعب من دعوته . لقد جاء وسط أهله ، وأهله لم يقبلوه .

« يا اورشليم يا اورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها ، كم من مرة أردت ان أجمع بنيـك كما تجمع الدجاجـــة فراخها تحت جناحيها ، فلم تريدوا ... هوذا بيتـكم يُترك لكم خراباً . فإني اقول

لكم : إنكم من الآن لا تروني، حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب.»
(متى ٢٣ : ٣٧ ـ ٣٩)

عبارات قوية مؤثرة ، لا شك أنها أدخلت الهلع على نفوس التلاميذ: ذلك ان السامي ، في الفترة التاريخية التي تعنينا ، اذا تفوه بلعنة ، تصورها و كأنها شرعت تتحقق على الفور . فلا غرو إذا بقيت عبارات يسوع : « هوذا بيتكم يُترك لكم خراباً » ، عالقة بأذهان التلاميذ ، لاصقة بها ، وهم خارجون من المدينة ، بعد هذا الحديث بلحظات . كيف لا ، وأسوار المدينة ترتفع أمامهم عالية جبارة ، تتباهى بأحجارها الضخمة ، الدقيقة التجهيز ، الرائعة الرص والتنسيق ، تعكس أشعة الغروب في أعقاب يوم من أيام الربيع : انها لتنضح قوة ومتانة ، تتحدى بها الاجيال والعصور : هكذا بدت لهم ، وهكذا عبّروا عن إحساساتهم امام يسوع ، وقد نال منهم الفزع والاضطراب كل منال . اما يسوع ،فدعا إليه بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا، وراح يرفع امامهم حجب الغيب ، ليريهم ما سوف يحل بوطنهم المسكين البائس . أعاد على مسامعهم نبأ سقوط اورشليم ، ثم تناول موضوع نهاية العالم . قبل كل شيء ، عليهم ألا يستسلموا إلى الفزع ، اذا بلغتهم اخبار حروب وقعت ، او على وشك الوقوع . ولكن ليعلموا انهم سوف يقاسون الشدائد والاضطهاد ؛ وليحذروا من الأدعياء الكذبة والانبياء المزيفين ، الذين سيغررون بالكثيرين . كما ان الشقاق سيلعب دوره الهدام في بعض البيئات المسيحية . فليأخذوا إذن حذرهم . ومضى يسوع في وصف تدمير اورشليم ،متنبئاً بما سيحدث،

لاجئاً في وصفه إلى كثير من الصور التعبيرية المعروفة التي وردت في تصوير بعض الكوارث الكبرى المشهورة . ومعروف ان تخريب اورشليم لم يقع إلا عام ٧٠ م . ولكن عندما تنبأ يسوع بهذه الكارثة، كانت البوادر تشير إلى قوة إحتمال وقوعها ، ولو كان التلاميذ على شيء من الدراية بالحالة السياسية الراهنة ، لما تركهم إنذار سيدهم في هذه الحالة من الذهول . لقد بلغ بهم الهلع حداً لم يعيروا معه أنباء نهاية العالم ، ولا التقلبات الكونية التي ستصاحبها كبير اهتمام ، حتى أنهم أجهدوا انفسهم في التمييز بين هذين الحدثين الغيبيين . وتسرد الأناجيل وصفاً لأيام العالم الأخيرة،التي ستكون مسبوقة بتعميم دعوة الملكوت، فتسمعها جميع الامم والشعوب ، في كل انحاء العالم . وعقب هذه الكوارث المنذرة بالنهاية ، ستظهر في السماء علامة ابن البشر :

« وتنوح عندئذ جميع شعوب الارض ، ويرون ابن البشر آتياً على غمام السماء ، بقوة وجلال عظيمين ، فيرسل ملائكته ببوق مدّو ، فيجمعون مختاريه من جهات الأفق الأربع ، ومن اقاصي السماوات إلى أقاصيها . » (متى ٢٤ : ٣٠ – ٣١)

متى يتم ذلك ؟ هنا أجاب يسوع إجابة صارمة ، من شأنها ان تضع حداً لفضول الناس الذين لا يشفى لهم غليل : لا يعلم أحد ذلك اليوم وتلك الساعة ، إلا الآب وحده . بهذا الكلام ، يبطل يسوع تكهنات أولئك الذين يطلعوننا بين الفينة والفينة ، على تاريخ لنهاية العالم جديد لا يناله الخطأ ، ولكن لا يلبث ان تكذبه الحوادث . كما

يشير كلامه ايضاً إلى ان الابن ذاته يعجز عن معرفة هـذا الجانب من خطة الله المرسومة . وهو قول ينبغي ألا يساء فهمه . وسيكون لنا عنده وقوف وتعليق . وأهم ما في الامر ، انه يجب على الانسان ان يكون متيقظاً ، مستعداً لهذا اليوم :

« كونوا أنتم مستعدين ، لأن ابن البشر سيأتي في ساعة لا تعرفونها . »

(متى ٢٤ : ٤٤)

لم يقتصر روح الإنجيل الذي دأب يسوع على توضيحه منذ أشهر طويلة ، على حالة خلقية عامة ، تكاد تكون لازمانية وحسب : إنه أيضاً روح تطلّع وانتظار ورجاء . وعلى التلاميذ أن يعتبروا أنفسهم كأنهم مسافرون عابرون، فلا ينسيهم تفانيهم في العمل، ولا مشاركتهم سائر الناس في مطالب الحياة العامة ، أنّ مقرهم في العالم الآتي ، حيث الحياة الحقيقية ، وليس على الأرض . وسيقتنع القارئ بهذا الرأي إذا ما قرأ الامثال التي حكاها يسوع في هذه الأيام ، والتي تنبه إلى وجوب السهر والاستعداد . أولها مثال العبد الذي عهد إليه سيده في إدارة شؤون بيته قبل رحيله : فمصير هذا العبد يتقرر وفقاً للحالة التي يجده عليها سيده ، إذا ما فاجأه بعودته غير المرتقبة . وهناك المثال الرائع لهؤلاء العذارى العشر ،اللواتي خرجن في موكبهن الجميل للقاء العروسين، فانتظرن طويلاً وصوله واقفات عند الباب حاملات مصابيحهن الصغيرة ، التي يبدد نورها الخوف بقدر ما يمزق من كثافة الظلام . وتتوالى الساعات وينفد الزيت وتنتفض الشعلة فوق ذبالتها من قلة

الوقود ، فتترنح قبـل أن تذوب في الظلام . ولم يحظ بدخول الدار ، عند قدوم موكب العريس ، سوى العـذارى المتدبرات اللواتي لم يفتهن أن يتزودون بما يكفي من الزيت ، لمواجهة الطوارىء : لقـد كن مستعدات ، في حين غفلت الطائشات عن أن يقمن للمفاجآت حساباً .

ومثال آخر ، مثال سبائك الفضة ، أو مثال الوزنات ، كما كان عندئذ يقال ، التي سلمها سيد لثلاثة من عبيده ، قبل أن يرحل في سفر طويل ، أمانة في أعناقهم ، ليستثمروها في التجارة إلى حين عودته ، كل واحد منهم على قدر طاقته ، فأعطى واحداً خمس وزنات ، وآخر وزنتين ، والثالث وزنة واحدة . ويعود رب المال، ويجلس للحساب ، ويثني على من ضاعف عهدته ويثيب ، لكنه يقسو على العبد الكسلان الذي دفن وزنته في الارض ، خوفاً عليها ، وهو الآن يعيدها إلى سيده كما هي غير منقوصة . العـبرة واضحة ، وتتلخص في وجوب السعي والبذل والجهد ، والحرص على الوقت ، لان الرب يأتي على حين غرة ، ويطالب كل واحد بحسابه . لقـد سبق أن أكد يسوع أن كرامة الإنسان إنما هي في البـذل والخدمة ، وها هو ذا الآن يدعو ذويه إلى الامانة والصبر والاناة في هذه الخدمة ، والا يغرب عن بالهم ان وقت الحساب قـد يفاجئهم في اية لحظة ؛ فما احراهم ان يكونوا مستعدين لمجيئه الاخير . ويبدو ، اليوم ، اننـا فقدنا الشعور بضرورة التأهب والاستعداد ، بينما كان إخواننا المسيحيون الاوائل يعيشون في هذا الإحساس ، فكانت معيشتهم كلها متبلورة حول فكرة عودة المسيح .

لم تستطرد الاناجيل في وصف المجيء الثاني للمسيح في مجد ابيه ،

ليدين الاحياء والاموات ، وإن كانت قد اكدت هذا المجيء في عدة اماكن . واما العروض المفصلة ، ذات الصور والالوان الزاهية ، التي اشتهرت بها آداب كتب الرؤى ، فإننا لا نكاد نلمح لها وجوداً في الأناجيل . وأوفى تصوير ليوم الدينونة نقرأه على لسان يسوع في اواخر حياته العامة ،وقد رواه القديس متى بعد الأمثال التي عرضناها آنفاً . ان هذا الوصف يشيد بالمجد الذي سيتمتع به المسيح في ذلك اليوم ،حيث يطلق عليه لقب الملك ، وتبدو للعيان تلك الصلة الفريدة التي توحد بينه وبين الله . ثم إن أسباب الثواب والعقاب لجديرة بلفت الأنظار : سيحاكم الناس بحسب الحب الخالص الفعال الذي أبدوه لقريبهم ، لا سيما تجاه من كان في ضيق وشدة ، وفي حاجة إلى الغوث والمعونة :

« ومتى جاء ابن البشر في مجده وجميع الملائكة معه ، حينئذ يجلس على عرش مجده ، وتجمع لديه كل الامم فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء ،ويقيم الخراف عن يمينه والجداءعن يساره، حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم ، لأني جعت فأطعمطموني ، وعطشت فسقيتموني ، وكنت غريباً فآويتموني ، وعرياناً فكسوتموني ، ومريضاً فعدتموني ، ومحبوساً فأتيتم إليّ .حينئذ يجيبه الصالحون قائلين : يا رب، متى رأيناك جائعاً فأطعمناك ، او عطشان فسقيناك ، ومتى رأيناك غريباً فآويناك وعرياناً فكسوناك ، ومتى رأيناك مريضاً او محبوساً فأتينا اليك ؟ فيجيب الملك ويقول لهم : الحق اقول لكم ، إنكم كلما

فعلتم ذلك بأحد إخوتي هؤلاء الصغار ، فاليّ فعلتموه . » (متى ٢٥: ٣١ — ٤٠) ودهشة الابرار هذه جديرة بالملاحظة والتأمل . ثم يتناول يسوع الاسباب ذاتها في القسم الثاني من المثال ، ولكنها جاءت هذه المرة ، بمثابة حيثيات الاتهام : ان الذين لم يحركوا ساكناً لإغاثة الجياع والعراة والمسجونين والغرباء ، سيجر عليهم امتناعهم الزج في جهنم ، لأنهم إنما أغلقوا قلوبهم في وجه المسيح ذاته ، كلما سدوا ابوابها امام إخوانهم واخواتهم المحتاجين . والاغاثة هذه يجب ان يكون رائدها الحب والعطف والرقة ، لا التنازل المتكبر المقيت ، نظراً لكرامة أولئك الذين يحتقرهم المجتمع ويغض من شأنهم ، وهي كرامة مصدرها الاعتقاد الصادق بأننا نخدم المسيح فيهم

« الحق أقول لكم ، إنكم كلما عزفتم ذلك عن فعل لأحد هؤلاء الصغار ، فبي لم تفعلوه . فيذهب هؤلاء الى العذاب الأبدي والصالحون الى الحياة الأبدية . » (متى ٢٥ : ٤٥ — ٤٦)

وليس هذا التعاون الذي يطالب به السيد المسيح ، ثمرة لإحساس مبهم بالإنسانية : إنه يضرب جذوره في تربة الإيمان والمحبة التي تسمو فوق الطبيعة وميولها . إن تلميذ المسيح ذو حساسية لما يحتاج اليه القريب ، سواء في المجال المادي ام الروحي : وهذا الإحساس العميق هو الذي يحثه على معالجة موضوع الحاجة ، باعتبار هذا العمل امراً طبيعياً بين أخوين متحابين .

الباب الثاني عشر

العشاء السري

لم تكن الحـــالة في أورشليم لتوحي بالامن والطمأنينة بالنسبة إلى يسوع وتلاميذه . فشتّان ما كان بينها وبين بيئة الجليل التي ألفوها . وبعد ان قضوا شهوراً في هدوء ريفه وسكينة براريه ، إذا هم في غمرة موسم الحج ، ومما يلازمه من تحمس ، وانطلاق شعبي ، وهرج ومرج ؛ وإذا كانت الشوارع والطرقات تغص بأهل الريف ، وتضج بوقـــع أقدامهم وضوضاء احاديثهم ، إلا انها ما كانت لتخضع لهم ولتحتكم بأمرهم .

لا شك ان الموالين ليسوع كانوا كثيرين ، هذا ما اسفر عنه موكب دخوله إلى المدينة ، يوم الشعانين. ولكن المعارضين لم يقلوا عنهم شأناً، بل كانوا ذوي نفوذ وسلطان ، سوف يستغلونها في استعجال الحوادث ودفع المأساة إلى نهايتها المحتومة . لقـــد أُخضع يسوع إلى سلسلة من التحقيقات والاستجوابات ، تولاها علمـاء الدين ، وما كان اكثرهم في اورشليم ! نعم ، إن موقفه لم يعد ذلك الذي تمتع بـه في الجليل : فهو اليوم يلتزم الدفاع ضد مجمع من العلمـاء المهاجمين . في هذا الجو ، اخذ

رؤساء الكهنة وشيوخ الامة قرارهم النهائي بالقبض على يسوع والقضاء عليه بالموت ، وقرروا تنفيـذ المؤامرة فوراً ، ليتم كل شيء قبل عيد الفصح ، خشية قيام اية حركة موالية ليسوع . ورأوا في تدخل يهوذا فرصة طيبة ليتمكنوا من إلقاء القبض على يسوع في ظلمة الليل وسره، وفق التقاليد التي تسير عليها الشرطة في كل زمان ومكان ، دون ان تـكلفهم هذه الخيانة اكثر من ٣٠ قطعة من الفضة . امـا يسوع ، فكان منذ يوم الشعانين ، يتردد يومياً على الهيكل ، حيث كان يعلم جهاراً وعلانية ، فقد كان مستمعوه بمثابة الدرع الواقيـة المنيعة ، فخشيت السلطات مغبة الاصطدام بهم . وكان عنـــد الغروب يغادر المدينة ، منحدراً مع وادي الكدرون ، ليقضي الليل على سفح جبل الزيتون . إذن ، كان على اعدائه ان يلحقوا به هناك .

لم يبق ليسوع زمن طويل يقضيه على هذه الارض ، فقـــد باتت أيامه بل ساعاته قليلة معدودة . ورغم ذلك ، فان تلاميذه لم يدركوا الموقف بعد على حقيقته .

« وقبل عيد الفصح ، لما كان يسوع يعلم ان ساعته قد أتت لينتقل من هذا العالم إلى الآب ، كما كان قد أحب خاصته الذين في العالم ، أحبهم إلى النهاية » (يو ١٣ : ١)

لذلك عني يسوع بالعشاء الاخير الذي سوف يجمعه واياهم ، ليكون عشاء الوداع ، وهو ذلك الذي نطلق عليه اسم العشاء السري . أُعـد العشاء في بيت صديق ومضيف كريم ، كان يقع داخل الأسوار ، على

مقربة من إحدى بوابات المدينة ؛ فخص ضيوفه بحجرة في بيته ،عرفت فيما بعد بعلية صهيون: هناك ، عند المساء ،حضر يسوع ومعه تلاميذه، هذا القطيع الصغير الذي سوف تنقض عليه الاعاصير الهوجاء . لقد آن الأوان لكي يبلغهم وصيته الاخيرة .

أكان هذا العشاء هو العشاء الشرعي لدى اليهود ، حيث كانوا يأكلون حمل الفصح ، ويحتفلون به في الرابع عشر من شهر نيسان ؟ لا نملك الجزم في هذا الأمر ، لافتقارنا إلى الدليل القاطع . غير أنه يبدو ان الاوساط الدينية الرسمية في اورشليم لم تعتبر هذا المساء على انه الرابع عشر من نيسان . ذهب بعض المفسرين إلى ان اليهود لم يتقيدوا جميعاً بتاريخ واحد في احتفالهم بعيد الفصح ، بسبب الخلافات التقويمية الشائعة : فالأسينيون ، مثلاً كانت لهم طريقتهم الخاصة في احتساب الأيام ، تخالف طريقة عامة اليهود . ونحن نعلم كذلك ان الشعوب التي تسير وفق التقويم القمري ، قد لا تتفق على تحديد اليوم الاول من الشهر ، فينجم عن ذلك فرق يوم كامل ، تبعاً لحالة الرؤية في البلدان المختلفة . ربما استهل أهل الجليل شهر نيسان قبل أهل اورشليم بيوم .. على كل ، فالأمر لم يوضح بعد . ولكن ، سواء احتفل يسوع بعشاء الفصح مع تلاميذه أم لا ، فالأمر الذي لا يرقى اليه الشك ، ان جو الفصح الديني الاثير ساد العشاء كله ، وأضفى عليه هيبته وجلاله . إن حلول هذا العيد كان يذكر اليهود كل عام بأن أسلافهم نجوا ، في مثل ذلك اليوم من ظلم فرعون وطغيانه ، على يد موسى ، فغادروا مصر

فارين ولاذوا بالصحراء ، في مأمن من جيش فرعـون وعجلاته . وفي ليلة الرحيل ، حسب رواية سفر الخروج ، ذبحوا الحملان ، ووضعـوا دماءها علامة على أبوابهـم ، ليكفيهم الله شر الوباء الذي كان يهدد أسرهم ،فاستجيب لدعائهم ولم ينلهم أذى . ومنذ ذلك الحين ،أصبحت ذبيحة حمل الفصح ، إحياء لذكرى هذه النجاة وهذا الخروج .

لم يشأ يسوع ان يقتصر تعليمه على الناحية النظرية ، هـذا المساء ، وهو في حجرة عشاء الفصح ، بل حرص على اصطناع القدوة والمثال . ها هو ذا ينهض من المائدة ، فيخلـع رداءه ويتـّزر بمنديل يشده حول حقويه ، وبعد ان ملأ مطهرة من الماء ، شرع يغسل أقدام تلاميــذه . العمـل مما يكلف به الخدم ، إلا أن يسوع أراد ان يؤديه بنفسه : إنه يقف في الميدان ، حتى الرمق الأخير ، مناضلاً ضـد الفخفخة وحب التباهي الذي يدفـع الإنسان إلى التهالك على السلطة والنفوذ ، أو إلى مجرد شهوة السيادة وإذلال الغير . ويهب بطرس معارضـاً ، متمنعاً ؛ أما يسوع فيهديء من انفعاله ، ثم يقول لتلاميـــذه ، بعد فراغه من غسل أقدامهم :

« أعلمتم ماذا صنعت لكم ؟ أنتم تدعونني معلمــاً وسيداً ، وحسناً تقولون ، لأني كذلك . فإذا كنت أنا السيد والمعلم قد غسلت أقدامكم، فيجب عليكم أنتم أن يغسل بعضكم أقدام بعض ، لأني أعطيتكم مثالاً ، حتى تصنعوا أنتم أيضاً مثلما صنعت أنا لكم . »

(يو ١٣ : ١٢ — ١٥)

هكذا ذكّر يسوع تلاميذه بما سبق أن قاله لهم مراراً عن الخدمة التي هي محك العظمة الحقة ؛ وهو لم يفقد لحظة واحـــدة الإحساس بكرامته ، وهو يغسل أرجل تلاميذه ، مبيناً أن السلطة لا تتنافى مع التواضع . ولا تسل عن مدى التأثر البالغ الذي استولى على التلاميذ . لقد قصد يسوع إلى تطهير قلوبهم ، واستئصال شأفـة الكبرياء منها . والكبرياء قد يتعرض إلى ضرره أفاضـل النـاس أكثر ممن هم دونهم . وهكذا ، راح يُعدّهم إلى الحـدث العظيم الذي سيتم تحت أعينهم بعد لحظات .

وسار العشاء سيره الهادىء ، إلا أن شيئاً ثقيلاً كان يقيد الانطلاق ويبدد الأنس . وفجأة ، ارتفع صوت يسوع معلناً أن واحداً من الاثني عشر سوف يسلمه . وقعت كلماته من نفوسهم وقوع الصاعقة ، في حين بقي يهوذا رابط الجأش ، جامد الملامح . وهمس بطرس في أذن يوحنا ، وكان جالساً إلى جانب يسوع ، أن يسأله من الذي عنى ؟ ويرد يسوع بصوت خافت : « هو الذي أغمس لقمـة وأناوله إياها » . وكان ذلك تقليداً شائعاً ، للتعبير عن المودة والتكريم . تنـاول يهوذا اللقمة دون أن يتخلى عن جموده الحجري ، في حين أدرك بطرس ويوحنا كل شيء للحال . ونهض يهوذا على التو ، وخرج من المكان ، يلفه الظلام ؛ ولما كان أمين صندوق الجماعة ، ظنوا أنه خارج لابتياع غرض أو لتوزيع صدقة . ولكنه خرج ليدبر جريمته في الليل .

وبعد أن أُغلق الباب دون الخائن ، أجال يسوع عينيه على الأحد

عشر الذين حفظوا له العهد إلى الآن. لقد انقضى على رفقتهم له مايقرب من ثلاث سنوات ، أي منذ شتاء ٢٧ — ٢٨ إلى هـــذا العيد ، عيد الفصح عام ٣٠ . لقد ائتلفت قلوبهم، وشد وثاق بعضها إلى بعض روابط قوية ، لم تؤثر فيها تلك الخلافات التي لا تسلم منها الحيـــاة الجماعية أياً كانت . وفي هذه الأمسية ، وفي جو هــذا العشاء الأخوي الذي وطد الألفة وعزز المودة ، كلمهم يسوع ، حديث القلب للقلب ، وكأنه كان على موعد معهم لهذه المناجاة الودية الصافية . إن علاقتهم بالقريب قد سبق أن تعرض لها في مناسبات عدة ، فأوصاهم بعــدم التسلط عليه ، وبالتزام الوداعـــة والتواضع في التعامل معه ، والعمل على خدمته ، واغتفار زلاته ، وبذل المساعدة له . والآن ، في هذه الليلة ، فهو يوجز كل هذه التعاليم في مبدأ واحد شامل ، وهو أن يحب بعضهم بعضاً كما أحبهم هو. إنها العلامة المميزة التي بها سوف يعرف أولئك الذين ينتمون إليه ويسيرون على هدى تعاليمه .

« إني أعطيكم وصية جديدة :

أن يحب بعضكم بعضا .

نعم ، كما أنا أحببتكم ، فليحب بعضكم بعضا .

وبهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي ،

إذا أحب بعضكم بعضا . » (يو ١٣ : ٣٤ — ٣٥)

لا علاقة بين هــذا الحب وبين الميل الحسي العاطفي الذي يطلق

عليه الناس لقب الحب ، والذي سرعان ما يصيبه الانحراف ، بسبب ما فيه من أنانيـــة وأثرة ! إن يسوع يحث مريديه على ان يمكنوا من نفوسهم هذه الرغبة النبيـــلة الصادقة في إرادة كل خير للنـــاس ، فيشاركون السعداء سرورهم ، والحزانى آلامهم وهمومهم ، ويسعون مخلصين لتحقيق التعاون الصحيح بين الافراد والجماعات . واذا كانت شريعة موسى تطالب بهذه المحبة إخوة الدم وأبناء الأمة الواحــدة ، فإن جدة وصية يسوع تكمن في أنها تفرض علينا ان يكون حبنا للآخرين « على مثال » حب يسوع لنا ، فعلينـــا ألا نحرم من حبنا أولئك الذين يناصبوننا العداء ، ويكيلون لنا الاضطهاد ، بل يجب ان نصلي من أجلهم ، فضـــلاً عن مسامحتهم والعفو عن إساءاتهم ، لذلك ، فلا ينبغي ان يتشبث التلميذ بحياته الفانية ، بل ليكن مستعداً للتضحية بها ، في بذل وسخاء .

« ليس هناك حب اعظم

من ذلك الذي يدفع صاحبه إلى بذل حياته

في سبيل أحبائه .

أنتم أحبائي ،

إن صنعتم ما أنا موصيكم به

لا أدعوكم خدماً ،

لأن الخادم لا يعلم ما يصنع سيده ،

ولكني دعوتكم أحبائي ... » (يو ١٥ : ١٣ ـ ١٥)

هل ادرك التلاميذ في الحال مقصد يسوع وهدفه ؟ انه إذ وضع نفسه موضع المثل ، أثبت لهم ان وصية الحب هذه ليست مجرد شعور طبيعي ، وانهم في حبهم للناس ، يجب ان يقتدوا بالله : « كونوا كاملين كما ان أباكم السماوي كامل هو . » هذا ما قاله في عظة الجبل . وفي حديثه مع نيقوديموس سبق ان قال :

« نعم ، هكذا أحب الله العالم ،

حتى انه بذل ابنه الوحيد

لكي لا يهلك كل من يؤمن به ،

بل تكون له الحياة الأبدية . » (يو ٣ : ١٦)

واذا كان أنقياء القلوب وحدهم هم الذين سيبصرون الله ، كما قال يسوع في عظة الجبل ، فاننا ندرك الآن أنهم وحدهم ايضاً هم الذين تصفو قلوبهم للحب ، لخلوها من الأثرة المنفرة . ولكن هذه الطهارة ذاتها ، ما هي إلا منّة من الله ونعمة ،فلا يستطيع احد ان يحب حقاً، ما لم يطهّر الله قلبه ويحوّل بعفوه ونعمته مشاعره .

ان الانسان عاجز عن ان يظفر بالخلاص بنفسه وبمحض قواه : كرر يسوع هذه الحقيقة مراراً ، وهو يعلّم تلاميذه في اثناء الشهور الاخيرة المنصرمة . إن قوى الانسان محدودة ، وان توهم كثير من

الناس خلاف ذلك . وعبثاً يحاول الانسان ان يشيد عالماً مثالياً ، وفقاً لتصميم أحلامه ، بالاعتماد على قوة ارادته وحدها . ان جهوده الجبارة ونتائجها الرائعة ، كثيراً ما تدعو إلى الاعجاب والدهشة ، ولكن الصدع في البنيان ، والدودة في البذرة ،وبعد سنين من التباهي بنجاح التجربة ، يتشقق البناء ويشرف على الانهيار ، وكأن شيئاً لم يكن . الانسان قادر على الكثير ،ولكنه ليس بقادر على كل شيء . لا يستطيع ان يستغني عن رحمة الله ، ولا عن تأييده وعونه . أدركت هذا المعنى تلك الجموع التي كانت منذ سنتين مضت تحج إلى وادي الاردن ، حيث يوحنا المعمدان ، تحدوها الرغبة في ان تطهّر وتنال العفو والغفران . هذا الغفران هو ما سيتكلم عنه يسوع بعد قليل .

ولما أوشك العشاء ان ينتهي ،

« أخذ يسوع خبزاً ثم باركه وكسره وأعطاه لتلاميذه قائلاً : خذوا ، كلوا من هذا كلكم ، هذا هو جسدي .وأخذ الكأس وشكر وناولهم إياها قائلاً : اشربوا من هذا كلكم ، هذا هو دمي ، دم العهد ، الذي يهراق عن كثيرين لمغفرة الخطايا . أقول لكم إني من الآن لن أشرب من عصير الكرمة هذا ، إلى ذلك اليوم الذي أشرب فيه الخمرة الجديدة في ملكوت أبي . » (متى ٢٦ : ٢٦ ـ ٢٩)

وساد الغرفة صمت عجيب،بينما راح التلاميذ يديرون بينهم ما قدمه لهم يسوع من غذاء وشراب . لم يبق أي مجال للشك : إن موت يسوع أمر مقرر ، وما صنعه في هذه اللحظة ، إنما كان ليثبت لتلاميذه أنه

سوف يقدم حياته من أجلهم ، كما سبق وقدم لهم نفسه .

لا تقاس قيمة أقوال السيد المسيح بطولها ؛ فإن بعضها ، وإن كان قصيراً ، إلا أنه يبدو غزير المعنى ، كالينبوع الزاخر ، فنهلت من مائه أجيال المؤمنين وعلت ، ثم راحت تمعن في النظر إلى هذا المعنى، باحثة متأملة ، مرددة عبارات يسوع في طقوس التعبد ، بينما عكف على تفسيرها علماء الدين ، وانهمكت المجامع الكنسية في استنباط أحكامها. من هذا الصنف ، كانت الكلمات العجيبة التي تفوه بها يسوع في العشاء الأخير . لقد انتظر ليقولها ، وطال انتظاره شهوراً . بل إنه استبقى تعليمه هذا، الذي يعتبر إحدى قمم رسالته، وادخره للحظة الأخيرة، حيث تتكاثف الظروف لحمل التلاميذ على إدراك مرماه ، من رهبة الساعة ، وانفعالات الوداع ، وقرب وقوع الآلام . وإذا كانت كلمات يسوع وأفعاله قد انطوت على ناحية رمزية ، تدل عليها مظاهر الطعام وكون الخبز منفصلاً عن الخمر، إلا أن هناك ناحية جوهرية فعالة، وهي التي تتميز بها الأسرار المسيحية . إن وقوفنا برهة عند الألفاظ التي استعملها يسوع لكفيل بأن يكشف لنا عما تحمله من قوة : « هذا هو جسدي .. هذا هو دمي . »

إن تشبع التلاميذ بروح الكتاب المقدس مهد لهم الإيمان بأن كلمة الله ، سواء أصدرت منه مباشرة أم على لسان الأنبياء ، تحقق دائماً أبداً ما تحمله من معان ، ولا تعود إليه ثانية إلا وقد أصبحت أمراً واقعاً وحدثاً راهناً : لذلك أحسوا بعظمة هذا السر ، الذي سينال حظاً وافراً من تفكيرهم ، والذي ما انفكت الكنيسة تحدث به أجيال

المومنين المتعاقبة على مر السنين والقرون .

هذا ويتكلم يسوع عن دم العهد ، ملمحاً إلى الميثاق الذي أبرمه الله على يد موسى ، والذي خُتِم بدم الذبائح والضحايا . أما اليوم ، وقد تغيرت الظروف ، فإن الذبيحة تعني شيئاً جديداً ، وهي تلك التضحية يبذلها الإنسان وفاء بالواجب، فيعرض حياته للموت طوعاً واختياراً ، في سبيل المبدأ أو المثل الأعلى الذي ارتضاه لنفسه . غير أن قيمة التضحية في كلتا الحالتين ، تكون وقفاً على مدى الخضوع لأوامر الله ، سيد الحياة ، ومبلغ الحب الذي تصدر عنه هذه الطاعة . سوف يحقق يسوع نبوءة أشعيا الخاصة بعبد الله ، ليصلح مع الله جميع المؤمنين به . على أن الاكل من هذا الخبز والشرب من هذه الكأس ليس إلا شركة في هذا العشاء السري ، ووسيلة للاتحاد مع المخلص ، لينال الإنسان هبة الغفران ونعمة الصلح اللتين سيستحقهما المخلص بتضحيته. ولكن يسوع لم يقصر تضحيته هذه على تلاميذه، بل شمل بها جماعات الرجال والنساء والأطفال ، الذين لم يحضروا العشاء السري في العلّية : لذلك طلب من تلاميذه أن يعيدوا في المستقبل ما صنعه هو امامهم ، متحدياً بذلك الزمن الذي يبعد الناس من ينابيع الحياة ، ولا يعرف لأعز الذكريات حرمة : « اصنعوا هذا لذكري » . (لو ٢٢ : ١٩) وبذلك ، أصبح من اليسير لجميع المؤمنين ، في كل زمان ومكان ، أن يشتركوا بدورهم في هذا السر ،سر التصالح ؛وما زال المسيحيون ،ولا يزالون يكرمون إلى أبد الدهر ، ذكرى هذا العشاء ، محتفلين به سنة بعد أُخرى ، لأنه

كان فاتحة الأحداث الرهيبة الدانية ، التي لا يمكن ان تنفصل عنه . هذا وسيذكـّر هذا السر المقدس جميع الذين يقبلون عليه بمحبة المسيح الخارقة لهم : « ليس هناك حب اعظم من ذلك الذي يدفع صاحبه الى بذل حياته في سبيل أحبائه . »

وتحدث يسوع إلى تلاميذه في هذه الليلة ، عن حبه لهم وأسهب ، وربما كان سيزيد على ذلك ويفيض ، لو أنهم كانوا قادرين على ان يعوا ويدركوا ؛ ولكنهم لم يكونوا . ولعلهم فطنوا إلى ان سيدهم كان قد عالج هذا الموضوع منـــذ سنة مضت ، فساعدتهم الذكرى على تفهم معنى هذه المصافاة وهذه الألفة التي استهدفها يسوع من دعوة تلاميذه لمشاركة أسراره المقدسة ، وهو القائل إن من يجلس إلى هذه المائدة « يثبت فيّ وأنا فيه » . (يو ٦ : ٥٧)

غير أن الزمان ينقضي بسرعة ، وها هوذا موعد الرحيل قد دنا . ولكن ألا ينبغي ليسوع ان يُعد تلاميذه للضربة القاسية التي ستنزل بهم ، قبـل ساعات معدودة ؟ فأنبأهم بأنهم سوف يتخـلون عنه جميعاً ... وينتفض سمعان بطرس للنبأ ، ويؤكد ليسوع ولاءه الأبدي .. لكنه ما كان يدرك ماذا يقول . إلا ان يسوع مضى في حديثـه الهادىء الحزين ، طالباً من تلميذه ان يعمل على تثبيت إخوانه في الايمان ، اذا ما ثاب إلى صوابه ، بعد زوال المحنة وانقشاع العاصفة . وقد كفل له بدعائه النعمة التي تؤهله للقيام بهذه الأمانة .

« سمعان سمعان ، هوذا الشيطان طلب أن يغربلكم كما تغربل الحنطة .

ولكني صليت من أجلك ، لئلا ينقص إيمانك ؛ وأنت ، متى رجعت ، فثبّت إخوتك . فقال له : يا سيد ، إني مستعد لان أمضي معك إلى السجن وإلى الموت . إلا أنه قال : إني اقول لك يا بطرس ، لا يصيح الديك اليوم حتى تنكر ثلاث مرات انك تعرفني . »

(لو ٢٢ : ٣١ — ٣٤)

ولكن هذه المحنة ، محنة الغد القريب ، لم تحجب عن يسوع محنة المستقبل البعيد ، محنة السنوات الطوال التي سيقضيها التلاميذ ، يجوبون البلدان ، ليذيعوا فيها تعاليمه . من ذا الذي سيقف بجانبهم ليكون لهم من بعده عوناً وعضداً وملاذاً ؟ فوعدهم بمعاضدة الروح القدس ، الذي وصفه بأنه (باراقليطس) آخر (اللفظة يونانية، ومعناها الذي يُستنجد به ، أو المؤيد) ؛ فالباراقليطس الاول إنما هو المسيح نفسه ، الذي كان طول مدة حياته المؤيد الاول ، المنجد الذي خف لنجدة ذويه . وكان يسوع قبل ذلك قد وعد تلاميذه بتأييد الروح القدس إذا ما حلت أيام الضيق والشدة. اما الآن ، فقد أوشك وعده أن يتحقق : ألم يتنبأ الانبياء بأن فيض الروح القدس سيكون علامة على حلول عهد المسيح؟

« إن كنتم تحبونني ، فاحفظوا وصاياي ،

وأنا أبتهل إلى الآب

ليعطيكم مؤيداً آخر ،

ليقيم معكم إلى الابد ،

روح الحق الذي لا يستطيع العالم ان يقبله ،

لانه لم يره ولم يعرفه ،

اما انتم فتعرفونه ،

لانه مقيم عندكم ، وهو فيكم . » (يو ١٤ : ١٥ — ١٧)

إن مهمة الروح القدس لن تقتصر على تذكير التلاميذ بتعاليم يسوع ، وتنوير عقولهم لفهمها ، ولكنه سيقوم أيضاً بدور المعلم ، كما أن وجوده المشرق سيكفل لتعاليمهم الصحة والأصالة .

« وأما المؤيد ، الروح القدس ،

الذي سيرسله الآب باسمي ،

فهو يعلمكم كل شيء ،

ويذكركم بكل ما قلته لكم . » (يو ١٤ : ٢٦)

ويستطرد يسوع موضحاً دور الروح القدس ، فيما بقي من حديثه ، فيبين لتلاميذه أنه لا مناص من عامل الزمن لتمام إدراك رسالته ، ولا غنى عن البحث والتفكير والتأمل، لتوطيد الإيمان وتمكينه من النفس، وذلك بمساعدة الروح القدس وبفضل نعمته وتوفيقه .

« إن لدي أموراً كثيرة ينبغي أن أقولها لكم ،

ولكنكم لا تطيقون حملها الآن .

فمتى جاء ذلك الروح الحق ،

فهو يرشدكم إلى الحقيقة كاملة ،

لأنه لا يتكلم من نفسه ،

بل كل ما يسمع يقول ،

ويخبركم بما سيأتي .

إنه سيمجدني ،

لأنه يأخذ مما هو لي ليخبركم به .

جميع ما هو للآب ، فهو لي ،

من أجل هذا قلت لكم :

إنه يأخذ مما هو لي ليخبركم به .» (يو ١٦ : ١٢ – ١٥)

هذا وعد عظيم. ولكن ينبغي أن يفهم جيداً أنه يخص الاحد عشر اولاً ، لان كلام يسوع موجه إليهم اولاً : « فالتذكير » لا يكون إلا لذلك الذي سمع الخبر وتلقى التعليم . ويذهب يسوع إلى أبعد من ذلك حين يقول لتلاميذه، إنه خير لهم أن يرحل عنهم ، لان إرسال

البراقليطس سيتم عقب ذهابه .

« إلا أني أقول لكم الحق :

إن في ذهابي خيراً لكم ،

لأني إن لم أرحل عنكم ، لن يأتيكم المؤيد ،

وإن مضيت ، أرسلته إليكم . » (يو ١٦ : ٧)

هذه الكلمات تلقي ضوءاً على شخصية البراقليطس المنتظر ؛ النصوص صريحة : لا يمكن ان يكون إنساناً . ان البراقليطس الجديد ما هو إلا روح الله نفسه الآتي ليشد أزر المؤمنين الأوائل ، ويكون عوناً لهم وظهيراً . انه منذ الآن يملأ نفوس التلاميذ ، ولكن ليس بهذا الامتلاء وهذا الفيض المميز للأزمنة الجديدة . إن العالم لا يراه ولا يعرفه . ويشهد تاريخ الجماعة المسيحية الاولى أن هبة الروح القدس مُنحت للتلاميذ يوم عيد الخمسين ، أي بعد ليلة العشاء بأقل من شهرين ، وقد روى القديس لوقا تفاصيل هذا الحدث الخطير في سفر اعمال الرسل . (أعمال ٢ : ١ – ٤)

بعد العشاء ، نهض يسوع ورتل مع تلاميذه أناشيد الشكر ، ثم غادروا العلّية ، فاستقبلهم ليل بارد الانفاس ، كما تكون ليالي الربيع ؛

في مكان مرتفع يعلو سطح البحر بسبعمائة متر . كان بدر نيسان يغمر الكون بضوئه اللبني الخلاب في حين سرت جماعـــة يسوع بمحاذاة الأسوار ، ثم انحدرت مع وادي الكدرون ، وسط أشجار الزيتون ، حيث قررت أن تقضي الليل في مكان اسمه جتسماني .

الباب الثالث عشر

من جتسماني الى الجلجلة

كانت « معصرة الزيتـــون » أو « جتسماني » ، كما كانوا يقولون ، حديقة تقع عنـــد أسفل منحدر جبل الزيتون . لم تكن مجهولة لدى التلاميذ ، فقد سبق أن باتوا هناك أكثر من مرة . وعلى أثر وصولهم ، أخذوا يعدون العدة للنوم. أما يسوع ، فأنـّى له يستسلم للنوم ، وقلبه تثقله الهموم ! هناك رسالته ، وتلاميذه ، وفتور المشاعر ، والخيانة في الظلام ، وثقل خطايا الناس .. ما أفدحه عبئاً ، يرزح تحته وينوء !.. وها هو ذا الموت يزحف إليـه حثيثاً ، ثابت الخطى ، الموت الذي لا ينجو من هلعه أكثر الناس شجاعة ورباطة جأش ؛ إنه الآن بدأ يبعث في أوصاله الرهبـة والاضطراب . سار يسوع في الحديقة ، مستصحباً أول الأمر أصفياءه بطرس وابني زبدى ، ثم تركهم وابتعـد مسافة رميـــة حجر ، وراح يصلي. إنه لقمين بأن يتوقـــع ممن أخلص لهم الود ، مواساة وتأييـداً . لكنهم لم يشعروا بالكرب المميت الذي يعانيه ، واستسلموا للنوم . جاء إليهم يسوع مرتين ، أملاً في أن يجد لديهم السند والتعزية : « اسهروا وصلوا، لئلا تدخلوا في تجربة . الروح

سريع الاندفاع ، أما الجسد فصعيف . » غير أن نداءه ذهب هباء : إنه وحيد وحدة مقفرة موحشة . فعاد إلى صلاته يقول :

« يا أبت ، إذا كان ممكناً لديك ، ابعد عني هذه الكأس . لكن ليكن لا كمشيئتي ، بل كمشيئتك . » (متى ٢٦ : ٣٩)

انقضت على صلاته اللحظات الطوال . ثم نهض يعتصر الحزن قلبه، ومع ذلك ، فإنه يشعر بالثبات والثقة . لقد انتصر على نفسه، وأمسك زمام أمره . إن أولى لحظات المحنة كثيراً ما تكون أشدها وطأة ، ثم تطفر من الأعماق قوى لم تكن في الحسبان ، فتعين النفس على مواجهة المصير .

ويشعر يسوع بوقع أقدام وبهمهمة خافتة .. إن جماعة من الناس يقتربون من الحديقة ، حاملين مشاعل ترسل أضواء راقصة تضطرب على جذوع الأشجار . يهوذا مقبل على رأس نفر من الجند والخدم ، جاءوا ليقبضوا على يسوع . ها هو ذا يقترب من يسوع ، ويعانقه مقبلاً ، جاعلاً من هذه الخيانة علامة للدلالة على يسوع ؛ فأنجز الجند والخدم مهمتهم ، وألقوا القبض عليه .وكانت لحظة سادها الاضطراب والهرج والمرج ، وبدت من التلاميذ حركة دفاع ، سرعان ما أوقفها يسوع ، فلم يصمد بعدها التلاميذ ، وولوا هاربين ، ولم يبق منهم سوى بطرس ويوحنا ، فراحوا يتتبعون الموكب عن كثب ، متوارين ، مصممين على ألا يبتعدوا عن يسوع ، ربما استطاعوا ان يفعلوا من أجله شيئاً .

ونرى هنا أنه لا مناص من التوقف قليلاً ، بعد استئذان القاريء ، لمنافشة رأي له خطره ، يتعلق بآلام المسيح وموته . إن الحوادث التي سنعرض لها لم تفهم من الجميع على حقيقتها . لقد عانت كنيسة المسيح ذاتها في عهدها الاول ، من سوء الفهم هذا ، فكانت الآلام لليهود حجر عثرة ، وحسبها الوثنيون جنوناً لا يليق بالانسان ، وهكذا حالت دون إيمانهم نظريات دينية أو فلسفية معروفة . هذا على ان أحداً من المعترضين لم يثر أية ريبة حول حادثة الحكم على يسوع وموته التاريخيين ، فهما من الوجهة التاريخية أثبت ما شملت حياة يسوع من حوادث . ولا يتردد في قبول ذلك أغلبية المفسرين الاوربيين في الوقت الحالي ، دون استثناء أصحاب المذهب العقلي غير المؤمنين . ان قدم الشهادات المتوافقة ، وأقوال الرسل الذين لم يكفوا عن التنويه بهذين الحدثين ، كل ذلك لا يترك مجالاً للشك . ومع ذلك ، فقد ظهرت آراء تزعم أن يسوع لم يمت على أيدي اعدائه . ظهرت هذه الأقوال للمرة الأولى في الأوساط الغنوصية المعروفة بالدوقيين ، في أواخر القرن الأول للميلاد ، وقد رددها المانويون ، ابتداء من القرن الثالث . أما الدوقيون ، فزعموا ان ضحية أُخرى استبدلت بيسوع على الصليب ؛ وأما المانويون ، فذهبوا إلى ان رواية الآلام ليست إلا تشبيهاً تمثيلياً ، فلا أساس لها من التاريخ . هذه الاقوال المختلفة لا تستند في الواقع إلى شهادة شاهد عيان ، وكل ما تمتاز به انها جاءت في الوقت المناسب لتخدم مباديء عقائدية كانت في حاجة إلى مثلها . ولا غرو ، فإن تعاليم الغنوصيين ، ويعتبر المانويون

من غلاتهم ، كانت تعتبر المادة اساساً لكل شر . لذلك نراهم وهم يضعون نظريتهم في اللاهوت ، يحرصون كل الحرص على أن ينزهوا المسيح من ادران المادة ، فجعلوه روحاً يكاد لا يكون متجسداً ، فليس له من الجسد سوى المظهر والشكل . فهم إذن لا يخرجون على منطق مذهبهم الوضعي ، حينما يستبعدون حقيقة الآلام المادية . إلا ان هذه الآراء لا تثبت أمام النقد : ان يسوع لم يكن مجهولاً في أورشليم. واذا كان تلاميذه قد تخلوا عنه ولاذوا بالفرار في بستان الزيتون ،فان يوحنا بن زبدى بقي له وفياً ، وشهد المأساة كلها الى نهايتها ؛ وجماعة النساء الصالحات اللواتي تبعن التلاميذ منذ الجليل ، وأبدين شجاعة فقن بها الرجال ، كنّ أيضاً حاضرات ، وشهدن موكب المحكوم عليهم وخاطبن يسوع . ثم إن تنفيذ الحكم جرى عمداً بالقرب من باب المدينة ، حسب تقاليد اليهود والرومان في ذلك العصر ، ليتمكن المارة من مشاهدته. اما مريم أمه، فقد سمعت ابنها ذاته يوجه لها الكلام من فوق الصليب قبيل تسليمه للروح . وعلاوة على ذلك ، فان تعاليم يسوع كلها ، منذ حادثة قيصرية فيلبس ، كانت ترمي إلى إعداد تلاميذه لفكرة موته . فكيف التغاضي عنها ؟ .. على أن هذا القول يستلزم ايضاً التسليم بان الله ، وهو المنزه العزيز ، قد قصد إلى خداع التلاميذ والنسوة الصالحات وأُم يسوع نفسها ، وتركهم في أوهامهم يغطون ، إلى ان جاء اخير الغنوصيون بعد خمسين عاماً ، يصلحون الأمور ويعيدون الحقيقة إلى نصابها .. إن الكنيسة الاولى لم ترض قط بهذا التخريج ، والتعليم المسيحي الذي ترتقي مصادره إلى الشهود العيان أنفسهم ، يؤكد ان يسوع حكم عليه بالموت ، ونفذ فيه الحكم

صلباً . ونحن لا نعتبر هذا الأمر مدعاة للذل ومجلبة للهوان ، بل نلمس فيه رمزاً لنبل النفس والتفاني في الحب والتضحية ، لأنه إنما فعل ذلك من أجلنا .. « ليس هناك حب أعظم من ذلك الذي يدفع صاحبه إلى بذل حياته في سبيل أحبائه . »

***

وبعد أن أوثق يسوع ، سيق إلى بيت كبير الكهنة ؛ فقد قضت الظروف السياسية في فلسطين حينذاك بأن يمثل يسوع أولاً أمام السلطات الدينية ، قبل تحويله إلى سلطات الاحتلال ، الممثلة في شخص بنتس بيلاطس . وراح الخدم وسائر من اشترك معهم في القبض عليه ، يكيلون له الإهانة والسخرية والضرب ، وكان موقف يسوع آية في الحلم وكرامة النفس . إنه لم يُدِرِ لهم خده الأيسر ، ولكنه بقي هادئاً ، لا يبدي حنقاً ولا غيظاً ، ولم يتكلم سوى مرة واحدة ، مخاطباً واحداً من المعتدين عليه ، في هدوء تام ، وكأن الأمر لا يعنيه . استجوب يسوع استجواباً سريعاً في الليل ، وكان يوحنا وبطرس قد تبعاه على مبعدة ، كما أسلفنا ، فدخل يوحنا الدار مع الداخلين ، لأنه كان معروفاً لدى رئيس الكهنة ، بينما تخلف بطرس في الساحة قرب الباب ، مع جماعة من الخدم كانوا يقفون حول نار أوقدوها للتدفئة . فتعرفوا عليه بأنه جليلي ومن أتباع يسوع ، لكنه استولى عليه الذعر والخوف ، فاندفع يكرر إنكاره ليسوع ، مقسماً أنه لا يعرف هذا الرجل ألبتة . وإذا ديك يصيح ، ويسوع يلتفت إلى بطرس ، فتذكر كلام سيده :

« إنك قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات . فخرج من الساحة وبكى بكاء مراً . » (لو ٢٢ : ٦٠ – ٦٢)

وفي الصباح الباكر ، التأم شمل المحفل الأكبر ، وكان يعتبر السلطة العليا في الامة ، ويضم إلى جانب الحبر الأعظم ورؤساء الكهنة ، نفراً من الكتبة وشيوخ الشعب. كانت مهمته النظر في التهم ، وإصدار الحكم على المتهمين ، دون أن يكون له حق تنفيذ عقوبة الإعدام ، لكونها من اختصاص الوالي. سبق أن رأينا كيف أن يسوع عندما كان في الهيكل منذ بضعة أيام ، تحاشى الإجابة الصريحة على سؤال رؤساء الكهنة عن نشاطه ومصدر سلطته . أما اليوم ، وقد تغيرت الظروف تماماً ، رأى يسوع أنه لم يعد للتهرب مجال ، وأن وقت الإجابة الصريحة الكاملة قد حان : الموقف رسمي والكلمات التي سيدلي بها سيكون لها أكبر الخطورة والأهمية ، ومأساة يسوع ستبقى غامضة مغلقة ، ما لم نُولِ أقواله أمام المحفل ، ثم أقوال كبير الكهنة ، كل اهتمامنا .

عقدت الجلسة وسارت سيراً حثيثاً عاجلاً ، وكانت الرغبة في أن يتم كل شيء ، قبل العيد كفيلة بتبرير هذه العجالة . أما ما ذهب إليه البعض من وجود تشريع يقضي ، في حالة الحكم بالموت ، بوجوب عقد جلستين ، يفصل بينهما أربع وعشرون ساعة ، فذلك تشريع لم يظهر إلا بعد موت يسوع بخمسين عاماً ، ولم يثبت إلى الآن وجوده قبل ذلك . وأبرز الشهود وتقدم منهم اثنان ، فشهدا أنه قال بتدمير الهيكل ، وبإعادة تشييده في ثلاثة أيام . وهذه التهمة تعني مؤاخذة يسوع على ما يعتبر تهاوناً بالغاً او نوايا عدائية فيما يتعلق بقدسية الهيكل ،

وبالتالي بالله ذاته ، الذي أوقف الهيكل على عبادته . ولكن اقوالهما جاءت مختلفة متناقضة . واخيراً ، نهض كبير الكهنة وقال في موقف رسمي مهيب :

« أما تجيب عما يشهد به هذان عليك ؟ وأما يسوع فبقي صامتاً . فقال له رئيس الكهنة : أقسم عليك بالله الحي ، ان تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله ؟ فقال له يسوع : أنت قلت . وأيضاً اقول لكم ، إنكم من الآن سترون ابن البشر جالساً عن يمين القدرة ، وآتيـــاً على غمام السماء . » (متى ٢٦ : ٦٢ — ٦٤)

وهكذا أكد يسوع ، في مقام رسمي ، وعلى مشهد من أعلى سلطات أُمته ، ما سبق ان قاله في مقام خاص لتلاميذه عند قيصرية فيلبس ، كما أكد صحة ما ترك النـــاس يقولونه في موكب الشعانين ، أنه هو المسيح . ولكنه أردف على الفور ان مقامه إلى جـــوار الله ، أي في مرتبة أسمى وأرفع من مرتبة أي مخلوق . في هذا السياق ، فإن لقب ابن البشر الذي كثيراً ما أطلقه يسوع على نفسه ، يبرز بكل معناه : إنه يشير إلى ما تنبأ به دانيال النبي عن ابن البشر ، شخصية الأزمنة المستقبلة ، القادم على متن غمام السماء الذي قال عنه :

« وأُوتي سلطاناً ومجداً وملكاً ،

فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه ،

وسُلطانه سلطان أبدي لا يزول ،

وملكه لا ينقرض . » (دانيال ٧ : ١٤)

ارتعدت فرائص كبير الكهنة واستولى عليه السخط والغضب ؛ ولو أن يسوع زعم أنه المسيح وحسب ، لهان الخطب ، ولما اعتبر جوابه تجديفاً ، ولكنه تورط في ادعائه أنه أكثر من إنسان ، بل أكثر من مجرد مخلوق . إن غضب كبير الكهنة ليبين إلى أي مدى أعتبر كلام يسوع خارقاً ، غير معقول ، لا يمكن أن يقبل بحال من الأحوال . ولنلاحظ أن يسوع سبق أن نطق بهذا الكلام ذاته في الهيكل ، في مناسبتين مختلفتين ، في الشتاء السابق ، حين صرح بأنه هو وأباه « واحد » . بسبب هذه الكلمات حكم عليه بالموت .

« حينئذ شق رئيس الكهنة ثيابه وقال : لقد جدف ، فما حاجتنا بعد إلى شهود ! ها إنكم قد سمعتم تجديفه ، فماذا ترون ؟ فأجابوه وقالوا : إنه يستوجب الموت . حينئذ بصقوا في وجهه ولكموه ، وآخرون صفعوه على وجهه قائلين : تنبأ لنا ، أيها المسيح ، من الذي ضربك . »

(متى ٢٦ : ٦٥ — ٦٨)

وتعاقبت الأحداث حثيثة الخطى ، يأخذ بعضها برقاب بعض ، وكأنها قدر لا يدفع . فبعد أن فرغت السلطة الدينية من نظر القضية ، جاء دور السلطة الرومانية الحاكمة . رفع اليهود القضية أمام الحاكم الروماني في مهارة ودهاء ، كأن الأمر لا يعدو أن يكون فتنة سياسية مدبرة ضد سلطان قيصر ، متذرعين بأن يسوع ادعى الملك ، ملك إسرائيل . تردد بيلاطس أول الأمر ، وحاول أن يراوغ ويساوم : إنه

خبير بالرجال، والرجل الذي يقف أمامه ليس من شاكلة المخربين الثوار.

« قال له بيلاطس : أنت إذن ملك ؟

أجاب يسوع : أنت قلت إني ملك .

لهذا ولدت ولهذا أتيت إلى العالم ،

لاشهد للحق ؛

فكل من كان للحق يسمع صوتي .

فقال له بيلاطس : « وما هو الحق ؟ » .

(يو ١٨ : ٣٧ - ٣٨)

كان بيلاطس ينظر إلى هذه المسائل اليهودية بعين الروماني العريق، أي في إستعلاء واستخفاف . فكل ما يتمناه اليوم ، ان يوفق في تجنب المضاعفات والتطورات غير المأمونة الجانب ، مع السعي لإنقاذ المتهم من الموت . وما كاد يعلم بأن يسوع جليلي ، حتى وجد في الخبر منفذاً لإخلاء مسؤوليته ، فأمر بإرسال يسوع الى هيرودس رئيس الربع على الجليل ، وكان قد صعد إلى اورشليم لقضاء أيام العيد . ولكن المقابلة لم تسفر عن أية نتيجة ، فقد لاذ يسوع بالصمت المطبق ، مثيراً بذلك سخرية هيرودس ، وزراية حاشيته ، ولم يلبث ان أعيد إلى بيلاطس، مشيعاً بعبارات الاحتقار والذل . حاول بيلاطس عندئذ ان يقوم بترضية الشعب : فقد جرت التقاليد بأن يفرج لهم عن سجين ، بمناسبة

العيد ؛ إنها وسيلة لجأت إليها سلطات الاحتلال لاستمالة الشعب وكسب ولائه ؛ انتهزها بيلاطس فرصة ، وعرض على الشعب إخلاء سبيل يسوع ، وقد لقبه بملك اليهود . ولكن خاب فأله : فأجابه دوي أصوات المتظاهرين المحتشدين حول مبنى الولاية ، يطالبون بإطلاق سراح سجين آخر ، يدعى براباس ، وكان زعيم عصابة ، زج به في السجن بتهمة ارتكاب أعمال العنف واللصوصية ؛ أما يسوع ، فعلا صراخهم بأن إصلبه .

ورغم الصخب والضوضاء ، حاول بيلاطس مرة ثانية إخماد سورة الحقد والعداء التي يشعر بأنفاسها المحرقة تصل إليه . فأمر بجلد يسوع ، ثم أتى به إليهم وقد زف في زي ملكي مزرٍ ، فوضع فوق رأسه تاج من الشوك ، وعلى كتفه عباءة من الأرجوان ، أملاً في ان يدرك الجمهور أن مثل هذا الرجل لم يعد له خطورة ولا شأن . ولكن هيهات ! لقد بلغ الأمر مرحلة لم يعد معها هذا التمثيل المهين بذي نفع ، والمنزلة التي كان يحتلها يسوع ، لأرفع من أن تنال منها هذه الثياب الغريبة ؛ فلم يشعر أحد بالرغبة إلى الضحك أو إلى الترحم ، وتضاعفت صيحات الكراهية قوة وضجيجاً . أما أشياع يسوع فقد تملكهم الهول وأسقط في يدهم ، في حين صار الرعاع في قبضة السلطات الدينية ، لا يرضون بقرار الموت الذي نطق به المحفل الأكبر بديلاً . الموقف ينذر بالانفجار : أحس بذلك بيلاطس . ان تعصب العامة قد يطلق شرارة الفتنة لأوهن الأسباب : فخرّت مقاومته واستسلم . ولكنه أبى إلا أن يعلن

بغسل يديه أمام الجموع ، انه يستنكر هـذا الحكم الذي سوف يأمر جنوده بتنفيذه . موقف تخجل منه المروءة والشهامة : إنه لا هم له إلا تجنب الأحداث التي قد تسيء إلى مصالح روما ، بقدر إساءتهـا إلى مصلحته الخاصة وإلى بقائه في المنصب . لقد جمع بيلاطس بين مذهب الشك تجاه الحقيقة ، والاستهتار بحياة الناس ، ما داموا لا ينتمون إلى جنس الشعب المستعمر الحاكم .

أما يهوذا ، فأخذ يدرك ، بعد فوات الأوان ، هول ما اقترفه من جرم ؛ فحمل إلى رئيس الكهنة ثمن الدم الذي تلقاه منه ، ثم استسلم لليأس ، وانتحر ، دون ان يفطن إلى أن خطيئة الانسان العظمى ان يتوهم أن خطاياه تربو على رحمة الله . وبهذه النهاية المؤلمة أُسدل الستار على مأساة من مآسي الضمير ، ظلت وقائعها سراً حملته ضحيتها معهـا إلى القبر .

ما زال الوقت صبحاً . ومع ذلك، كان عليهم أن يتوخوا السرعة ، لأن العيد ، على حسب التقويم الرسمي، سوف يبدأ مع غروب الشمس. فحضرت ثلة من الجنود الرومان ، وتسلمت المحكوم عليهم بالإعدام ، وكانوا ثلاثـة ، يسوع ولصين تقرر أن يصلبا معه . إن الساعات التي تليت ، شهدت أروع أمثلة الوداعة والرقـة والشفقة المتناهية ، ضربها ذلك الذي علـّم الناس مذهب عدم العنف ، وعمل بمقتضاه : لقد عانى وسيعاني من الآلام ما يثير وصفها الحزن الممض ويستدر الدمع الحار .

كان أحد أهداف عقوبة الإعدام إنزال الرعب في قلوب الذين قـد

تحدثهم أنفسهم بالتمرد على القانون أو السلطة. فكانوا يعملون على عرض المحكوم عليهم على الأنظار ، بالسير بهم في الطرق الآهلة ، قبل الوصول إلى مكان تنفيذ الحكم . فطاف موكب يسوع في طرق تزخر بالناس ، يتقاطرون من كل صوب ، والجنود يدفعونهم ، ليفسحوا للموكب الطريق . كان منظر يسوع يثير الوجوم والذهول ، ولم يجرؤ على سبه إلا الرعاع ، تزلفاً إلى السلطات . وبلغ الإعياء بيسوع أن لم يعد يقوى على حمل الخشبة الغليظة التي سيصلب عليها ، فأوقف الجند فلاحاً كان عائداً من الحقل ، اسمه سمعان القيرواني ، وسخروه لمساعدته . وبلغ الموكب أحد أبواب المدينة ، فاجتازوه ليرتقي ربوة من الصخر كانت منتصبة خلف السور ، تستشرف الطريق وما جاورها من بساتين، تسمى الجلجلة ، أي الجمجمة ، لشيء من المشابهة البعيدة بينهما . ثم خلع الجند عن يسوع ثيابه ، وتقاسموها فيما بينهم . وقال عندئذ يسوع : « يا أبتاه . أغفر لهم ، فإنهم لا يدرون ما يعملون . » (لو ٢٣ : ٣٤) في هذا المكان صلب يسوع بين اللصين . ووضع الجند فوق رأسه لوحة مكتوباً عليها : « يسوع الناصري ملك اليهود . »

وكان الناس لا ينقطع سيلهم ، يمرون أمامه رائحين غادين ؛ وصعدت إليه عبارات السخرية والاستهزاء والتشفي ، ودون أية مرعاة للآلام المبرحة التي يعانيها هؤلاء الرجال الثلاثة المصلوبون ، طالبوه بالمعجزة : « ليـنزل الآن عن الصليب لنرى ونؤمن » . ولكن ، أيعمل بأقوال الشامتين ، ذلك الذي لم يشأ أن يحول الحجارة خبزاً ليسد به جوعه ؟ لقد وهب جسده ودمه في الليلة السابقة ، تكفيراً عن خطايا كثيرين ،

فلن يعود اليوم ليسحب كلمته ، وقد دخلت في طور التنفيذ .

«وكان أحد المجرمين المصلوبين يجدف ويقول: أن كنت أنت المسيح، فخلص نفسك وإيانا معك . فأجاب الآخر ونهره قائلاً : الا تخشى الله، أنت المشترك في هذا القصاص؟ أما نحن ، فبعدل ، لأننا نلنا ماتستوجبه أعمالنا ، وأما هذا فلم يرتكب إثماً . ثم قال ليسوع : أذكرني يا سيد ، متى جئت في ملكوتك . فقال له يسوع : الحق أقول لك، إنك اليوم تكون معي في الفردوس . » (لو ٢٣ : ٣٩ — ٤٣)

وكانت النساء اللواتي تبعن جماعة التلاميذ منذ الجليل يقفن على مقربة ويشاهدن ما يحدث . وفي لحظة من اللحظات ، استقر نظر يسوع على أُمه ، وكانت قد دنت من الصليب، وبجانبها يوحنا بن زبدى ، يساندها ويقاسمها لوعة الأسى ؛ فجمع يسوع قواه ليخاطبها : فعهد بأمه إلى يوحنا ، وطلب من امه أن تعتبر يوحنا ابناً لها . وكانت التقاليد تقضي بأن يقدم للمحكوم عليهم شراب مخدر تعدّه سيدات مشهود لهن بالتقوى . ولكن يسوع ، برغم الظمأ الذي برح به ، رفض الشراب الذي قدم إليه . وعندما دنا الأجل وحلت اللحظات الأخيرة ، سمعت منه صرخة مدوية ، ما زالت تحير القارىء الذي لم يفطن إلى مصدرها: « إلهي ، إلهي ، لِمَ تركتني ؟ » . إنها صرخة النفس الموقرة بالآلام وقسوة العذاب ، ولكنها لم تكن صرخة يأس وقنوط : فيسوع يتمثل هنا بالكلمات الأولى من المزمار ٢٢ (٢١) ، معلناً أنه قد حقق بملء إرادته نبوءة هذا النص المقدس ، الذي ينتهي على نفحة من الرضى والثقة في الخلاص بعد المحنة .

وعند الظهر ، تلبدت السماء وتجهمت ، وكانت إلى تلك الحين صافية رائقة ، وكأن الهواء اصبح حجاباً كثيفاً مظلماً : ففي هذه الفترة من السنة ، تهب رياح من الصحراء ، تملأ جنبات الجو بغبار من الرمل الناعم الدقيق ، الذي يجعل التنفس أمراً عسيراً مؤلماً ؛ وقد شوهدت سحب الرمال هذه وقد بلغت من الكثافة والعنف ما جعلها تنتشر كالستار الاحمر الكالح بين السماء والأرض . واستبد بالحاضرين إحساس بالرهبة المقدسة عندما صرخ يسوع بصوت عظيم ، ثم أسلم الروح ، وكان ذلك عند الساعة التاسعة حسب التوقيت القديم ، (أي الثالثة بعد الظهر) . وفي اللحظة ذاتها ، انشق حجاب الهيكل نصفين ، وزلزلت الأرض .

وقصد بيلاطس واحد من أَعضاء المحفل الأكبر ،هو يوسف الرامي ، وكان رجلاً صالحاً ، لم يوافق على حكم المحفل على يسوع ، ، فاستأذن الوالي في إنزال جسد يسوع من الصليب لدفنه . فعجب بيلاطس من سرعة موت يسوع ، وأمر بان يُطعن بحربة في صدره ،زيادة في التأكد من موته . فخرج للوقت من جنبه المطعون سائل شفاف كالماء ،ينزف من غشاء البلورة ، ودم تصبب من الشريان الأجوف : ان الموت بالصلب شيء هائل يثير النفور والاشمئزاز ؛ لأن تعليق المحكوم عليه من اليدين سرعان ما يؤدي إلى تصلب عضلات التنفس ويشل حركات الصدر ، فكان لا مناص للمصلوب ، كلما أراد ان يتنفس ، من ان يعتمد على رجليه ويديه المثقوبتين ، ليعدل صدره في مجهود مضن ، لا ينقطع إلا مع الموت . ويرى الاطباء ان هذا يؤدي إلى اضطرابات في

الدورة الدموية داخـل الرئتين ، وإلى ظهور السائل في غشاء البلورة . ولما جاء الجند ، وجدوا أن اللصين ما زالا على قيد الحياة ، فكسروا ساقيهما ، استعجالاً للموت قبل حلول العيد ، فحـال الكسر دون تمكينهما من الانتصاب للتنفس ، فماتا اختناقاً في بضع دقائق . ما أشد قسوة الإنسان ، التي ترضى بمثل هذا التعذيب ، والتي تفل من ضراوتها العصور ! وكل ما في الأمر أنها في تلك العصور الغابرة ،ما كانت تشعر بالحاجة إلى التستر والخفاء ،في حين يحرص الانسان المعاصر على الظواهر وكثيراً ما يدفعه رياؤه الكريه إلى تغطيـة جرائمـه التي تفوق جرائم السلف وحشية وقسوة . إن يسوع ، بموته هذا ، وضع نفسه في عداد الضحايا ، وان هـذا الموت لأبلغ أثراً من الكلام البليغ في لفت نظر الإنسان إلى عوامل القسوة الكامنـة في قلبه ، والتي كثيراً ما تخلق منه جلاداً يسوم الأبرياء مر العذاب .

أُنزل جسد يسوع من فوق الصليب ، ودفن على وجه السرعة في قبر جديـد ، كان يملكه يوسف الرامي على مقربة من مكان الصلب . وأقبل الليل ، وهو أول السبت ، سبت العيد ، حيث كل عمل محرم . وأقام الرومـان حرساً على القبر ، بنـاء على طلب السلطات اليهودية ، خشية وقوع أية حركة يقوم بها أتباع يسوع . ولكن ، أنـّى للإنسان ان يتصدى بالقوة لما قـدّره الله .

الباب الرابع عشر

القيامة

« سأضرب الراعي وتتبدد الخراف » . ها هي ذي نبوءة زكريا ، التي ذكّر بها يسوع تلاميذه ليلة العشاء السري ، قد تمّت بحذافيرها . ولم يتطلب الإعصار الذي هب على التلاميذ أكثر من أربع وعشرين ساعة ، ليحطم ما كافح يسوع أكثر من سنتين في إنشائه . مرت الساعات الطويلة ، بطيئة على التلاميذ ، وهم يقضون مساء الجمعة ويوم السبت ، في انكسار وذهول ، لعجزهم عن إدراك مغزى الأحداث . الخوف يقيد حركاتهم ، عسى أن يكتشف أمرهم فينالهم مكروه . الحياة عادت إلى مجراها في المدينة ، ومعها الهدوء ؛ ولكن ، ما أهمية ذلك ، وقد قتل معلمهم ؟ ان الحجاج يطلقون العنان لمشاعر الفرح والبهجة بالعيد ، بينما هم في كآبة يصمتون ، ومن هولهم يحتجبون . لا شك أن هذه الأحداث صدمت مشاعر الحجاج ، وأضحت مادة أحاديثهم وموضع تساؤلهم ونقاشهم ، وقد عجزوا عن أن يتصوروا ذلك الذي استمعوا إليه جميعاً في الهيكل ، في مناسبة أو في أخرى ، منذ وقت قريب ، رفاة يضمها اللحد .

غير أن عـدداً من النسوة التقيات اللواتي تبعن يسوع ، لم يستسلمن لهذه الخواطر الكئيبة . ألأن النساء غالباً ما يبدين في مثل هـذه الظروف جلداً وشجاعة يفوقان ما للرجال ؟ ربما كان ذلك لانشغالهن بالاستعدادات اللازمة لتحنيط جسم يسوع وتطييبه ، فأنساهن واجب الوفـاء كل ما سواه . كان من بينهن مريم أم يعقوب قريب يسوع ، وسالومة أم يوحنا ويعقوب ابني زبدى ، ومريم المجدلية ، وكانت قـد هجرت حياتها الآثمة وسلكت طريق التوبة والصلاح — منـذ بضعة شهور [١] . ولمـا مالت شمس السبت إلى المغيب ، ورفعت محرمات السبت ، قامت النسوة الثـلاث ، وذهبن إلى الباعة يبتعن الحنوط لتطييب جسد يسوع . ولما حالت الظلمـة دون ذهابهن إلى القبر ، في مساء ذلك اليوم ، تعاهدن على إنجاز المهمة في الغد الباكر .

كان للحوادث التي شهدتها النسوة ، صباح يوم الأحـد ، أثر زاد إدراكهن لشخصية المسيح وضوحاً وعمقاً . وتلك كانت حـال جموع التلاميذ الذين شاهدوا ايضاً تلك الأحداث ، في الأيام التالية ،وعددهم يربو على الخمسمائة ، وأغلبهم كان لا يزال على قيد الحياة ، بعد هـذه الأحداث بعشرين عاماً . الواقع ان كل ما رأوه من حياة يسوع ومـا سبق ان تنبأ هو به ، كان فيه الكفاية والفضل ،إلا أن الحقيقة ستنجلي الآن ، ساطعة ، لا مجال للشك فيها ، على ضوء الظروف الجديدة ومـا تطور إليـه الموقف أخـيراً . وإيمان الكنيسة يستند الى شهادة هؤلاء

(١) يغلب على الظن ان مريم المجدلية لا تمت بصلة الى مريم اخت مرتا ولعازر ، ويبدو ان الخلط الذي وقع فيه بعض المفسرين في الغرب ليس له ما يبرره .

الشهود ، تلك الشهادة التي تناقلتها الاجيال المتعاقبة إلى اليوم .

كانت القبور قديماً في فلسطين تنحت في الصخر على شكل أقبية تسد فوهتها بقطعة دائرية من الصخر ، تشبه حجر الرحى ؛ اذا ما تدحرجت ، كشفت عن الفوهة لمن يريد الدخول . وكتلة الصخر هذه ضخمة ، لا تقوى على إزاحتها ثلاث من النسوة ؛ لذلك كنّ في حيرة من أمرهن وهن في الطريق . إلا أنهن ، عند وصولهن ، وجدن الحجر قد دحرج ، والقبر فارغاً خالياً . عندما علم بطرس ويوحنا بالنبأ هرعا إلى القبر ، ليتحققا من صحة الخبر . انه دون شك المكان الذي وضع فيه جسد يسوع ، وهذا هو الكفن والمنديل ، ملقيان في الداخل . عندئذ فقط ، خطرت ببالهما الكلمات التي تنبأ بها السيد المسيح ، مشيراً إلى قيامته . وفي هذه الأثناء ظهر ملاك للنسوة وذكّرهن بأقوال يسوع . ولكن فرحتهن الغامرة لم تكن خالية من الاضطراب : هل هذا كله صحيح ؟ ألا يكنّ ضحايا الأوهام وتوتر الأعصاب ؟

إلا ان يسوع ما لبث أن ظهر لتلاميذه ، وقد كرر ظهوره لهم ، وهم مجتمعون او على انفراد ؛ تحدث إليهم وأكل معهم ، وهو يريهم جسده ويدعوهم إلى ملامسته ، ليزيل ترددهم ويبدد اضطرابهم . ظهر يسوع مرات عديدة في مختلف الأماكن والمناسبات ، رأته مريم المجدلية في البستان ، بجوار القبر وتحدثت إليه ؛ وشاهده تلميذان كانا منصرفين من اورشليم في صبيحة يوم الأحد ، بعد ان اخبرا بخلو القبر ، فلحق بهما يسوع وهما في طريقهما إلى عماوس ، وتجاذبا معاً أطراف الحديث ، وفي عماوس توقفا في الخان ، ولما كسر يسوع الخبز انفتحت أعينهما وعرفاه ، ولكنه غاب عنهما ، فنهضا

للحال عائدين إلى أورشليم ، والسعادة تملأ قلبيهما ، ليزفا إلى التلاميذ هذه البشرى السارة . ومرة أخرى ، يفاجيء يسوع التلاميذ المجتمعين في مساء يوم الأحد ، ويظهر أمامهم في العلّية ، رغم الابواب المغلقة خوفاً من اليهود . وقد روى القديس يوحنا هذا الحادث بقوله :

« جاء يسوع ووقف في وسطهم ، وقال لهم : السلام معكم . ولما قال هذا ، أراهم يديه وجنبه . ففرح التلاميذ حين أبصروا الرب. وقال لهم ثانية : السلام معكم .

كما أرسلني الآب ، كذلك أنا أُرسلكم .

ولما قال هذا ، نفخ فيهم وقال لهم :

تقبلوا الروح القدس ،

من غفرتم خطاياهم تغفر لهم ،

وإن أمسكتم خطاياهم تمسك لهم .» (يو ٢٠ : ١٩ – ٢٣)

لم تتحقق مخاوف التلاميذ : فقد كانت السلطات الدينية في شغل عنهم بنبأ القبر الخالي ، وضرورة إيجاد تفسير لذلك ، يلقنوه الشعب. لا ينبغي أن يعلم أحد أن الحراس اصابهم الرعب وأصبحوا كالأموات عندما هز الزلزال الأرض ، وانهم لاذوا بالفرار لما انفتح القبر . وعمل إغراء المال عمله ، فراح الحراس يشيعون في المدينة أن تلاميذ يسوع

سرقوا جسده ليلاً ، وحملوه إلى حيث لا يدري أحد ، ويشهد القديس متى بأن القصة كانت ترددها الألسن وهو يدوّن إنجيله ، أي بعد انقضاء ثلاثين عاماً على تلفيقها . وهي تبدو مغرية أول الأمر، ولكنها في الواقع تثير من المشاكل أكثر مما تحل.إنها تضع صدق التلاميذ موضع الشبهة والاتهام ، في حين أن كل ما نعلمه عنهم يجعلهم بمنأى عن هذه التهمة الرخيصة . وهي ، من جهة أُخرى ، لا تفطن إلى أن الوقت الذي اختير لتنفيذ هذه المؤامرة الخطيرة ، التي تتطلب بأساً ودهاء ، وقت غير مناسب ألبتة ، لأن التلاميذ كانوا عندئذ في أحط دركات اليأس والقنوط والجبن .

وعلى كل ، فإن تفسيراً كهذا لا يغري إلا أولئك الذين لا هم لهم سوى استبعاد كل ما هو فوق الطبيعة ؛ ولكنه لا يؤثر في عقل المؤمن الذي يسعى وراء الحق .

عندما ظهر يسوع لتلاميذه مجتمعين في مساء يوم قيامته ، لم يكن توما ، وهو واحد من الأحد عشر ، موجوداً معهم ؛ وأبى أن يصدقهم لما رووا عليه خبر ظهور السيد المسيح :

« وقال لهم : إن لم أعاين أثر المسامير في يديه ، واضع أصبعي في موضع المسامير ، ويدي في جنبه ، لا أؤمن . وبعد ثمانية أيام ، كان التلاميذ ايضاً في الدار ، وتوما معهم . فأتى يسوع ، والابواب مغلقة ، ووقف بينهم وقال : السلام معكم . ثم قال لتوما : هات اصبعك إلى ههنا ، وعاين يدي ، وهات يدك وضعها في جنبي ، ولا تكن منكراً

بل مؤمناً . »   (يو ٢٠ : ٢٥ — ٢٧)

وتنهار عندئذ مقاومة تومـــا وتنطلق من شفتيه ، بل ومن قلبه ، كلمات غاية في القوة، وجهها إلى يسوع ، معترفاً بمركزه الفريد ، كلمات أصبحت بموافقة يسوع عليها ، بمثابة مسك الختـام لكل ما سلف في الإنجيل من وصف لشخصية يسوع :

« أجاب توما وقال له : ربي وإلهي . قال له يسوع :

لأنك رأيتني ، يا توماً ، آمنت :

طوبى للذين لم يروا وآمنوا . »   (يو ٢٠ : ٢٨ ، ٢٩)

ظهر يسوع لتلاميذه ،بعد ذلك على شاطيءبحيره طبرية في الجليل، وكانت الحاجة إلى القوت والسعي وراء الرزق قد دفعت بعضهم إلى العودة إلى ممارسة مهنتهم الاصلية وهي الصيد.خرج إذن بطرس في سفينته ، بصحبة بعض الرفاق ، ودأبوا على العمل طوال الليل ، دون جدوى . ولما طلع الصباح ، جاء يسوع إلى الشاطيء ، ولم يتبينوه ،لبعد الشقة، وصرخ قائلا لهـم ان يلقوا شباكهم عنـد الجانب الأيمن من السفينة . فما ان فعلوا حتى أصابوا صيداً ما كانوا ليحلموا بمثـــله . ولما شرعوا يسحبون الشباك إلى الشاطيء ، تبين ليوحنا ابن زبدى أن المتحدث إنما هو يسوع نفسه ، فألقى بطرس بنفسه في الماء سابحـاً إلى يسوع ، ثم وصل الباقون الى الشاطيء ، وجلس الجميع واستراحوا مدة ، وأكلوا خبزاً وسمكاً .

وبعد ان فرغوا من تناول الطعــام ، أراد يسوع ان يثبت سمعان بطرس في السلطات التي كان قد منحه إياها من قبل ، فخاطبه قائلاً :

« يا سمعان بن يوحنا ، أتحبني اكثر من هؤلاء ؟ أجابه قائلاً : نعم يا رب ، أنت تعلم أني أحبك . قال له إرعَ خرافي . ثم قال له ثانيــة : يا سمعان بن يوحنـــا ، أتحبني ؟ فأجابه : نعم يا رب ، أنت تعلم أني أحبك . قال له أرع خرافي . وقال له ثالثة : يا سمعان بن يوحنـــا ، أتحبني ؟ فحزن بطرس لأنه قال له للمرة الثالثة أتحبني . فقال له : يا رب أنت تعلم كل شيء ، وأنت تعلم أني أحبك . فقــال له يسوع أرع غنمي . » (يو ٢١ : ١٥ – ١٧)

ان اقوال بطرس تشهد له بإخلاصه لسيده ، ويسوع يقبلها تكفيراً عن إنكاره السابق ، ويعلن عفوه عن ذنبه . واستطرد يسوع ، منبئاً بأنه سيأتي يوم يُلقى فيه القبض عليــه ، ويساق الى الموت شهادة له . وإذ سأله بطرس عن مصير يوحنا بن زبدى ، جـــاء جواب يسوع غامضاً : الأمر لا يخص أحداً سوى يوحنا ذاته .

ان هذه المقابلات الخارقة التي تمت بين يسوع وتلاميذه، بالرغم من قلة عددها ، كانت كافية لإعادة الثقة والشجاعة إلى نفوسهم . إنهم لعلى يقين الآن من ان سيدهم ومخلصهم قد غلب الموت . اما نبوءاته ، فهي تتحقق تحت أعينهم ؛ وأما سالف أقواله ، فإنها تبرز في كامل معناها على ضوء ما جرى من حوادث : : فالهيكل الذي سيبنيـــه في ثلاثة أيام ، إنما هو جسده ؛ تلك الأيام الثلاثة التي تغيّب فيها يونان ، فهي

إشارة جلية إلى المدة التي بقي فيها جسده في القبر . إنهم الآن يعيشون فجر الأزمنة الجديدة ، وسوف يحملون على عاتقهم عبء الشهادة على كل ما رأوا وسمعوا ، بعد اللقاء الأخير مع سيدهم على هذه الأرض . إنها رسالة ملكوت السماوات ، يجب ان يبشروا بها المسكونة كلها . وهذا الطابع العالمي الذي يميز الانجيل ،وهو من صميم تعاليم المسيح ، نلمسه مؤيداً بما لا يحتمل اللبس في أحاديث يسوع الأخيرة مع تلاميذه :

« إني قد أُعطيت كل سلطان في السماء والأرض . اذهبوا الآن ، وتلمذوا كل الأمم ، معمدين أياهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به ، وها أنا معكم كل يوم إلى منتهى الدهر . » (متى ٢٨ : ١٨ — ٢٠)

وبعد أن قضى يسوع أربعين يوماً يظهر فيها لتلاميذه مراراً ويحدثهم عن ملكوت السماوات ، اجتمع بهم للمرة الأخيرة في أورشليم ، وجلسوا إلى الطعام معاً .

« وفيما هو يأكل معهم ، أوصاهم بألا يغادروا أورشليم ، بل أن ينتظروا فيها ما وعدهم به الآب ، كما سبق أن أخبرتكم . إن يوحنا إنما عمد بالماء ، أما أنتم ، فستعمدون بالروح القدس ، بعد أيام قليلة . »

(الأعمال ١ : ٤ ، ٥)

ثم نهضوا ، وخرجوا من أورشليم ، ووجهتهم بيت عنيا ، قاصدين جبل الزيتون . وسأله التلاميذ قبل أن يغادرهم ، متى سيتحقق الملك

الذي سيكون للمسيح بن داود حسب وعد الله السابق ؟

« فقال لهم : ليس لكم أن تعرفوا الأوقات والأزمنة التي قررها الآب بقدرته ، لكنكم ستنالون قوة الروح القدس الذي يحل عليكم ، وتكونون لي شهوداً في أورشليم وجميع اليهودية والسامرة إلى أقصى الأرض .

ولما قال هذا ، ارتفع عن أنظارهم ، واخفاه الغمام عن عيونهم . »
(الأعمال ١ : ٧ — ٩)

وانحدروا من الجبل ، عائدين إلى أورشليم ، حيث راحوا ينتظرون فيض الروح القدس ومعمودية الروح الكبرى التي سينعمون بها يوم عيد الخمسين . إن الروح القدس ، البراقليطس ، بحلوله عليهم بعد أيام قليلة ، سيجدد قلوبهم ، ويبعث فيها القوة لأداء رسالتهم ، حتى أقصى حدود الأرض . ولكن ، لا يغيب عن بالهم ان مدة أداء رسالتهم على الأرض ، ما هي إلا استعداد وتأهب ، وان فترة احتجاب يسوع عن الأنظار ، ستنتهي يوماً ما ، مهما طال الترقب والانتظار ؛ وحينئذ سيراه جميع البشر ، عائداً في مجد أبيه ، ليدين الاحياء والاموات . هذان هما الوعدان اللذان بشّر بهما يسوع تلاميذه : هبة الروح القدس ، البراقليطس ، وعودة يسوع في آخر الازمنة ؛ تحقق الاول بعد صعوده بعشرة أيام ؛ وأما الثاني ، فسوف يعيش عليه رجاء الاجيال المسيحية ، وستظل الكنيسة ساهرة تترقب عودة المسيح ، متمثلة بالعذارى المتدبرات في

مثال العرس ، اللواتي أخذن زيتاً في إناء مـــع مصابيحهن ، وبالخادم الأمين الذي لا تغمض له عين ، ما دام سيده غائباً لم يعد بعد .

متى ستكون عودته ؟ أفي القريب العاجل ؟أم بعد آلاف السنين؟ هذا علم الله وحده . وما الذي يعود علينا من معرفة اليوم والساعة ؟ الأمر الوحيد الجدير باهتمامنا هو تلك السعادة التي سيتمتـع بها عندئذ أولئك الذين يجدهم الرب مستعدين ، إذا ما أتى ليدعوهم إليه .

***

ها هي ذي فترة الانتظار ، انتظـــار عودة المسيح ، قد حلت ، مغايرة تماماً للفترة المنصرمة التي عرضنا حوادثها في هـــذا الكتاب . والآن ، فان التلاميذ يشعرون بحاجة ملحـــة إلى الاعتكاف ، ولو بضعة أيام ، للتأمل في كل ما سبق ، مركزين ابصارهم على الله ، الذي علمهم المسيح ان يدعوه أباً . ان مشاعر الامتنان والشكر تفعم قلوبهم ، إذ يوقنون ان نعمة الله سوف تبدل نفوسهم ، وتخلقها خلقـاً جديداً . إن الديانة ، كل ديانة ، مـا هي سوى انعكاس للفكرة التي يكونهـا المؤمن عن الله عز وجل ؛ لأن الحياة الألهية هي المثـل الأعلى المطلق ، الذي تسعى الإنسانية ، ممثلة في أرقى افرادها الى الاقتداء به والسير على نهجه . وأعمق التغيرات في المجال الديني ، وأكثرهـا خطراً ، مـا استندت إلى إدراك أدق وتفهم أصدق لسره تعالى . ويسوع إنما جدّد نظرة تلاميذه إلى عالم ما فوق الطبيعة ، بفضـل الآفاق الجديدة التي فتحها أمام ابصارهم في مجال الايمان .

وكان يسوع في صلاة الوداع ، منذ بضعة أسابيع ، قد طلب من أبيه ان يجعل منه ومن تلاميذه وحدة واحدة ، ثم اردف يقول في تفسير الدور الذي قام به تجاههم :

« يا أبت ، إن الذين أعطيتني إياهم

أُريد ان يكونوا معي حيث أنا ،

ليروا مجدي الذي أعطيتني إياه ،

لانك أحببتني قبل إنشاء العالم .

يا أَبت العادل ، إن العالم لم يعرفك ،

اما انا فعرفتك ،

وهؤلاء عرفوا أنك انت ارسلتني ؛

كشفت لهم عن اسمك وسأفعل ،

لتكون فيهم المحبة التي أَحببتني بها ،

وأكون أنا فيهم . » (يو ١٧ : ٢٤ – ٢٦)

« لقد كشفت لهم عن اسمك » . نعم ، إن الحقائق التي علمها يسوع تلاميذه عن الله ما كانت لتخطر لهم على بال . ولنلاحظ هنا ان نظرة

معاصري يسوع إلى اسم الفرد كانت تغاير نظرتنا نحن : الاسم ليس مجرد حروف وأصوات ، إن للاسم قيمة خفية ، ومن يعرف اسمك ، في قدرته أن يناديك ، ويتحدث إليك ، وينشيء علاقات معك ، فهو قادر على ان يعرف ذاتك . لذلك ، فالكشف عن اسم الله يرفع طرف الحجاب الذي يحجب على الناس سره الجليل .

إن نشأة التلاميذ الدينية ، قبل ان يدخل يسوع في حياتهم ، كان مصدرها الكتاب المقدس ، أكان ذلك بطريقة مباشرة أم غير مباشرة . وإن كانت تنقصهم الدراسة العميقة المحصة ، كتلك التيمر بها الكتبة ، إلا انهم كانوا ، في المجامع وغير المجامع ، يعيشون في بيئة مشبعة بمبدأ وحدانية الله ، على الطريقة الصارمة التي كانت تميز ايمان الشعب حينذاك . اعتقدوا أنه ليس للعالم سوى خالق واحد ، ينفرد في سيادة السماء والأرض ،وان العالم وحدة لا تعرف الخلاف والشقاق، وليس فيها إقطاعات أو اختصاصات مستقلة عن بعضها ، تخضع لآلهة متخاصمين ومتنافسين . ان سير الطبيعة تنظمه وتصرف شئونه سلطة واحدة ، هي سلطة الخالق . فوحدانية الله كانت تتمثل في أعين التلاميذ في وحدة تلك السلطة العليا المدبرة ، التي لا يخرج عن نطاقها شيء .

على أن هذا التدين ، تدين التلاميذ قبل تعرفهم على يسوع ، لم يكن مجرد نظريات جافة ،أشبه بمباديء الفلاسفة الذين ينظرون إلىالله بصفته الأساس الأول للوجود،والمهندس الجبار الذي صمم آلة العالم العجيبة . .

إن تاريخ أُمتهم الذي يزخر بذكر تجليات الله لأجدادهم، لشاهد فصيح على مدى تقرب الله إلى شعبهم: فهو الذي اختارهم ، وهداهم ، وأدّبهم وكافأهم : ألم يكن إلهُ إبراهيم وإسحق ويعقوب الإلهَ الذي أحبهم ودعاهم إلى حبه ؟ . إنه الإله الذي لا يتردد أحد ، مهما ضؤل شأنه . في التحدث إليه . إنه الإله الرهيب العادل ، وهو ايضاً الإله الحنون الرحيم ، هو

«قريب ممن يدعونه ،

من جميع الذين يدعونه صادقين . »

(المزامير ١٤٥ / ١٤٤ : ١٨)

وبما أن ما من شيء كامل على الأرض إلا وهو انعكاس للكمالات الإلهية اللامتناهية ، لجأ الإنسان إلى القدرة الدنيوية ، منزهة من كل نقص وعيب ، ليتصور القدرة الإلهية ، فقال إن الله ملك ، وإنه القدير القوي ، والسيد الغالب . هذا ما عرفه التلاميذ عن الله ، كما كان يعرفه اليهود . أما سر الله المتعلق بذاته ، فلم يدركوا منه شيئاً ، اللهم إلا أنه الحي الذي لا يرقى إلى كنهه العقل البشري .

ما هي إذن العناصر الجديدة التي جاءت بها رسالة الإنجيل ، فيما يتعلق بمعرفة سر الله ؟ إن محاولة الإجابة على هذا السؤال هي في واقع الأمر محاولة لإبراز أدق ما في تعاليم يسوع على الفهم ، وأكثرها أَهمية

وخطراً . لقد بدا يسوع للعيان إنساناً نادر الأخلاق، حريصاً على خير الطبقات الشعبية التي كانت تعاني من إهمال رجال الدين ، رغم حقها المقدس في الحياة الكريمة الشريفة ؛ وقد بلغ يسوع من الطيبة والصبر وسعة الذكاء درجة حملت كثيراً من غير المؤمنين إلى اعتباره واحداً من النماذج الإنسانية الكبرى . ورغم ذلك ، ما أكبر الشقة بينه وبين سائر الناس . وإذا كانت أصالة الإنسان ، هذا الحيوان العاقل ، وميزته المميزة ، تتلخص في أنه يجمع في شخصه بين النفس العاقلة والجسد المادي ، مما يجعله الحد الفاصل بين عالمين ، فإن الأمر لا يقتصر على هذا الاتحاد في حالة سيدنا يسوع المسيح. فكر التلاميذ في ذلك بهدى الروح القدس ، فبدا لهم أن بعض العبارات الغريبة التي تفوّه بها ، وبعض الاعمال المذهلة التي أنجزها لا سبيل إلى تفسيرها ، إذا ما كان مجرد نبي كالانبياء السالفين . اما السلطات التي نادى بها يسوع والتي تَبَيَّن لنا آنفاً سعة نطاقها العجيب ، مثل غفران الخطايا ، والجلوس لإجراء الدينونة ، في يوم الدين ، ومنح الحياة ، فربما استطعنا تعليلها على أنها لا تعدو أن تكون تفويضاً وتوكيلاً . ولكن الا يفوق التصور ما قاله عن وجوده السابق لخلق العالم ، فقال إنه كان موجوداً مع أبيه ؟

« والآن يا ابت ، مجّدني ، بالمجد الذي كان لي عندك من قبل وجود العالم . » (يو ١٧ : ٥)

ولقد تكلم يسوع عن وحدانيته مع ابيه بعبارات لا يخطر ببال

رجل عاقل ان ينطق بها ، ولو بقصد التشبيه او الرمز ، إذا كان مجرد مخلوق آدمي . فقال مثلاً ، مشيراً إلى نوع معرفته للآب ، إن احداً لا يعرف الآب إلا هو ، كما لا يعرفه احد إلا الآب . واعلن في معرض الكلام عما يملكه الآب قوله :

« جميع ما هو للآب فهو لي . » (يو ١٦ : ١٥)

وكرر الحقيقة ذاتها في ثوب آخر، حين وعد بأن يحل مع ابيه في نفوس أتباعه المؤمنين ، ليمكثا فيها بطريقة سرية ، ليس فقط بواقع القدرة الخالقة ، ولكن بفعل حضور الصداقة والمحبة .

« إن أحبني أحد فليحفظ كلمتي ،

وأبي سيحبه ، وإليه نأتي ،

وعنده نجعل مقامنا . » (يو ١٤ : ٢٣)

ولنلاحظ في هذا النص صيغة الفعلين نحبه ونأتي : انها ليست للغائب وهو الآب ، بل للمتكلمين : « أبي يحبه وإليه نأتي » ولا يخفى ما في هذا التعبير من قوة بالغة ، لا سيما إذا لاحظنا أن يسوع في الانجيل يتحاشى ان تجمع بينه وسائر الناس عبارة واحدة او صيغة الجمع ، لكي لا يذهب المستمعون الى أن علاقتهم بالله وعلاقته هو به من نوع واحد . وان طبيعة الوحدة التي تجمع يسوع بالآب لتبدو جلية في جوابه على السؤال الذي وجهه إليه فيلبس ، أحد الاثني عشر ، في

أثناء عشاء الوداع .

« فقال له فيلبس : يا سيد ، أرنا الآب وحسبنا . فقال له يسوع : أنا معكم كل هـذا الزمان ولم تعرفوني ! يا فيلبس ، من رآني فقد رأى الآب . فكيف تقول أنت أرنا الآب ؟ أما تؤمن أني أنا في الآب وان الآب فيّ ؟ » (يو ١٤ : ٨ - ١٠)

إذن لا بد من الاعتراف بان شخصية يسوع انطوت على اتحاد سري عجيب بين الجسد والروح الأرضيين وبين هذا الذي ينتمي إلى عالم ما فوق الأرض .هذا هو الذي جعله ينطق بهذه العبارات المثيرة للدهشة. كيف تم له هذا الوعي بمثل هذه الوحدة القوية مع الله ؟

ألا يكون هذا الاسلوب من نوع أساليب الصوفيين ، كما أشار إلى ذلك بعض النقاد ؟ جوابنا أنه لا يعقل أن يدعي متصوف متزن الشخصية ، كما كان يسوع ، انه المرشد والهادي لجميع المؤمنين ، أنه « الطريق والحق والحياة » لمن يرغب في الوصول إلى الله . وما كان صوفي متواضع كيسوع ليدّعي الملك العالمي ، ما لم تكن أقواله تنطوي على رسالة يجب أن تؤخذ بنصها وفصها .

إن حياة يسوع على هذه الأرض تفرض علينا الاعتقاد بأن في ذات الله وفي كنه حياته سراً عظيماً من أسرار الحب، لم يسبق أن أوحي به إلى الناس من قبل .

«قال يسوع : كما أحبني الآب كذلك أنا أحببتكم » .
(يو ١٥ : ٩)

ونحن ندرك سر إلحـــاح يسوع البالغ فيما يتعلق بالوئام الأخوي والعطف والتسامح ، إذا علمنا أنــه طلب من تلاميذه أن يقتدوا بالله ، وأن يكونوا كاملين ، مثل أبيهم السماوي ، الذي وصفه القديس يوحنا في رسالته الأولى :

« الله محبة » (١ يو ٤ : ٨)

وقال في ذلك يسوع :

« وقد كشفتُ لهم عن اسمك وسأفعل ،

لتكون فيهم المحبة التي أحببتني بها ،

وأكون أنا فيهم . » (يو ١٧ : ٢٦)

هذه الحقيقة المستعصية على الفهم لا تتنافى مع وحدانية الله . إنها تتعلق بحياة الله الذاتية . أما في مجال الأعمال الخارجــة عن ذات الله ، فإن القدرة الإلهية المدبرة للكون هي دوماً واحدة، لا انقسام فيها ولا تعدد . هذا هو جوهر العقيدة ، وما الجهود التي بذلهــا آباء الكنيسة وعلماء اللاهوت بعــد ذلك ، إلا محاولة لإيجاد أنسب الألفاظ وأدقها تعبيراً عن هذا السر . أما الحقيقة في حـــدّ ذاتها ، فهي كائنة قبل الاصطلاحات اللاهوتية التي تعبر عنهــا ، مستقلة عن تفكير العلماء

وتعبيرهم .

عندمـــا خلق الله الكون بكلمته (اي بكلمته الشخصية ، ذات الكيان الشخصي) كان روحه حاضرا (التكوين ١ : ١) . وكذلك كان روح الله حاضراً عندما خلص العالم بواسطة المسيح . وكان هــذا الحضور الصامت الخفي ، في اثناء السنوات التي ارخنا لهـــا في هذا الكتاب ، شيئاً جوهرياً . إنه حاضر يوم البشارة، ويوم تعميد يسوع؛ إنه موجود في كل لحظة من حياة يسوع ، حتى أن النية السيئة التي كشف عنها معارضو يسوع كانت كأنها موجهة إليــه ، وأوشكت ان تكون خطيئة ضد الروح ، وهي من افظع الخطايا . ولقد كان هذا الدور الكبير الذي قام به الروح، إحدى العلامات المميزة لعهد المسيح، كما سبق ان قال يوئيل النبي :

« بعد ذلك ، يقول الرب ،

سأفيض روحي على كل بشر ....

وعلى العبيد أيضاً رجالاً ونساء

أفيض روحي في تلك الأيام . »

(يوئيل ٢ : ٢٨ ، ٢٩)

لقد جاء المسيح ليجدد الإنسانية بالروح القدس ، بعمودية عيــد الخمسين : وهذا جانب من أبرز جوانب رسالة المسيح . وعمل الله يبدو

في هذا الميـدان ، كما كان في ميـدان خلق الكون ، عمل الآب والابن والروح القدس ، عملاً ينم عن الوحدة الكاملة ، لأن الله محبة .

إن يسوع هو كلمة الله الذي حل في جسد ونفس ، أي في طبيعة إنسانية حقة .

« والكلمة صار جسداً ومكث بيننا » . (يو ١ : ١٤)

جاء يسوع الى هذا العالم ، ورغم كونه بمقتضى طبيعته إلهاً واحداً مع الآب والروح القدس ، رضي ان يكون في مرتبة أقل من الآب ، بصفته الكلمة المتجسد . هـذا هو معنى قوله : « ان الآب هـو اعظم مني » (يو ١٤ : ٢٨)

هذا المقام الأدنى يفسر لنا كون بعض حوادث الغيب قد خفيت عن طبيعته البشرية ، فلم يفده الوحي بها . لقد حُجبت عنه ،في أثناء حياته الأرضية ، « الساعةُ » ، أي موعـد يوم الدين . إنه أعرب عن كل ما أراده الآب ، في حين جعلته طبيعته البشرية كواحد منا في كل شيء ، ما عدا الخطيئة .

ليست هذه الآراء مجرد جدل لاهوتي عقيم . ان هذا الكشف عن سر الله كان له اثره البعيد في نظرة الإنسان إلى العظمة والكمال . كان الإنسان يعتقد ان سر العظمـة إنما هو السلطان او شدة الذكاء ، او المال ، او القوة . وبعد ان جاء يسوع وكشف للإنسان بأقواله وحياته أن الله محبة ، اندفعت النفوس التواقة إلى الكمال تتطلع إلى ما هـــو

أسمى ، وصارت تبغي العظمة من وراء العطف على القريب ، والصفح عنه ، والدأب على خدمته وبذل المعونة له في نزاهة وإخلاص ، تمثلاً بالله . العظمة الحقيقية أن نحب الله بجماع قلب تحييه النعمة ، ويضرمه الروح القدس . وما جدوى السلطان والهيبة في هذا المنظور ؟ هل فقد كلمة الله شيئاً من جلاله الذاتي عندما ظهر في الجسد في مغارة بيت لحم ، ثم عانى العذاب في فترة آلامه : فقد كانت اعمال المسيح ، في لحظات الهوان هذه، ذات قيمة لا متناهية . وما كل ما يعتبره العالم معيباً مهيناً ، هو في الحقيقة كذلك .

لا يدنس الإنسان سوى الخطيئة .

الختام

إن ما أوردناه من نصوص الكتاب المقدس فيما تقدم من هذا البحث، ليحمل السمات الجوهرية لرسالة يسوع . نحن لا ننوي هنا العودة إلى ما سبق ، وحسبنا الوقوف عند ملاحظة أخـــيرة ، قمينة بأن تسترعي انتباه القاريء .

ربما فطن القاريء إلى أن هذه النصوص يمكن تصنيفها في مجموعتين متباينتين . مجموعة اولى تتسم آياتهـا بالبساطة والحيوية ، وبشيء غير قليل من الطرافة ، هي التي تعالج موضوع الإنسان ، حياتـه اليومية وسلوكه ، وما قد نسميه جملة بالأخلاق الإنجيلية . من هذه المجموعة ، نخص بالذكر ، على سبيل المثل ، تعاليم عظة الجبـل وسائر الأمثال . ومجموعة أخرى ، أقـــل آيات من الأولى ، يستوجب فهمها وتذوقها المزيد من التروي والتأمل . إلا أننا، متى أدركنا غنى مضمونها علقت بها نفوسنا ، وعزّ علينا تركها لغيرها ، فهي تعالج معرفة الله وسرّه ، وشخصية يسوع ورسالته الخلاصية . إذن ، فهي تتنـاول الجانب العقائدي . ولكن ، لا ينبغي أن نغالي في التفرقة بين المجموعتين ، لأن الصلة بينهما وثيقة ، إلى درجة أن آيات إحدى المجموعتين لا تفهم دون

الأخرى ، لأن الرسالة الإنجيلية وحدة لا سبيل إلى تجزئتها . هذا هو ما نود أن نقف عنده في ختام هذا البحث .

إن طبيعة الإنجيل العصرية تتجلى قبل كل شيء في مضمونه الخلقي. إنه ينصب أمام الناس مثلاً أعلى شامخاً سامياً ، ولكنه إنساني في الواقع والصميم ، فإذا ما استهدفه الإنسان في صدق وإخلاص، تعلم منه كيف يعيش في مكانه الحقيقي من العالم ، تجاه الله وتجاه الناس . وبما أن النفس الإنسانية لا تتغير طبيعتها رغم تطور ظروف العالم المادية ، فإن تعاليم الإنجيل ما زالت تحتفظ في الوقت الحالي ومنذ أن نطق بها يسوع ، بقيمتها كاملة غير منقوصة . فنبذ هذه التعاليم ، بحجة انقضاء عشرين قرناً على صدورها ، لشاهد قاطع على الضلال وقلة البصيرة . أتكون المشاكل الأخلاقية التي عالجها يسوع ، أو التي واجهته وسط معاصريه ، قد تلاشت ، وبطلت ؟ بل الحقيقة على نقيض ذلك ، وإنسان عصر المسيح لا يختلف عن إنسان القرن العشرين ، سواء في قلبه ، أو في نفسه ، أو في انفعالاته الجوهرية إزاء ما يلم به من ظروف . لنتأمل ، مثلاً ، صورة الفريسي المعجب بنفسه ، أو منظر الكتبة المزهوين بتحيات الناس وتقديرهم ، أو ذلك الرجل المتهافت على اولى المتكآت في الولائم .. أليست هذه كلها خصالاً لم تبل جدتها إلى اليوم ؟ وما أجدرنا أن نعيد إلى الأذهان سائر الصور الخلقية التي ابدعتها ريشة يسوع ، من ذلك الابن الأكبر الساخط على طيش اخيه وفجوره ، إلى

الناقد البصير بهنات الناس ، المتعامي عن حال نفسه... وقد يطول بنا الكلام إذا استطردنا في تحري الإنجيل بحثاً عن اللمسات النفسية التي ما زالت من مميزات أنسان القرن العشرين .

إن دور المعلم الروحي الذي قام به يسوع ، دور المرشد الملهم للضمير البشري ، لهو حقيقة من أبرز سمات شخصيته . علّم الانسان كيف يعيش لله وحده ، وهداه في الوقت نفسه إلى السبيل الوحيد المؤدي الى الحب الأخوي العميق . نزع النقاب دون رفق عن التعلات الواهمة التي تتعلل بها شهوة التباهي ، وحب النفس المفرط ، والتكالب على اللذات ، وهي الخيوط الحقيقية التي تتحكم في كثير من أفعال الانسان . ولذلك ، حذّر مريديه من الاستسلام إلى الرغبات الطارئة ، دون روية وتمحيص ، ولفت انظارهم إلى خطر الأوهام في مجال الحياة الروحية ، وعلمهم كيف يفرقون بين الرغبات الصادرة عن الله ،وتلك التي لا تمت إليه تعالى بصلة . حث تلاميذه على طلب الطهارة غير الزائفة ، طهارة القلب وطهارة الروح ، لا طهارة المظاهر والرياء ؛لأن أنقياء القلوب وحدهم هم الذين سيشاهدون الله .

ويحذر يسوع مريديه مما يجوز ان نسميه بآداب الجماعة المغلقة . أراد يسوع ان يسمو بالانسان فوق قانون النظام الاجتماعي ولوائحه ، فوق مقتضيات الإنتماء إلى طبقة او فئة أو جماعة ، يكون الجنس ، او الدين ، او سواهما هو المتحكم في إقامة العلاقات وتبادل الخدمات فيها :

فان لم تحسن إلا للذي أحسن إليك ، فانك لم تزد عن ان تكون أنانياً أثراً . فضلاً عن ان التعصب المسرف للجماعة ، أياً كانت مقوماتها ، قد يجر في أعقابه الاحتقار المتعمد لكل الذين ليسوا من أفرادها . لقد نادى يسوع بالمساواة بين جميع أفراد عائلة الإنسان ، دون أخذ بالاعتبارات الجنسية والمراتب الاجتماعية ؛ وليس أوضح من مثال السامري الطيب دلالة على موقفه وتعبيراً عن رأيه . وضع يسوع النفس الانسانية في أعلى الاعتبار ، وأقر بقيمتها اللانهائية في مثال الراعي يترك القطيع كله للبحث عن الخروف الضال . وراح في مجال آخر يلح على وجوب الصدق والتزام قول الحق ، ويجرد على الكذب حملة صادقة ، قائلاً إنه عمل من اعمال الشيطان . ونبه إلى أن اجمل المباديء وأرفعها قيمة ليست في مأمن من شر التزييف وفساد الرياء ، ان لم يكن عمادها روح البذل والتضحية .

آداب الأنجيل هذه ، منذ ان نطق بها يسوع ، ما زالت هدفاً لمعارضة المعارضين ومناوأة المناوئين . أعرض عنها القائلون بمبدأ القوة ، أولئك الذين يعتبرون مواجهة الإساءة بالعنف ضرباً من ضروب الشرف والإباء . الواقع ان آداب الانجيل هي آداب بلوغ لا آداب حداثة ومراهقة ؛ وما التشفي ، كما يفهمه الناس ، سوى صدى للضعف ، او لاختلال توازن الشخصية عند من يعجز عن ضبط انفعالاته . أما الذي يقبض بيده على زمام أمره ، فهو على نقيض ذلك ، قادر على ان يحقق

مآربه بالوسائل السلمية ، وهو يعرف كيف يتوخى بين الغايات والأهداف ، ما هو جائز ، او ما هو ممكن ، ولو كلفه ذلك التنازل عن بعض مطامعه ، فالإنسان لا يستطيع ان يستشعر الراحة دون ان يرضى بالتضحية . وأما القوة المادية ، فلم يقض المسيح بنبذها ، بل لقد لجأ اليها عندما أعيته سائر الوسائل الاخرى ، وكان لزاماً عليه ان يلقن درساً ويضرب مثلاً ، وذلك عندما قام بطرد الباعة من الهيكل. نعم ، كان يسوع طوال حياته مناضلاً ، ولكنه لم يأبه بنضال القوة الغاشمة ، لأنه كان يعمل لقوة الحق حسابها، كما عمل للحب، والوداعة ، والبذل . لقد ادرك غايته، ولم يتردد قط في التضحية بذاته كلما اقتضت الظروف . إن آداب الإنجيل آداب بأس وقوة ، ولكنها قوة من نوع سام، كتلك التي حدت بالمسيحيين الاوائل إلى التفاني في سبيل الدعوة ، وأدت بهم ، في نهاية المطاف ، إلى الاستشهاد .

هذ هو الجانب الجذاب من شخصية يسوع الذي يستأثر بانتباه قراء الإنجيل غير المسيحيين ، نعني مكانته كمعلم روحي . ولا غرو ، فإن الحقائق النفسانية ما زالت أدنى إلى النفوس من غيرها لوثاقة صلتها بحياتنا اليومية . أهناك شيء يهز أوتار الطبيعة الإنسانية مثل بعض مشاهد الإنجيل ، حيث يعكف يسوع على تعليم مستمعيه ، بل وعلى تأنيبهم، بينما نشعر بأنهم لا يفترقون عنا في شيء، لا في نزعاتهم الاصيلة، ولا في طباعهم أو استجاباتهم . ولكننا لا نلبث أن نلمس أن جانباً آخر من شخصية يسوع راح ينكشف لنا يوماً بعد يوم، في اثناء تأديته لرسالته . هذا الجانب هو ما تدل عليه المجموعة الاخرى من النصوص ،

حسب ما أسلفنا في مطلع هذا الحديث . لماذا لم تحظَ هذه النصوص بما هي أهل به من البحث ؟ ربما عادت قلة العناية بها إلى دراستها جافة ، تستلزم مجهوداً اكبر وتركيز أعمق . وقد يكون ذلك لأنها متفرقة في أماكن كثيرة من الانجيل ، فلا تلبث الناحية القصصية او الاخلاقية أن تطغي عليها لدى القاريء المتسرع . ولا خير من هذا الاهمال ، لأن هذه النصوص تعرض لأهم ما في الدين من أسرار . وعلى كل ، فـان العثور عليهـا وإدراك مواقعها من الدعوة كلها ، لهو الوسيلة الوحيـدة التي تعين على فهم مشاهد الانجيل في حقيقة أبعادها .

اذا كانت القيم النفسية والاخلاقية في تعاليم يسوع ما زالت الى اليوم محتفظة بجدتهـا وأهميتها ، فإن القيم العقائدية لا تقل عنهـا رونقاً ولا خطورة . ما زال إنسان القرن العشرين كأخيه إنسان القرن الأول ، يعاني من الحـيرة القاتلة كلما طفق يبحث عن مصـيره . لِمَ وُجدنا على هذه الأرض ؟ سؤال محير ، يقف حياله الإنسان عاجزاً يائساً ، يحاول الإعراض عنه ، ولكن هيهات ! تتعاقب الأجيال ، ولا يزال السؤال يقض المضاجع ويذل العقول . توهم الانسان في فترة ما ، ان العلم يحمل في جعبته الجواب الشافي ، فخاب ظنه ، وتحطمت مزاعمه على صخرة الواقع . نعم ، مـا أعظم الانتصـارات التي حققها العلم ، وما أروع الفروض الخصبة والنظريات الخلابة التي وضعها عن أصل الحياة المادية .. كل هذا جيد ومفيد ، ولكن الوصف شيء ، وتفسير الأسباب والعلل شيء آخر . نحن نعلم جيداً كيف جرت الأمور منذ عـدد من السنين

ولا يصعب علينا ان نتخيل ما الذي كان يجري قبل ذلك ، ولكننا لفي جهل تام عن الاسباب البعيدة الاولى لما كان ولما حدث .

والإنسان اليوم ظل يتساءل عن معنى الحياة وقيمتها، وعن المصير الذي ينتظره بعد الموت ، وعن الله وسرّه . إن النفس الإنسانية تشعر في صميمها بنزعة إلى ما هو عظيم ، شريف وطاهر ، إنها تحس بظمأ إلى المطلق واللامحدود. ربما خفي هذا الشعور فترة، أو طغت عليه مشاغل الحياة ؛ ولكن ما أسرع ما يعود إلى الطفو ، ويتمكن من النفس ، حتى يعجز أكثر الماديين تطرفاً عن نبذه واستئصال شأفته . وكما فعل يسوع بالنسبة إلى المشاكل الاخلاقية التي شغلت بال معاصريه ، كذلك سلط الاضواء الكاشفة على المسائل الكبرى المتعلقة بالله وبالمصير الإنساني . ونعود فنقول إن تعليم يسوع ، بناحيته الاخلاقية والعقائدية يشكل وحدة متكاملة لا تقبل الانفصام .

إن الآداب المسيحية لا ترضى بغير الله مركزاً وبؤرة . به يجب أن يقتدي المؤمن : « كونوا كاملين ، كما أن أباكم السماوي هو كامل . » هكذا قال يكوع . أما جوهر الكمال الالهي الذي هو موضع قدوة الانسان ، فقد كشف عنه يسوع بقوله : إن الله محبة . إن الحياةالالهية في ذاتها هبة ، هبة الله في ذاته ، هبة دائمة التجدد ، وفيض لا ينقطع من الحياة في داخل الذات الالهية . والذي مَنّ الله عليه بأن تنبهر عيناه يوماً ما ، ولو بشعاع ضئيل خافت ، بضياء هذا السرّ ، سرّ علاقة الآب بالكلمة ، في وحدة الروح القدس ، لا يستطيع أن ينساه

قط. وما رحمة الله التي تتجلى في الكون خارج ذاته الإلهية ، إلا جانب ثانوي الاهمية من سرّ حياته الذاتية ؛ ولو أن الله لم يخلق من العدم كوناً ، ولم يهب الحياة لكائنات عاقلة ، لكان ما زال الحبَ في ذاته . وأول ما يتعين على المسيحيين أن يؤمنوا برحمة أبيهم الذي في السماوات ، ويعتمدوا على تدبيره ، ويسعوا إلى تحقيق مشيئته . وربما استطعنا أن نجمل هذا الموقف بعبارة واحدة : إن علاقة المؤمن بالله هي علاقة اخلاص وصدق وولاء . فإذا كانت كذلك ، سوف تشعره بدفء السعادة والسلام يغمران نفسه ، إلا إذا شاء الله أن يمتحنه بمحنة إلى حين.

وكان يسوع يدرك ضلال من يأخذ كلامه مأخذاً عاطفياً وحسب. إن الذين يلوكون عبارات المحبة والاخوّة والسلام ، لاكثر من أن يحصوا ! ولكنهم ليسوا بمنأى عن الوهم . وقد كان إرميا النبي قد ندد بأولئك الذين يتشدقون بجميل القول دون أن يكلفوا أنفسهم بتحقيق ما يهتفون به في سريرتهم وفي سلوكهم : « ويعالجون باستخفاف جراح شعبي ، بقولهم سلام سلام ، حيث لا سلام . »

(إرميا : ٦ : ١٤)

وبعد ان دعا يسوع تلاميذه ليرتقوا قمة الكمال هذه ، دأب يصف لهم الطريق المؤدية إليها : إنها الطريق الوعرة الضيقة ، التي لا تتقدم فيها النفس إلا بالتضحية وإماتة الذات . ثم راح يبصرهم بضعفهم وباستحالة إدراك الخلاص بمجرد الاعتماد على قدرتهم الشخصية . فليؤمنوا إذن به ، ولا يفصموا العروة التي تربطهم وإياه ، وإلا أوردتهم الخطيئة موارد الموت والهلاك . . وعمد يسوع الى صورة الكرمة ،

يوضح بها تبعية الانسان بالنسبة إليه .

« أنا الكرمة ،

وأنتم الأغصان .

من يثبت فيّ وأنا فيه ،

يأتي بثمر كثير ،

لأنكم بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً . » (يو ١٥ : ٥)

ها هي ذي إذن علاقة الانسان بالله ، موسومة بطابع نعمة المسيح. فالمسيح لفي موقف فريد ، لا يدانيه فيه أحد ، لأن جسده ونفسه الانسانيتين متحدان بهذا الأنا الأزلي الذي هو كلمة الله ، فلا وجود فيه لتلك الحدود والقيود التي تعترض الانسان في طريقه إلى الله ، وان الذي اعتاد النظر إلى ما وراء إنسانية المسيح ، سرعان ما يكتشف في شخصه سراً أزلياً يستأثر بلبه ويستهويه .

قال يسوع لفيلبس ذات يوم : « من رآني فقد رأى الآب » . ان يسوع بصفته المسيح ، هو رئيس شعبه ، لا شعب اللحم والدم ، لكن هذا الجمع الغفير ، جمع الذين يعرفهم بأسمائهم ، شأن الراعي الصالح ، أولئك الذين استجابوا لدعوته ودخلوا في عداد رعيته . يسوع هو ابن الانسان الذي تنبأ به دانيال ، الذي تمجد وأُعطي كل سلطان . إنه عبد الله الذي أشار إليه أشعيا النبي ، هو الذي حمل على

عاتقه خطايا العالم ، وقدّم عنها تكفيراً ما كان قادراً على ان يقدم مثله إنسان . انه باجتيازه الموت إلى الحياة ، افتتح العهد الجديد ، ونال لنا ما كنا عاجزين عن نيله .إنه الطريق لا طريق سواه . إنه ينبوع الحياة الجديدة ، وقناة الروح ، والنموذج الذي يجب ان نحتذيه . انه لكل واحد منا الأخ الأكبر الذي به نتحد ، وفيه نحيا بالايمان .

ولم يبلغنا قط أن يسوع استبطأ الامور في أثناء حياته الارضية . والذين انتظروا منه معجزة تنقلهم إلى طور الكمال دون سعي ولا جهد، سمعوه ينادي بالصبر ، والعمل المتواضع ، والاعتماد على النعمة . لم يقض على القيم الانسانية الطبيعية ، كما أن الانجيل لم يدع إلى المعرفة الطبيعية والعلوم الدنيوية : فالانسان قمين بتحصيلها بما رزق من مؤهلات وقدرات ، ولا فرق في ذلك بين مسيحي وغير مسيحي ، لان قوام المعرفة الانسانية العقل ، والبحث ، والدراسة والاجتهاد ، وكلها أمور لا دخل للإنجيل فيها ؛ ولم يقل أحد بأن الايمان يغني عن السعي والجد أو التدريب ، فيمن يرغب في أن يكون عاملاً ماهراً أو موظفاً محترماً أو مهندساً أو اقتصادياً مرموقاً ؛ كما أنه لا يغني الامهات عن تعليم التدبير المنزلي او أصول تربية الأطفال . لكن الدين المسيحي جاء الى العالم بما هو افضل . الى عالم طغت عليه المادية في شتى مظاهرها ، حملت المسيحية مزيداً من القيم المعنوية والروحانية التي يؤرق افتقادها المفكرين ودعاة الاصلاح اليوم . مدت المسيحية يدها إلى أولئك الذين يعلمون ان التقدم في ميدان العلوم والتكنولوجيا ، مهما بلغ من بعيد الشأو ، وحقق من كبير الخير ، سيظل عاجزاً عن تحرير الانسان من

عبودياته تحريراً كاملاً . جاءت المسيحية تشد أزر أولئك الذين يرون في ذهول أن الإنسان لا يكاد يحطم قيداً من قيوده العتيقة ، حتى يجد نفسه قد كبلتها قيود أُخرى جديدة . والمسيحية تتمسك بهذه الكلمات التي قالها يسوع :

« إن أنتم ثبتم على كلمتي ،

فبالحقيقة تكونون تلاميذي ،

وتعرفون الحق ،

والحق يحرركم » . (يو ٨ : ٣١ — ٣٢)

وأما الذين يطأطئون الرأس راضين بهذه الاوضاع ، كما يرضخ الإنسان للقضاء والقدر ، فان المسيحية تدعوهم إلى رفع قلوبهم الى فوق ، الى النظر إلى رسالتهم السامية ، بصفتهم ابناء الملكوت : انها بذلك ، تنقذ النفوس الراغبة في الخير من الخمول والتفاهة التي تؤدي اليها الآفاق المحدودة المطبقة ، فتدفع عنها الخيبة المتربصة بها .

أما الطاقة التي يحملها المسيحي في نفسه ، فإنها تضفي على أعماله وحركاته معنى جديداً وروحاً جديدة . واذا كان الانجيل لا يهدف إلى خلق العامل الماهر ، او الصحفي الفصيح ، أو الطبيب القدير ، إلا أنه يحمل العامل والصحفي والطبيب على انجاز أعمالهم بدافع أسمى ، وعلى مستوى أرفع .لأن المسيحي الذي يحيا مع المسيح في العالم الجديد

الذي أرست القيامة أركانه ، يحيا على نمط جديد ، هـو نمط المواطن للملكوت السماوات وان حب الله والقريب لكفيل بأن يغير شيئاً فشيئاً نفوس الذين رضوا طائعين ان يسيروا مع المسيح على الطريق الصاعدة التي رسمها بنفسه .

تذييل : مصادر حياة المسيح

كان جلّ اعتمادنا فيما تقدم من صفحات هـذا الكتاب على الأناجيل الأربعة ، أي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وربما أضفنا ، زيادة في دقة التعبير ، على هذه الأناجيل كما هي مقروءة ومفسّرة في الكنيسة. والآن لقد حان لنا أن نبرر هـذا الاختيار . إن نور الإيمان أضاء لنا طريق البحث منذ بدايته ، ولا شك أن القارىء الفطن قد تنبّه إلى أن عملنا هذا يجمع بين البحث والشهادة ، وإنه من السذاجة أن يذهب بنا الظن إلى أن المسائل الدينية يمكن معالجتها بصرف النظر عن الماضي ، كأن أحداً قبلنا لم يقل فيها قولاً البتة ، ولم يقدم البحث خطوة . هذا لغو وهراء . إن الإنسان يتقبل اولاً من غيره ، من والديه ، من أسرته ومن بيئته ، مجموعة من القضايا ويسلم بصحتها ، إلى أن يأتي اليوم الذي يصبح فيه قادراً على بحثها بنفسه ، بفضل ما اكتسبه من علم وخبرة : عندئذ يجب عليه أن يزن الحجج التي تدعم قبول ما سبق أن تقبله بدافع من الثقة في الآخرين والخضوع لنفوذهم الأدبي .

والاعتماد على الأناجيل الأربعة هو في الواقع منح الثقة لشهادة أربعة من الرجال ، حملوا الأمانـــة وكانوا لسان الكنيسة الناطق فيما يتعلق بالروايات الخاصة بيسوع . معنى ذلك ، أننـا نقر ضمناً بأن اثنين من

هؤلاء الرجال ، وهما متى ويوحنا ، لزما يسوع ملازمة الرفقة اليومية ، منذ بدء حياته العامة ، بينا الثالث ، وهو مرقس، قضى حياته في رفقة التلاميذ الأوائل الذين كانوا يجتمعون كثيراً في بيت أسرته في أورشليم (الأعمال ١٢ : ١٢). هذا وإن كان من المرجح أنه شهد بعض حوادث الإنجيل ، وكان على ما يبدو ، في مرحلة الشباب عندما حل فصح سنة ٣٠ . ثم رافق بعد ذلك ، القديس بطرس، ودوّن في إنجيله أهم تعاليمه، أما الراوية الرابع، فهو القديس لوقا ، وقد ثبت أنه لم يكن من الرعيل الأول ، ولم يتصل بيسوع في أثناء حياته الأرضية ، ولكنه اعتمد على شهادة رفاق السيد المسيح ، فأجرى معهم تحقيقاً شاملاً ، فيما يتعلق بحياة يسوع ؛ وما إنجيله إلا تسجيل لنتائج هذا التحقيق .

إن النصوص التي خلفها هؤلاء الرواة الأربعة تستمد أهميتها البالغة من أنها النصوص الاولى التي جمعت بدقة وانتظام أقوال يسوع وأعماله، ومن أن اثنين ،ونكاد نقول ثلاثة من هؤلاء ،كانوا شهود عيان للأحداث التي رووها . وبمجمل القول ، إن المشكلة النقدية التي تواجه قارىء حياة يسوع ، تتلخص في هذا السؤال البسيط : هل نحن على حق في اعتمادنا على نصوص الأناجيل الاربعة التي جاءت لنا بها روايات موغلة في القدم ؟ .

عندما يحتدم النقاش بين جماعة من الأصدقاء ، فيتحول الى جدل صاخب عقيم ، يفضي الى التحزب وتمزيق الشمل ، عندئذ ، ليس غير الهدوء والروية سبيل إلى التوصل الى نور الحقيقة وصفاء الوئام .ويجب ألا يغرب عن بالنا أننا في صدد البحث في امور دقيقة بقدر ما هي

حيوية ، لما يترتب على البت فيها من نتائج عملية بالغة الخطورة .

يتعين علينا اولاً ان نحدد ميدان المشاكل ، دون أن يفوتنا ان كثيراً من الخلافات مصدرها مزاعم لا تدعمها الدراسة الوافية ، كما قد يكون الباعث اليها المكابرة التي لا تقبل المراجعة ، أو التسرع في إصدار أحكام توضع موضع البديهيات والقضايا المسلم بها .

من هذه المشاكل التي ما زالت إلى اليوم موضع نزاع عنيف بين النقاد، صحة إسناد الأناجيل . فما أحوجنا إلى الروية والحكمة والامانة قبل الولوج في هذا البحث ، اذا ما طمعنا في سلامة السير وسلامة الوصول .

ان رسالة يسوع نقلت اول ما نقلت دعوة شفهية

لقد سبق أن قلنا في معرض شرح كلمة « إنجيل » ، إن يسوع لم يؤلف كتاباً ، وأن كتاباً لم ينزل عليه من السماء . والثابت أن تعليمه لم يتقيد بقيود الموضوع المنسق بين دفتي كتاب ، مهما تعددت صفحاته . ولم يحدث أن وردت إلينا في هذا المعنى أية إشارة ، لا في الروايات المأثورة ، ولا في إحدى وثائق العصور الغابرة . وكيف يرى مثلُ هذا الكتاب النور ، ويجهل التلاميذ أمره ؟ . وهل نتصور هذا الإهمال في أناس أوقفوا حياتهم على نشر آراء سيدهم ؟ ولو سلمنا جدلا بأن البعض منهم استهدف طمس هذه الوثيقة لو وجدت، فإن أصوات الآخرين لكانت ستنطلق بالاحتجاج والتنديد . والحقيقة أن يسوع لم يقتصر في نشر

رسالته على الأداء الكلامي ، لكنه أعرب عنها بطرق أخرى متنوعة، حيث كانت المواقف والأعمال لا تقل بياناً عن التعاليم والأقوال . وهذا كله لا سبيل إلى معرفته من باب الحصر والجرد ، وإن كنا قد اهتدينا إلى جوهره موجزاً في الأناجيل .

« وأشياء اخرى كثيرة صنعها يسوع ، لو أنها كتبت واحدة فواحدة ، لما ظننت أن العالم نفسه سيتسع لما قد يكتب من الكتب . »

(يو ٢١ : ٢٥)

ففي مثل هذه الحالة المعينة ، لم يقتصر الوحي، أولاً وبصفة اساسية، على كتابة مقدسة ، بما تتضمنه من حزوف وكلمات ، بل لقد تكلم الوحي بلسان حال يسوع ، وبكل ما بدا للناس من طبيعته البشرية ، بل ان سكوت المسيح ذاته ، في بعض المناسبات الخطيرة من حياته ، لذو مغزى ودلالة لا تخفى . في هذا المعنى ، فالقول بان المسيحية دين كتاب ، كما يقول البعض أحياناً ، قول يجانبه الصواب : ان المسيحية هي ديانة شخص ، هو المسيح ، الكتاب الحي الذي بواسطته كلم الله الانسان . فأعمال يسوع لا تقل أهمية عن اقواله في سبيل كشف بعض الاسرار التي كانت محجوبة عن الاذهان . بل نقول ، بتعبير أدق ، إن الاعمال والاقوال في شخص يسوع ، تسير جنباً الى جنب ، يشد بعضها أزر بعض ، للتعبير المتكامل عن الرسالة كاملة غير منقوصة، وإن جزءاً من رسالة يسوع كان يتوقف على جانب الاعمال : بها أعد العدة لانتصاره المقبل ، واستطاع أن يجمع حوله جميع افراد رعيته .

لقد سلم يسوع رسالته ، رسالة الرجاء والخلاص وبشرى ألانجيل السعيدة ، شفهياً ، إلى جماعة تلاميذه الأوائل ، الى هذه الكنيسة التي أعلن في قيصرية فيلبس عزمه على إنشائها . (متى ١٦ : ١٨) فراح هؤلاء التلاميذ المختارون ، بمعاضدة الروح القدس ، يرددون عبر العالم أقوال سيدهم ، ويقصون على الناس سيرته . ألم يقل لهم :

« الذي أقوله لكم في الظلمة ، قولوه أنتم في النور ، والذيتسمعونه في الأذن ، أكرزوا به على السطوح . » (متى ١٠ : ٢٧)

ان كتاب أعمال الرسل يحمل عبارة تكشف عن جانب خطير من الرسالة المنوطة بهم : ألا وهو جانب الشهادة ، الشهادة على قيامة المسيح التي ألزموا أنفسهم بأدائها ، فضلاً عن اذاعة ما رأوا وسمعوا من أخبار يسوع وأقواله ، في أثناء وجودهم معه ؛ هذا ما أعلنه القديس بطرس ، عندما تعين اختيار شخص ليشغل المحل الذي تركه يهوذا شاغراً بخيانته ، فاشترط ان يكون المرشحون من تلاميذ الساعة الاولى القادرين على أداء هذه الشهادة :

« ينبغي إذن ان يعين واحد من الرجال الذين اجتمعوا معنا في كل الفترة التي قضاها السيد يسوع بيننا ، منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي فيه ارتفع عنا ، ليكون شاهداً معنا بقيامته . »

(الاعمال ١ : ٢١ ، ٢٢)

كانت شهادة الكنيسة الأولى بإيمانها بالمسيح شهادة كلامية شفهية ؛ في أغلب الأحيان ؛ ولا عجب في ذلك، لقد كان عماد الحضارة في ذلك

العصر الصلات الشخصية المباشرة ، عن طريق الاجتماعات ، ومجالس الأنس ، وحلقات السمر ، وكلها فنون لعبت دوراً كبيراً في حياة الأفراد والجماعات. وقد ساعد على توطيد هذه الصلات ظروف المناخ ، ولطافة الجو ، بصفة عامة ، حيث لا حاجة إلى القاعات الفسيحة ولا إلى اصطناع وسائل التدفئة : حسب الناس قبة زرقاء صافية، يجلسون تحتها ، أو عتبة دار يقضون أغلب أوقاتهم جلوساً عندها ، يتحاورون ويتسامرون .

وفي هذه الظروف ، كانت الذاكرة قد بلغت من الأمانة والقوة شأواً ليس من اليسير على معاصرينا أن يتخيلوه، بعد أن غيرت الكتابة والصحافة ووسائل التسجيل المتنوعة أساليب التحصيل وطرق الحفظ، وقلبتها رأساً على عقب . ومع ذلك ، فإذا قدر لنا الرحيل إلى إحدى مناطق العالم المتخلفة ، حيث التعليم مازال في مرحلة بدائية ،لاستطعنا أن نشهد لدى الأميين ، حالات تبلغ فيها قوة الذاكرة حد الإعجاز . لقد كان رواد يسوع كذلك قادرين على حفظ ما يسمعون دون إسقاط كلمة واحدة منه . هكذا كانت الحال أيضاً لدى تلاميذ فقهاء اليهود أو الرابونيين .

ولم يفت بعض المفسرين أن يلاحظوا أن الأسلوب الذي اصطنعه يسوع كان له شأنه في تيسير مهمة الحفظ على المستمعين. إن بعض القطع أو الفقر الإنجيلية مكونة من عبارات أو جمل تتكرر وتتعارض في سياق يغلب عليه نظام التوازي والمقابلة، فينتج من ذلك نوع من الأيقاع المتناغم المتناسق ، وكان من لوازم فن الخطابة آنذاك ، يكسب العرض

رحابة ، ويساعـد على تثبيته في الذاكرة . ولنذكر من باب الشاهد، مثلاً نستقيه من خاتمة عظة الجبل ، وما لجأت إليه من تشبيه مزدوج بين البيت المبني على الصخرة وذلك الذي أقيم على الرمل . فإذا نسقنا هذه القطعة في عمودين متناظرين ، تبين لنا بجلاء ما فيها من طباق ومقابلة :

هكذا ،	وأمـــا
فكل من يسمع كلامي هذا	كل من يسمع كلامي هـــذا
ويعمل به ،	ولا يعمل به ،
يشبه رجلاً	فهو يشبه رجلاً
حكيماً ،	جاهلاً ،
بنى بيته	بنى بيته
على الصخر ،	على الرمل
فنزل المطر ، وجرت الأنهار،	فنزل المطر وجرت الأنهار ،
وهبّت الرياح واندفعت على ذلك	وهبت الرياح ،وصدمت ذلك
البيت ،	البيت ،
فلم يسقط ،	فسقط ،
لأن أساسه كان على الصخر .	وكان سقوطه عظيماً .
(متى ٧ : ٢٤ — ٢٥)	(متى ٧ : ٢٦ — ٢٧)

وتناولت بعض الدراسات هذا الجانب من اسلوب يسوع التعليمي،

فتوغلت إلى أدق تفاصيله ، ويستطيع القاريء ان يرجع إليها اذا ما رغب في المزيد من البيان . حسبنا في هذا المقام ان نلفت النظر الى هذه الظاهرة .

على ان ما لاحظناه في هذه الحضارة ، حضارة الكلمة المنطوقة ، نلمسه في عصرنا في ميدان الموسيقى . إن بعض الألحان البسيطة تتمتع بقدرة عجيبة على الرسوخ في الذاكرة ، بعد الاستماع إليها مرة أو مرتين فقط ، بفضل ما فيها من تكرار للحن أساسي ، يمازجه شيء من الاختلاف الطفيف المنتظم .

ولكن مهمة الوعظ ،وبصفة خاصة مهمة تعليم الراغبين في دخول الدين المسيحي ، كانت دافعاً قوياً إلى تدوين أهم جوانب حياة يسوع وأكثر أقواله أهمية ، وإن كان ذلك دون تخطيط وتصميم شامل مدروس . وهكذا نشأت شيئاً فشيئاً اخبار مدونة موثوق بها ، الى جانب الأخبار الشفهية المتداولة ؛ كانت هذه المدونات بسيطة اول الأمر ، لا تكاد تكون اكثر من مجرد تجميع لأقوال يسوع وأعماله . وعلى كل ، لم تبد الحاجة إلى هذه الروايات المكتوبة ـ أو هذه المذكرات ، كما يسميها السيد دانيال روبس ـ عاجلة ماسة ، طالما بقي رفاق يسوع وشهدة الانجيل أحياء يرزقون . إلا أنه ، بتعاقب السنين، كان هذا الرعيل الاول يتقدم سناً ويقل عدداً . وبما ان الاضطهادات ما كانت بعد قد اتخذت صورتها الصارمة الشاملة ، استطاعت الكنيسة أن تعنى بتدبير شؤونها ، وبمهمة التنظيم الذاتي .استغرقت هذه العملية ثلاثين عاماً . ولكن ذلك لم يلهها عن التفكير بالمستقبل ، وأخذ

الانجيليون يعنون بتدوين أهم النصوص بطريقة منهجية منتظمة ، ودون الاقتصار على التداول الشفهي ، ولا على الطريقة الكتابية المرتجلة التي أشرنا إليها آنفاً .

الاناجيل الثلاثة الاولى او الاناجيل المتقابلة

تم تدوين الأناجيل كما يلي ، حسب ما جاء في الوثائق التاريخية التي تركها لنا آباء الكنيسة الأولون ، والتي سنعود إلى تحقيقها بعد حين .

كتب أولَ نص كامل للإنجيل القديس متى ، وهو ذلك العشار الذي دعاه يسوع إليه يوم أن مر به فوجده جالساً إلى مكتب الجباية بالقرب من بحيرة طبرية ، ثم جعله واحداً من الاثني عشر . دوّن متى إنجيله باللهجة العبرية أي الآرامية . هذا النص الآرامي مفقود ، ولم يعثر له على اثر إلى الآن ، لكن الوثائق التاريخية ، ومنها ما يرتقي إلى منتصف القرن الثاني ، أثبتت وجوده . وأكثر هذه الوثائق جلاء ما كتبه بابياس ، أسقف هيرابوليس ، بين سنتي ١٢٠ و ١٣٠ ، قال : « رتّب متى أقوال الرب باللهجة العبرية » . بينما ذكر بانتينوس ، وهو من رواد مدرسة الاسكندرية ، أنه رأى هذا الانجيل في اثناء أحد اسفاره الى بلاد الهند . وأما العبارة « رتب » فانها تلمّح إلى ان المعلومات التي احتوت عليها الوثائق الكتابية السابقة والروايات الشفهية المتواترة ، جمعها القديس متى وأدخلها في نطاق إطار عام موحد . ويظن ان هذا النص كان موجوداً قبل سنة ٦٠ ، وقد ترجم إلى اليونانية مع بعض التعديلات ، ويرجع النقاد المعتدلون إنجيل متى

اليوناني الى حوالي سنة ٧٠ ، مع شيء من الاختـــلاف في التقديم او التأخير ، على أن هذا التأخير لا يذهب بنا على كل حال إلى ما بعـد سنة ٨٠ بوجه عام .

هذا هو الواقع ، اما ان يتذرع به بعض النقاد ليعيروا المسيحيين بالعجز عن مراعاة الدقة في تحديد تاريخ ظهـور أناجيلهم المدونة ، ثم ليصفوا البيانات السابقة بالتعارض والتناقض ، هـذا امر لا يدل إلا على ان المعارضين يجهلون جوهر الموضوع . ان المشكلة في صميمها ترجع الى البت في صحة إسناد الأناجيل ؛ اما التاريخ الدقيق لظهورها ، فلا فائدة كبرى من ورائه ، إذا ما ثبت ان التدوين تم في فترة لا يتنافى فيها إسناد النصوص المختلفة الى أصحابها . وأما التواريخ التي تقـدم على سبيل التحديد ، فهي افتراضات محضة ، لا يقصد منهـا الإثبات والتقرير . اذن ليس من الانصاف ان نصفهـا بالتناقض ، ما دامت لا تتجاوز حدوداً مرسومة تدور داخل نطاقها .

وبين إنشاء متى لإنجيله الآرامي وترجمته الى اللغة اليونانيـة ، يقع إنشاء انجيل القديس مرقس : هذا ما دلت عليـه الروايات التي شهد بتواترها وقبولها اثنان من أئمة رجال الفكر ، هما إيريناوس الذي كان تلميذاً لبوليكربوس ، أسقف أزمير تلميذ يوحنا الرسول ، وإكليمنضوس الإسكندري . ومضمون هذه الروايات ، أن مرقس كان تلميذاً للقديس بطرس وأنه دوّن في إنجيله ما سمعه من معلمه . وأما شهادة إيريناوس ، فترجع الى فترة ما بين ١٨٠ و ١٩٠ ، حين كان أسقفاً لمدينـة ليون في بلاد الغال ، ولو أن مسقط رأسه بلاد آسيا الصغرى ؛ والمعروف عنه

أنه كان على صلة غير منقطعة بكنيسة روما. وأما شهادة إكليمنضوس، فهي ترجع الى سنة ٣٠٠، ومصدرها أرض مصر. إلا ان أقدم نص معروف تناول هذا الموضوع هو من قلم بابياس، أسقف مدينة هيرابوليس من أعمال فريجية، وقد حفظه لنا القديس إيريناوس ويوسبيوس. هذا ما قاله بابياس، معتمداً على رأي مأثور قديم:

« إن مرقس، وكان ترجمان بطرس، كتب أقوال المسيح واعماله بكل دقة، ولكنه كتبها كما تذكرها، دون أن يتقيد بالترتيب ».

ألّف القديس مرقس إنجيله قبل سنة سبعين، وقد يستفاد من طريقة عرضه لحادثة تدمير أورشليم أن الكارثة لم تكن قد حلت بعد. يرجع النقاد المعتدلون نصه إلى ما حول سنة ٦٤، وهي سنة استشهاد القديس بطرس، مع اختلاف يسير بين من يميل إلى التقديم، من أمثال إكليمنضوس الإسكندري، ومن يرجح التأخير مثل القديس إيريناوس وفيما يتعلق بشخصية القديس مرقس فإنه كان جد معروف في الكنيسة الأولى، كما يستفاد من سفر الأعمال؛ غير أنه لم يكن من الوجوه البارزة في المحيط الرسولي. وهذه المكانة المتواضعة، على حد قول رينان، قد قدر لها أن تخدم إنجيله، لأنه، لو كان منحولاً، لأسنده صاحبه إلى شخصية أُخرى لامعة، كشخصية القديس بطرس الذي يدين له الكتاب بفضل كبير. وإنه لينبغي أن نسجل هذه الملاحظة، إلى جانب الحجج الأخرى التي تدعم ثقتنا بإنجيل القديس مرقس.

وأما القديس لوقا، فكان، باعتراف الروايات الثابتة، يوناني الأصل

على خلاف سائر الإنجيليين ، وكان يمارس مهنة الطب . وقد أخذ على عاتقه أن يشرح لقرائه في مقدمـــة أنجيله ، كيف باشر عمله ، ومن أين استقى مادته . والقديس لوقا هو أيضاً صاحب سفر أعمـــال الرسل ؛ وقد وضعه بعد الفراغ من كتابة إنجيله ، ويرجح النقـــاد أن إنجيل لوقا صدر في الفترة التي شهدت ظهور نص متى اليوناني.

أطلق المفسرون على هذه الأناجيل الثلاثـــة التي سبق الكلام عنها اصطلاحاً غريباً نوعاً ما ، وهو الأناجيل السيُنبتّية، أي الأناجيل ذات المخطط الموحد . والكلمة يونانية الأصل ، ويدل معناها الاشتقاقي على الشيء الذي تستطيع العين أن تلم به بنظرة واحدة . ذلك أن هذه الأناجيل كثيراً ما تتفق في الحوادث التي ترويها، فيصبح من السهل بمكان وضع هذه النصوص المتوافقة بعضها في مقابل بعض ، في أعمدة متوازية، فيصبح من اليسير إقامة المقارنة بينها . [1]

وأما إنجيل القديس يوحنا ، فهو لا يسير على هـــذا المخطط ، ولا يمكن اعتباره عنصراً رابعاً في عملية المقابلة والمقارنة . إن يوحنا وجّه عنايته إلى بعض الإمور التي لم يتعرض لها الإنجيليون السابقون ، كما أنه عنى بالجانب الروحي العميق من تعاليم يسوع، في حين جاءت الاناجيل الثلاثة المتقابلة متأثرة بما كان يشغل بال كاتبيها: فمتـى الذي يخاطب الوسط اليهودي ، عمد إلى الإشارة إلى نبوات العهـــد القديم ، كلما سنحت له الفرصة . اما مرقس فتوجّه بكتابه إلى سكان حوض البحر المتوسط ،

---

(١) وقد اطلقنا عليها في هذا الكتاب اسم الاناجيل المتقابلة (المترجم)

وعي بتفسير بعض العادات اليهودية التي كانت غريبة على قرائه ،فضلاً عن أنه يتميز عن غيره بجدة النظر وقوة الملاحظة التي تنم ، سواء عنده أم عند معلمه القديس بطرس ، عن عمق الذكريات وشدة حيويتها . هذا ما يجعله اكثر الأناجيل الثلاثة طرافة وتمثيلاً للبيئة واللون المحلي النابض بالحياة . وأما لوقا ، فانه يخاطب مواطنيه اليونانيين ، وهو بحكم ثقافته الهيلينستية ، أكثر من سواه احتفالاً بالأسلوب . إلا أننا ، الى جانب جمال أسلوبه ، ندين له وحده ببعض أمثال الرحمة الرائعة ، البالغة التأثير . ثم ان لوقا يحسن الاختيار فيما يكتب ، ولا يتحرج من إهمال التفاصيل التي لا تهم قراءه . وأخيراً لقد وجد لدى العذراء مريم معيناً من الذكريات غزيراً ، فاستقى من احاديثها تلك الصفحات التي تحكي مولد يسوع وطفولته ، وهي بيت القصيد في إنجيله .

عمد الباحثون الى الأناجيل الثلاثة المتقابلة ، وراحوا يقتلونها درساً وتحليلاً ، الأمر الذي لم يتسن لأي نص قديم آخر . ان نتائج دراساتهم ، لو جمعت في مكان واحد ، لأسفرت عن مكتبة واسعة الأرجاء ومتشعبة النواحي . والمؤمن العادي ،اذا ما تصفح أبحاث النقاد المعتدلي النزعة ، خرج من قراءته بان كل سفر من أسفار الأنجيل ذو طابع يتفق مع ما نعرفه عن شخصية صاحبه وعن الظروف التي أحاطت بظهور إنجيله . والتأكد من صحة هذه الحقيقة يسير : يكفي الرجوع الى الكتب المبسطة العديدة التي عمدت الى ايراد الأمثلة والشواهد الانجيلية الشافية . والعقبة الرئيسية التي تواجه الباحث في هذا المجال تبرز مما نلمسه من اختلافات في عرض الحادثة الواحدة ، بين نصوص

الأناجيل المتقابلة الثلاثة . انه من المسلم به ان بعض التفاصيل المادية للحوادث التي شهدها الرسل ، أخذت تضعف في ذاكرتهم على مر السنين . لنقرأ مثلاً النصوص التي تحكي معجزة شفاء الأعمى في مدينة أريحا : واحد من الانجيليين الثلاثة يجعل لقاء الأعمى بيسوع عند مدخل المدينة ، والآخران عند مغادرة يسوع لها ؛ فضلاً عن ان النصوص تتردد في عدد العميان في الحادثة نفسها ، بين أعمى واحد وأعميين اثنين . كذلك لا يندر ان نجد المثل الواحد او الحكمة الواحدة في عبارتين مختلفتين . ولكننا نتساءل : ما خطر هذه الفوارق ؟ لا جدال أنها لو وردت على ألسنة الناس يصفون الوقائع على أثر وقوعها ، لكان لها مغزى خطير لا يخفى . أما ههنا ، وقد انقضى هذا العدد من السنين بين الحادثة وعملية تدوينها ، فليس في الأمر ما يستدعي التشكك ولا التجريح . لا سيما وان هذه الفوارق لا تمس إلا التفاصيل والامور الثانوية ؛ اما جوهر الرسالة المسيحية ، كالعقائد ، وأحداث حياة يسوع الكبرى ، فليس ثمة شبه خلاف بين الانجيليين في عرضه . ولا نبعد عن الصواب قولنا إن الفروق على التفاصيل ،تكسب الاتفاق على الجوهر قوة وحجة : فهي تدل على أننا لسنا حيال ثلاث نسخ لكتاب واحد ، مكررة طبق الأصل : انها ثلاث شهادات مستقلة ومتوافقة . وبهذه المناسبة ، لا ينبغي ان تفوتنا تلك الأمانة التي أبداها النساخ الذين نقلوا الأناجيل في تلك العصور الساحقة : انهم لم يزيلوا التفاصيل المشكلة ، حرصاً على حرفية النص المقدس ، بل نقلوها بحذافيرها كما هي .

ومثل هذا القول نسوقه فيما يتعلق بالفروق التي نلحظها في ترتيب

الأحداث بين النصوص المتقابلة الثلاثة . كان قصد الإنجيليين أن يلقوا على مستمعين تعليماً دينياً، لا أن يقدموا لهم مجرد تاريخ للأحداث: على هذا الأساس جمعوا مادتهم داخل الإطار العام الذي وقع عليه اختيارهم، وفي حين خصص القديس متى فصولا بأسرها للخوارق والمعجزات، وللحكم، أو للأمثال، عرض القديس مرقس والقديس لوقا هذه المادة بعينها موزعة في سياق آخر . ولا عجب، فهم لم يتخذوا التاريخ غاية ومقصدا . وقد كتب مفسر معاصر، يعتبر ثقة في هذا الميدان، فقال:

« ومهما يكن من أمر، فإن الأصل الرسولي المباشر أو غير المباشر، وطريقة نشأة نصوص الأناجيل المتقابلة يكفيان لاثبات قيمتها التاريخية، ولبيان كيف ينبغي فهمها . إن هذه الأسفار الثلاث ترجع إلى أصل واحد، هو هذا الوعظ الشفهي الذي ساد ردحاً من الزمن لدى نشأة الكنيسة الأولى، والذي كان مرتهناً بوجود الشهود العيان وبضمانتهم . وبدهي أن أحداً من الرسل أو من سائر المبشرين ورواة الأناجيل لم يستهدف قط إنجاز عمل مما نسميه تاريخاً بالمعنى الحديث . لقد كان غرضهم دينياً لاهوتياً قبل أن يكون علمانياً : تكلموا لنشر الدعوة إلى الدين وحمل الناس إلى البر، قصدوا إلى بث الإيمان في نفوس الناس وتوضيح حقائقه لتصادف وعياً وقبولا، ولتصمد أمام معارضة المعارضين ومناوأة المناوئين، ثم قدموا لما قالوا شهادة حقة صادقة، يسيرة التحقيق والمراجعة . هذا ما فرضته عليهم أمانة ضمائرهم، ووجوب تحاشي التعرض لتكذيب المناهضين المعادين . والكتبة الإنجيليون الذين دونوا هذه الشهادات وجمعوا بينها، لم يكونوا أقل

من سابقيهم تقديراً للأمانة وحرصاً على الموضوعية التي تقدس المصادر ، ولا تبيح لنفسها أقـــل ضرب من ضروب التفريط ، بدلالة بساطة الأسلوب ، وصبغة القدم الغالبة عليه ، التي تـــكاد تخلو من التوسعات اللاهوتية التي ظهرت فيما بعد، كما نجدها في كتابات القديس بولس مثلاً، فضلاً عن خلوها من البدع الأسطورية البعيدة الاحتمال ، التي تزخر بها الأناجيل المنحولة . ولكن ، إن لم تكن الاناجيل المتقابلة الثلاثة كتباً في التاريخ ، فإن ما تقدمه للقاريء لا يخرج عن كونه تاريخياً ثابتاً . » (من الكتاب المقدس المترجم إلى اللغـــة الفرنسية ، بإشراف معهد الكتاب المقدس في القدس ، طبعة باريس ١٩٥٦ ، ص ١٢٨٥) .

على أن المؤمن ، إذا ما أقدم على تقييم الاناجيل ، يجب أن يضع في الاعتبار لا الرعاية العامة التي يكلفها الله لشعبه فحسب ، بـل تأييد الروح القدس الذي وعد به يسوع تلاميذه، والذي حل عليهم يوم عيد الخمسين . فأسفار الاناجيل ليست كغيرها من الاسفار والكتب . فهي تتمتع بضمان الجماعة المسيحية الاولى ، حيث تبلورت شيئاً فشيئاً ، تلك الجماعة التي أقرت صحة إسنادها . أما الكتّاب المقدسون ، فقـد حظوا بمعاضدة الروح القدس الذي ارشدهم بإلهامه . لذلك يصح لنـا اعتبار نصوصهم بمثابة الوثائق الاولى لاقدم الروايات المأثورة في الكنيسة منذ اول عدها ، فهي وثائق فريدة ليس لها نظير ، بل إنها فوق كل تقدير ، لان الله تكفلها بوحيه، وضمن صحتها. ألم يقل يسوع لتلاميذه:

« وأما المؤيد ، الروح القـدس الذي سيرسله الآب باسمي ، فهـو

يعلمكم كل شيء ويذكركم كل ما قلته لكم . »

(يو ١٤ : ٢٦)

وتأييد الروح القدس المشار اليه ، ينبغي ألا يساء فهمه . واذا كان معناه اولاً وقبل كل شيء تأييد الروح القدس للكاتب الشريف لكي يتوخى الدقة والامانة في نقل رسالة يسوع ، فانه يعني ايضاً إرشاد الكنيسة لضمان حسن فهم رسالة يسوع .فقد يحدث ان تؤدي الظروف بروايتين متحدتين من حيث المضمون ، إلى اختلاف طفيف من حيث العبارة ، كأن يختار القديس متى عبارة « ملكوت السماوات »، في حين آثر القديس لوقا عبارة « ملكوت الله » : فان هذا الاختلاف إنما أرشد اليه الروح القدس ، لتكون الرسالة الانجيلية أقرب الي الاذهان في البيئات المختلفة التي وُجهت اليها : ذلك ان العبارة « ملكوت الله » كانت تعني بالنسبة لليونان ما عنت العبارة « ملكوت السماوات » بالنسبة لليهود . وعلى هذا ، فالإرشاد لا يعني الجمود : فقد طرأت تغيرات في اثناء فترة تناقل الروايات الشفهية ، أذن بها الله بل دفع الكنيسة اليها ، حرصاً على سلامة فهم الرسالة الانجيلية ، دون ان يمس ذلك بجوهرها .

ان اسفار الانجيل تحمل تعليم الروح القدس ، هذا التعليم هو حقيقة الانجيل الحقة ، والكنيسة هي الهيئة المعتمدة التي بها يصل إلينا هذا التعليم .

الانجيل حسب رواية القديس يوحنا

يحتل الانجيل حسب رواية القديس يوحنا مقاماً خاصاً الى جانب الاناجيل الثلاثة المتقابلة . وهذا ما يبدو واضحاً للقاريء أول ما يشرع في تصفحه ، فيشعر بالمفاجأة ، بل بالاستغراب ، الأمر الذي يؤثر في حكمه على الكتاب . ولم ينج بعض النقاد ، في القرن الماضي ، من هذه الصدمة ، فوقفوا حائرين أمام أصالته ، مما أدى بهم الى إصدار أحكام تعوزها الأناة والتروي ؛ ولكن هذه الأحكام لم تعد تحظى اليوم باهتمام النقاد المعتدلين . واذا كان الانجيل حسب رواية القديس يوحنا لا يشبه سائر الأناجيل ، فهذا مرده إلى ان يوحنا بن زبدى الذي تسند إليه الروايات الموثوق بها هذا الاثر ، يحتل في جماعة الاثني عشر مكانة فريدة لا يشاركه فيها سواه . ويوحنا ، وهو أصغر التلاميذ سناً ، كان أعزب عندما دعاه يسوع اليه ، ولم يتزوج فيما بعد. وكان ، الى جانب طهره واستقامته ، يتمتع بمواهب ذهنية أصيلة ، لفتت اليه أنظار يسوع وحملته على اختياره ضمن أصفيائه الثلاثة . وتجمع الروايات الموثوق بها أن يوحنا هو الذي يُكنى عنه في الإنجيل المنسوب إليه ، بالعبارة : « التلميذ الذي كان يسوع يحبه » .

كان يوحنا ما زال في عنفوان شبابه ونضارة فتوته ، في الفترة التي كان الاثنا عشر يطوفون مقاطعتي الجليل واليهودية ، كما يشهد بذلك موقفه حيال تلك القرية من قرى السامرة ، التي اوصدت ابوابها في وجه التلاميذ ، فاشتعل غضبه ، وأقبل مع اخيه يعقوب على يسوع يستأذنانه

في استنزال نار السماء على اهلها (لو ٩ : ٥١ — ٥٦) ؛ فنهرهما يسوع، ولقبهما بابني الرعد . (مر ٣ : ٧٥) . اما كيف استحال هذا الشاب العنيف داعية للعطف والصداقة والمحبة ، حتى قيل عنه إنه في اخريات حياته كان لا ينفك يردد على تلاميذه : « يا ابنائي الصغار ، أحبوا بعضكم بعضاً » هذا ما تكشف عنه سيرته كلها . لقد بقي الى آخر أيامه صلب العود ، لا يلين ولا يضعف كلما تعرض إيمان تلاميذه إلى خطر الانحراف عن جادة السبيل ، من جراء خزعبلات الغنوصيين وترهات الشيع المنفصلة . وكان له في اورشليم علاقات تفرد بها بين سائر التلاميذ ، نذكر منها صلته برئيس الكهنة .وكانت تلمذته السابقة ليوحنا المعمدان برهاناً على أنه لم يكن من هذا الشباب القروي المغمور في اقاصي الريف ، المنعزل عن العمران :لقد تردد على بعض الشخصيات الدينية في عصره ، فعوضته هذه العشرة عما فاته من تعليم منهجي منتظم . فلا عجب ان تستأثر بانتباهه أقوال يسوع ومناقشاته الأبعد غوراً والأكثر عمقاً . ولماذا يراد من الاثني عشر ان يكونوا على نمط واحد من المواهب الذهنية ، وعلى درجة واحدة من الذكاء ؟ ألم نتبين مثلاً في مثل حالة القديس بطرس وترجمانه مرقس ، ان اعمال يسوع استرعت اهتمامها اكثر من عظاته وأقواله ؟ وكم من مرة يجتزيء القديس مرقس بقوله : « وكان يسوع يعلمهم »، فلا يتوغل في تفاصيل هذا التعليم ؟

راجع : مرقس ١ : ٢١ ، ١ : ٣٩ ؛ و ٢ : ١٣ ؛ ٦ : ١ ؛ و ٦ : ٣٤ ، الخ ...) .

صاغ يوحنا إنجيله في أخريات حياته ، حسب الروايات القديمة الثابتة . وقد أدلى القديس إيريناوس في هذا الصدد بشهادة بالغة القيمة ، على حد قول الأستاذ دانيال روبس ، لأنه ، أي ايريناوس ، بحكم نشأته في آسيا الصغرى وتتلمذه على القديس بوليكاربوس ، ينتمي مباشرة إلى أولئك الذين عرفوا يوحنا . قال إيريناوس : « إن يوحنا تلميذ الرب ، الذي أسند رأسه على صدره ، كتب هو أيضاً إنجيله يوم كان في أفسس » . وعلى هذا ، فالصيغة النهائية لإنجيل يوحنا ترتقي بنا إلى السنوات الأخيرة من القرن الأول . ولكن هذه الصيغة قد تقدمتها أعمال تمهيدية ، دوّنت بعض عناصرها قبل ذلك بزمن غير قليل ، مكونة طبقات النص القديمة ، ولا يستبعد أن تكون أقدم من نصوص الأناجيل المتقابلة ذاتها . مات يوحنا ، على الأرجح ، في عهد الإمبراطور ترايانوس ، أي بعد عام ٩٨ ، إذ لا يرجح امتداد عمره بعد هذا التاريخ ، لطعنه في السن . وهو في إنجيله ، لا يجهل أعمال سائر الإنجيليين ، الأمر الذي جعله يتحاشى إعادة ما سبقوه إليه . أما منهجه في معالجة مادته ، فهو أن يختار عدداً من الاحداث الكبرى التي جرت في حياة يسوع ، ليجعل منها محوراً يتبلور حوله الموضوع ويأخذ نطاقه في الاتساع دفعة بعد أُخرى ، كالبحر يقبل ماؤه إلى الشاطيء موجة في أثر أُخرى . وذهب النقاد إلى أنه يميل إلى تجميع نصوصه ، بحيث تتفق وسياق الموضوعات التي تناولتها الطقوس الدينية ، التي تمارس في المعمودية وسر الافخارستيا ... كما يبدو من حركة العرض التي ينتهجها ، أنه متأثر بهذا التروي المعهود لدى الشيوخ ، فتستوقفهم عبارات أو حوادث بعينها ، اختلطت بنفوسهم لطول التفكير والتأمل ، فلا يملوا ذكرها

وطرقها في أحاديثهم ، ولو ملها الشباب المتلهف إلى التغير والتجديد .

ما الذي حدا بالمتشككين في قيمة انجيل القديس يوحنا التاريخية إلى العدول عن موقفهم المتطرف ؟ لقد جاء هذا التحول نتيجة لعـدة امور : منهـا الكشف عن وثائق من اوراق البردى موغـلة في القـدم – سنقف عندها بعد حين – أثبتت ان نص القديس يوحنـا يرتقي إلى عهد أبعد مما تخيله النقاد المتطرفون ، ثم كان التفطن الى قيمـة شهادة يوحنا في ذاتها ، اذ أن الدقة التي يصف بها الظواهر السطحية لأرض فلسطين ، وصحة العادات التي يتحدث عنهـا ، كل ذلك يشهد بأن الكاتب لا يمكن ان يكون إلا فلسطينياً . ولا يتسع المجال بطبيعـة الحال ، لتتبع كل الأدلة التي تثبت دقة الكاتب المقدس وأصالته ، في مظاهرها المتعددة ، وحسبنا مثالاً واحداً يبين بجلاء مهمة الحفريات في حسن تقييم نص القديس يوحنا . تحدث يوحنا عن بركة ذات خمسة أروقة ، كانت تقع عند مدخل مدينة اورشليم . وظل عـدد الأروقة هذا يحير المفسرين ، الى ان أسفرت الحفريات الحديثة في القدس ، عن حوض كبير ، يقع بالقرب من باب ستي مريم : الحوض مستطيل الشكل ذو أربعة ضلوع ، وله حاجز يشطره في وسطه شطرين ، الامر الذي يصبح معه عدد الاروقة جد محتمل ، فأربعة منها كانت تقع على الضلوع الاربعة ، والخامس لدى الحاجز . وهذه حالة من ضمن الحالات الكثيرة التي جاء فيها علم الحفريات مؤيداً لوصف الانجيل .

والمضمون الفكري او النظري لإنجيل القديس يوحنا ، مـا لبث أن أثار بدوره دهشة بعض الباحثين ، فزعموا أنه من المحال ان يعالج

فلسطيني مثل هذه النظريات في عصر المسيح ، وان ما جاء به انجيل يوحنا لا يعدو ان يكون رداً على آراء كانت منتشرة في آسيا الصغرى في القرن الثاني غير ان مخطوطات قمران جاءت تشهد بوجود مثـــل هذا الاهتمام ومثل هذه التشبيهات ومثل هذا الاسلوب من التفكير الذي حكاه يوحنا عن يسوع، وذلك في فلسطين ذاتها ، وفي النصف الاول من القرن الاول ، على وجه التدقيق . لا شك أن الطابع الفلسطيني الذي يميز الإطار الديني الذي ظهر فيه هـذا الإنجيل ، تزداد معالمه وضوحاً وجلاء في الوقت الحاضر ، يوماً بعد يوم . أما مبادىء يسوع ومذهبه، كما يبدو في إنجيل يوحنا ، فليس فيهـا ما يعتبر شاذاً أو متنافراً مع الاناجيل المتقابلة ، وليس من العسير إثبات ذلك بالشواهد .

فانجيل يوحنا إذن ليس ببدعة منحولة مدسوسة على يسوع ، ولم يزد يوحنا عن أنه لفت الأنظار إلى جوانب من رسالة يسوع لم تحظ لدى الإنجيليين الثلاثة الآخرين بمثل هذا الاهتمام ومثل هذه العناية .

الاناجيل المنحولة

من المعروف لدى كثير من القراء ، أن كتبـاً اخرى غير الأناجيل الأربعة التي تقدم الكلام عنها ، وصلت إلينا ، حاملة اسم الأناجيل . ومن حقهم أن يتساءلوا لماذا قصرنا تعويلنا على الأناجيل الأربعـة دون سواها ؟ لقد اعتمدت الكنيسة الأناجيل الأربعة منذ أقدم العصور ، ونبذت الاخرى أو أعرضت عنها : وهـــذا قرار يعتبره المؤمن حجة حاسمة قاطعـــة ، ولكنها ليست بالوحيدة ، فهناك حجج أُخرى ،

تستوجب هذا الموقف ، بصرف النظر عن اعتماد الكنيسة للنصوص الاربعة القانونية . إن الصورة التي تعطيها الاسفار غير القانونية عن يسوع تختلف كل الاختلاف عن صورة الاناجيل الاربعة . ويكفي للقاريء غير المتحيز أن يطالع بضعة صفحات من أحدها ، ليدرك هذه الحقيقة. وإذا كان بعض هذه الاسفار لا يخلو من بعض الحقائق فيا يتعلق بطفولة يسوع وبآلامه ، إلا أن طابع المبالغة والغلو ، هذا الطابع الذي عرف به أصحاب سير الاولياء ، طمس هذه الحسنات تحت سيل من المواقف البعيدة الاحتمال ، والمسرفة في الخيال ، فضلاً عن بعض المشاهد المؤسفة لما يبدو فيها من سذاجة وتطفل ، أو لما تثيره من سخرية. لقد وضعت هذه الاسفار لتشبع ميل الإنسان الغريزي إلى كل ما هو عجيب وغريب ، ولكن نفسية أبطالها بلغت حداً من الضحالة وعدم التناسق جعل النقاد لا يترددون في الحكم عليها. أما البعض الآخر من هذه الاسفار المنحولة فهو يميط اللثام عن مذاهب أصحابها من باطنية وغنوصية وغيرها ، وهي أقرب إلى المرافعة الممـلة منها إلى الشهادة الخالصة التي تنبض بالحيوية والصدق. لقد صنفت لتستخدم كدعائم لمذاهب نظرية صرفة؛ فهي لذلك قليلة الفائدة كمصادر لحياة يسوع المسيح ، وان لم تخل من قيمة في مجال تاريخ بعض النحـل التي قامت على هامش مجرى الايمان الأصيل ، او في مجال تاريخ الفن او الفلكلور المسيحي ، لأن عدداً غير قليل من معطيات الاسفار المنحولة رست في فنون النحت او التصوير او الأدب المتأخرة ، فنالت الخلود إن لم تنل التأييد والاعتماد .

وأما الانجيل المعروف باسم إنجيل برنابا ، فقد أفردنا له بحثـاً

مطولاً في مكان آخر . إنه كتاب وضع في الشطر الغربي لحوض البحر المتوسط في القرن السادس عشر ، وربما قبل هذا التاريخ بقليل ، على أنه لا يمكن ان يتجاوز القرن الرابع عشر بأي حال من الأحوال . ولم يعثر منه إلا على نسخة واحدة مكتوبة باللغة الايطالية ، يرجع تاريخها إلى ما بين السنتين ١٥٥٠ — ١٥٩٠ ، وهي اليوم محفوظة في مكتبة فينا بالنمسا . والمؤلف ، وهو رجل من أهل حوض البحر المتوسط ، وفي الغالب ، من سكان ايطاليا او اسبانيا ، يستهدف نشر نظرية بعينها مفادها ان يسوع صرح بأنه ليس المسيح ، وانما جاء ليبشر بمحمد الذي سيكون هو المسيح ، لإن المسيح آت من صلب إسماعيل ، لا من صلب إسحق . واذا جاء في الكتاب المقدس خلاف ذلك، فمرده الى التحريف الذي ناله على يد اليهود . أما مادة الكتاب ، فملمومة من كل حدب وصوب ، وان كان اكثرها من الأناجيل القانونية والقرآن ، وبعض المصادر الاسلامية الاخرى . ولكن صاحب هذا الانجيل لم يتفاد الوقوع في بعض الأخطاء التي دمغت عمله وعجّلت القضاء عليه ؛ من أمثال ذلك ، أنه لا يعرف من جغرافية أرض فلسطين أكثر مما عرفته مصادره ، فمن المحال ان يكون قد رحل إلى فلسطين ، بل ان يكون من اهلها . أما معرفته بالبيئة الدينية أو السياسية التي تقلب يسوع في أجوائها فليست افضل من معلوماته الجغرافية . فالفريسيون عنده منظمة دينية ضمت متعبدين ونساكاً ويرجع عهدها الى زمن إيليا النبي . وينتهزها فرصة مواتية لتسديد سهامه إلى رهبان عصر النهضة . ثم إن الاستطرادات التي يندفع فيها برنابا المزعوم ، ليست في الواقع سوى موضوعات مقتبسة ، لا تثير غرابة إذا ما وضعت في سياقها

الزمني ، أي في منتصف القرون الوسطى ، لكنها لا تفهم البتة في بيئة غير البيئة الغربية ، وفي زمان سابق للذي أشرنا إليه . نُشر إنجيل برنابا سنة ١٩٠٧ في نصه الإيطالي ، مع ترجمة إنجليزية ومقدمة أثبتت عليه صفة الانتحال . وقد أثار عندئذ هذا الكتاب بعض الاهتمام لدى الاوساط العلمية ؛ على أن الباحثين اعترفوا بالإجماع ، بأنه نص متأخر وخال من أية قيمة تاريخية . والذي دفعنا إلى التحدث عنه في هذاالمكان هو النجاح الذي أحرزته ترجمته العربية التي نشرت سنة ١٩٠٨ . وبعد كل هذا ، نرى من حق العلم ، وقد وضع هـذا الكتاب في موضعه من الزمان والمكان،ألا تثار حوله ضجة مفتعلة تقودها الاهواء والاغراض.

* * *

لدينا حالياً مجموعة ضخمةمن الرسائل والكتبالتي تناولت المشكلات النقدية المتعلقة بالاناجيل . كتب بعضها خبراء افنوا حياتهم في هـذه الابحاث الدقيقة المضنية ، في حـين عكف آخرون على تبسيط هذه الدراسات لجعلها في متناول ذوي الثقافة المتوسطة. وهذه البحوثتمثل في مجموعها اتجاهات شتى ، شديدة التغاير بينها ؛ إلا ان النفوس المؤمنة لا تعاني وهي تقرأها من عقـدة النص او تضعضع الثقة ، لان موقفها يعززه العقل ولا يقوى النقد على الطعن فيـه . واذا كان المسيحيون المثقفون يولون الاناجيل ثقتهم واحترامهم ، فمرد ذلك اولاً إلى إيمانهم، ثم إلى الجهود العظيمة التي بذلها المفسرون المعتدلون ، ليبينـوا قيمـة النصوص الانجيلية وأحقيتها بالعناية والتقدير . هذه الدراسات لا قبل لنا بعرضها ، ولو بإيجاز ، في هذه الصفحات المعدودأة ، إلا ننـا نود

أن نوجز هنا أهم المشكلات التي واجهها المفسرون ، والاتجاهات التي على ضوئها سار البحث عن الحلول . نحن نعتقد أن تحديد المعضلات والنظر إليها كما هي في سياقها ، أقرب السبل لتهيئة العقول الى فهمها.

ما هو اذن جوهر الموضوع ؟ أن نحكم على مجموعة من أعمال الرواية والإنشاء والترجمة ، التي أدت الى تعريف البشر بحياة يسوع وتعليمه ، علماً بأن الذين رووا ،والذين كتبوا او ترجموا لم يشعروا بوجوب إثبات نشاطهم بالتقارير والمحاضر ، وحسبهم أنهم عاشوا والسلام . فلا غرو إذا انتابتنا الحيرة ، ونحن نتساءل ، بعد تعاقب الاجيال والقرون ، هل من حيلة إلى التحقق من قيمة عملية التوصيل هذه ، وبالتالي ، من صحة الحوادث والتعاليم التي نقلت إلينا عن طريقها .

هناك اكثر من وسيلةللحكم على احداث الماضي التي لا يمكن الاهتداء إليها بالطريقة المباشرة . إن الحضارة الإسلامية حرصت على إسناد كل خبر أو نص وارد من الماضي ، إلى سلسلة الاشخاص الذين تناقلوه الواحد عن الآخر . ولدينا اليوم عدد صغير من إخصائيي الدراسات القرآنية ، ممن يستطيعون سرد اسماء الذين اوصلوا إليهم نص القرآن بالتسلسل ، ودون أغفال حلقة واحدة من حلقات السلسلة، شأنهم شأن البابا أو أي واحد من البطاركة لدى المسيحيين ، الذي يستطيع تعداد جميع من سبقوه على كرسيه منذ إنشائه ، أو منذ عهد الرسل . ففي مثل هذه الظروف ، وعندما يحرص كل ناقل في حضارة ما ، على تسجيل اسماء الموصلين السابقين ، لا شك في أن أية فجوة في سلسلة الإسناد تنم عن إهمال خطير أو عن ارتباك العالم وتشككه . ولكنه

من الظلم الفادح مطالبة الحضارات أياً كانت ، بابراز دليل الإسناد : فقد تكون قد غالت في الحرص على تراثها الديني والثقافي ، ولكن دون الاعتماد على وسائل تسجيل الاسماء . والاستهانة بالأناجيل بدعوى جهل اسماء رواتها ، ما هو في الواقع إلا رفض التسليم بتعدد وسائل تحقيق التراث وبتنوعها ، وفرض الدليل الذي يتمشى مع مقومات حضارة ما ، على جميع أصناف الحضارات وألوانها ، بدون مبرر وبغير وجه حق . فقد جرت في الماضي السحيق أحداث بالغة الأهمية ، وهي على اهميتها ما زالت محاطة بهالة من الغموض : أيحق لنا رفضها بحجة جهلنا لاسماء أبطالها ؟ على سبيل المثل ، كيف بدأت هذه المرحلة او تلك من عصر البرونز أو عصر الحديد ؟ سؤال محير ، لا سبيل الى الاجابة عليه على وجه الدقة .. ومع ذلك ما اعظم الفائدة العلمية التي ستعود علينا من جراء الاجابة الوافية على مثل هذا السؤال ! .. ولكن لا مفر من الرضوخ للأمر الواقع والتسليم باننا سوف نبقى على جهلنا في هذا الميدان إلى الأبد . غير انه لا يخطر على بال رجل عاقل ان يطمس هذه المخترعات او يرفض الاعتراف بها . ذلك أن هنالك وسائل أخرى للاستعلام والتحقيق ، والمؤرخ الحق لا تعييه الحيلة .

إحدى هذه الوسائل الشائعة في مجال النقد التاريخي ، أن يجري بانتظام عدد من الاختبارات ، سواء على النص وتوصيله ، وهذا ما يعرف بالنقد الخارجي ، أو على الموضوع وما يتناوله من قضايا وأحكام ، وهذا هو النقد الداخلي . هذا العمل يقتضي دراسة المخطوطات بحسب الأسر التي تنتمي إليها ، ثم بحث شواهد النص التي استشهد بها الكتاب

المعاصرون منهـــم والمتأخرون . وتستكمل هذه الدراسة بالنظر إلى ترجمات النص إلى اللغات الأخرى ، إذا مـــا وجدت . ثم يأتي دور الدراسة التحليلية للأفكار المعروضة في النص ، بعـد وضعها في سياقها التاريخي والجغرافي ، ليتيسر الحكم على رصانة صاحبها . وهناك مجموعة من العلوم الفرعية ، يستعين بها المؤرخ لاستكمال بحثه ، كعلم فقه اللغة ، وعلم الخطوط القديمة ، وعلم الآثار ، وعلم الأدب وعلم النقود الأثرية .. الغرض من هذا كله التأكد من أن النص خال من المتناقضات الداخلية والخارجية . عندئذ ، تبرز أهمية شهادة الرواية المأثورة المتواترة ، إذا ما ثبت أنها مطابقة متوافقة مع المعلومات التي أسفر عنها البحث . إن خطة البحث هذه لشاقة ، تستدعي الجهود المضنية الطوال ، ولا ضير ، ما دام الهدف سامياً وجديراً بهذا العناء ، وهل قال أحد أبداً بوجوب إلغـاء اختبارات المعامل او الصناعات أو مراكز البحوث ، بحجة استنفادها لكثير من الوقت والجهد ؟

إن طريقة النقد التاريخي هذه أصبحت عرضة لانحراف ذريـع ، لا بد من التلميح إليه والتنديد به ، لخطورة مايترتب عليه من لبس مضلل . فإلى جانب الأسس التي أوضحناها ، يلجأ كثير من المؤلفين المعاصرين إلى الأحكام المسبقة ليسترشدوا بها ، باعتبارها بديهيات مسلماً بها ، كالمبدأ القائل بأن الله ، إذا ما افترضوا وجوده ، قد نفض يديه من شؤون هذا الكون ، ويتذرعون باسم العلم ، وبما كان يوحى إليه من آمـــال عراض في القرن التاسع عشر ، ليرفضوا كل وحي وكل معجزة . إن عدداً كبيراً جداً من الحملات التي تعرّضت لها الأناجيل من جهة إسنادها ،

مردها إلى ما تحتويه نصوصها من معجزات ، وتدخل من العالم العلوي..
هذا عيب في نظر بعض النقاد ، مفسد للنص مبطل لقيمتـه . وعلى ذلك فمن مستلزمات مبدئهم ، وبل من الفروض السابقة للبحث ، استبعاد المعجزة ، وبالتالي إسقاط كل نص يروي خارقة ما ، وإبطال قيمتـه العلمية . فيعمد هؤلاء النقاد الى التاريخ ، يغربلونه بمنخلهم ، لتطهيره مما يفوق منطقهم ، وتصفيته مما يتداخله من أعمال الله الخارقة . ولا بأس بعد هذا الاستبعاد من اعتصار الذهن وبذل الجـهود لتفسير كل شيء بالوسائل الطبيعية ، بالوهم ، بالحساسية المرهفة ، بالسذاجـة ...
وقد ضرب رينان في هذا الميدان، مثلاً ليس أروع منه ، وعرض اراءه بصراحة فاضحة في مقدمة الطبعة الثالثة عشرة من كتابه (حيـــاة يسوع) ، الذي شيده على أساس أن المعجزة أمر مستحيل . قـــال : « اذا كان للمعجزة وجود مـــا ، فان كتابي هذا ليس إلا نسيجاً من الأباطيل » . ثم قال : « اني أستبعد المعجزات ، لا لأن أحداً أثبت لي أن الانجيليين ليسوا جديرين بالتصـــديق التام الاعمى ، ولكن لان روايتهم للمعجزات تدفعني الى القول بان الاناجيل أساطير ، قد تحمل تاريخاً ، ولكنه محال ان يكون كل ما فيها تاريخياً » لا يخفى أن مثل هذه المقدمات لا تبقي على الدين من شيء . وفي الباب السابع عشر من كتابه يعلن : « لنغفر له (أي ليسوع) أمله الواهم في مجيء ، ترفرف عليه أجنحة النصر الباهر فوق غيوم السماء . »

إذن يتحتم علينا في هذا المقام أن نفرق بين نقد تاريخي متحرر من قيود الآراء الفلسفية القبلية ، وهو السبيل الذي تنتهجه مدرسة النقد

التاريخي المعتدل ،ونقد تاريخي آخر يسير على أساس رفض المعجزات ونبذ عالم ما فوق الطبيعة . هذه الطريقة الثانية تتخلى عن الموضوعية باعتمادها على مقدمات لا يمكن أن تصادف قبولاً من الجميع .

ولا يبقى علينا ، قبل وضع القلم ، إلا أن نوجز أهم الأغراض التي استهدفها النقد التاريخي المعتدل تجاه مشكلة إسناد الأناجيل .

نص الاناجيل

إن الذي يدخل الحجرة التي يعمل فيها جماعة من المتخصصين في نشر النصوص ، تروعه أكداس النسخ ، والصور الشمسية ، والأفلام الدقيقة الواردة من شتى المكتبات . ولا غرو ، فإن أولى خطوات العمل تقتضي إحصاء جميع المخطوطات القديمة للنص المراد تحقيقه . وإلى جانب ذلك ، لا بد من رصد جميع مقتطفات النص الواردة في الكتب المختلفة التي ظهرت منذ أقدم الأزمنة . بعد ذلك كله تأتي مرحلة دراسة هذه المادة واستنطاقها ، لمعرفة أسرارها . ولا مبالغة في القول أن ناشر النصوص ليس إلا خبيراً فنياً ، يستدل ببعض الظواهر لاصدار حكم تقييمي على الصفحات المعروضة عليه .

وليس الأمر على ما يبدو من البساطة . إن المؤلف لا يكاد يفرغ من تدوين نصه وينفض منه يده ، حتى يصبح مخطوطه عرضة لمغامرات لا تحصى . سوف يُقرأ ويفحص وينسخ ، سوف ينقل من مدينة إلى أخرى ، ثم تنقضي السنون ويصيب البلى النسخ القديمة من جراء التداول

والاستعمال ، فتستهلك ، ثم تختفي ، ليحل محلهانسخ شابة فتية ، تحمل الأمانة وتخلد النص . أمـا النسخ التي تزول وتتلاشى بسبب قدمها وما نالها من العطب ، فهي لا تثير اهتمام الناشرين ، بخلاف النسخ الأخرى: فإن سحبها من التداول لا يضع حداً لدبيب الشيخوخة في أوصالها ، وتأثير عوامل الفناء فيهـا ، من أنواء الطبيعة ، وأسنان القوارض وكوارث أخرى متعددة كالزلازل ، والحرائق والتدمير .. ولا ينجو من الفناء إلا الصفحات التي تصونها رمال الصحاري الجافة ، او أيدي أمناء المكتبات الرفيقـة الحنونة ما أكثر آيات الأدب الكلاسيكي القديم التي فقدت أقدم نسخها ، ولم يعد كبير أمل في العثور عليهـا ، والعاقبة لله . ولكن الواقع ان المخطوطات بدون استثناء المفقود منها، لا تفنى تماماً . انها تترك آثاراً يمكن على هديها متابعة الخطوط العريضة لتاريخ النص ، عبر ما انتابه من محن وصروف عندما يعمد جماعة من النسّاخ الى نقل مخطوط ما ، فانه من المحال ألا يقع واحـــد منهم في بعض الهفوات ، بسبب السهو أو عدم الانتباه ، كأن يضع كلمة مكان أخرى ، او يسقط عبارة او جملة ؛ وهكذا ، ستختلف النسخ الناتجة بعضها عن البعض الآخر ، اختلافات دقيقة ، قد لا تدركها العين غير المدربة ، وقد لا تؤثر في المعنى بقليل او كثير ، ولكنها تصبح من العلامات المميزة للنسخة التي تحملها . لنفرض على سبيل المثل ، ان لدينا نسختين قديمتين ، النسخة (ا) والنسخة (ب)، أصابها الهرم وجنى عليها الزمن والنسيان. ثم إذا الدهر يبتسم لإحداهما ، ولتكن النسخة

(ا) فتنسخ من جديد حيث يعثر عليها، او في اي مكان آخر قد تُحمل إليه . عندئذ ستحمل جميع النسخ المولدة من (ا) علامات مميزة تكون للنسخ المولودة من (ب) خالية تماماً منها . فاذا ما تناول الخبير هذه النسخ المختلفة ، هدته هذه الاختلافات المميزة ، عن طريق المقارنة ثم التصنيف ، إلى إرجاع كلّ منها إلى إحدى النسختين الأصليتين (ا) او (ب) ، أو إلى اصل ثالث مشترك . وهكذا يؤدي به هذا التصنيف إلى رسم شجرة النسب التي تبين العلاقات بين المخطوطات ذات الجد الأكبر الواحد ، فيما عدا المخطوطات الهجينة . ويستطيع الناشر إعادة تكوين النص الأصلي بالجمع بين النسخ التي تمثل كل اتجاه من الاتجاهات ، أي كل فرع من فروع شجرة النسب ، ولنسمِ هذه النسخ الأصول الثانية . هذا العمل يتم بتطبيق عدد من المباديء ، هدت إليها الخبرة وطول الممارسة . والذي يبرّر هذا الاجراء ان الأصول الثانية ترجع لا مناص الى أَصل أَول واحد . وكلما عثرنا على مخطوط قديم ، وتبين لنا أنه يحمل الاختلافات التفصيلية المميزة لأصل من الاصول الثانية ، أمكننا الجزم بما لا يرتقي إليه الشك ، بان الأصل الأول أوغل من هذا المخطوط في القدم .

وبالعودة إلى الأناجيل ، يتبين لنا أن النقد النصي يجد أمامه مجموعة ضخمة من المخطوطات ، تفوق عدد مخطوطات أي نص كلاسيكي قديم آخر ، منها ما يعود إلى ما قبل القرن الرابع ، وهي قليلة العدد ، وإن

كانت ذات قيمة لا تقدر بثمن ، ولكن إغلبيتها العظمى ترجع إلى القرن الرابع والقرون التالية . وفي هذه المجموعة الثانية ، نستطيع أن نميز بوضوح الأصول الثانية المختلفة، التي تفرعت منها سائر المخطوطات. أما قلة عدد المخطوطات التي ترتقى إلى ما قبل القرن الرابع، فمرده على الأرجح ، إلى أن مسيحيي القرون الأولى استعانوا بورق البردي لنسخ الأناجيل، والمعروف أن هذا الورق ذو قابلية كبيرة للتفتيت والتلف. أما المدونات الرائعة الفخمة التي حفظت وخلدت ، فهي مصنوعة من ورق الرق ،ويرجع تاريخها إلى ما بعد مرسوم السلام القسطنطيني .نذكر من هذه المدونات المخطوط الفاتيكاني ، من القرن الرابع ، وإن كان من المرجح أنه نسخة لنص يرتقي إلى القرن الثاني ، والمخطوط السينائي ، نسبة إلى دير سانت كاترينا في سيناء ، ويعود إلى القرنين الرابع والخامس ، ولمخطوط الإسكندري ، وهو من القرن الخامس .

وقد اهتدى ناشروا النصوص الإنجيلية إلى أن هذه المخطوطات تقتسمها أربع مجموعات رئيسية ، أو أربعة أصول ثانية ، هي :

ـ الأصل الثاني د (D) ، وهو أقدم الأصول ، ولدينا منه عدة مخطوطات منسوخة على ورق الرق وعلى ورق البردي،وترجمات لاتينية قديمة وأخرى سريانية، وقد عرف هذا الأصل بالأصل الغربي ، لكثرة شيوعه في بلاد الغرب ، وإن ثبت انه إسكندري المصدر .

ـ الأصل الثاني ب (B) الذي منه المخطوط الفاتيكاني ،والسينائي ، وبعض مخطوطات البردى . ومن هذا الأصل استقى إكليمنضوس

الإسكندري وأوريجانوس شواهدهم الإنجيلية .

– الأصل الثاني ا (A) الذي يتميز بأناقته ، وإليه يرجع المخطوط الإسكندري . وقد نال هذا الأصل انتشاراً واسع المدى ، بعد أن عولت عليه كنيسة القسطنطينية ، وكان معتمد آباء الكنيسة منذ القرن الرابع . ويرجح أن يكون مصدره مدينـــة أنطاكيا ، وربما مدينة الإسكندرية ، وهو يعتبر وسطاً بين الأصلين ب (B) و د (D) .

– الأصل الثاني جـ (C) المعروف بالأصل القيصري ، وإليه ترجع اوراق البردي المعروفة بأوراق بردي شستر بيتي ،وهي من اواخر القرن الثالث ، وكذلك الترجمات الأرمنية والجيورجية .

وأما أقدمية الأصول الثانية المختلفة ، فيُهتدى إليها عن طريق المقتطفات التي استشهد بها آباء الكنيسة . هذه الشواهد بارزة معروفة في كتابات القديس ايريناوس ، وإكليمنضوس الإسكندري ، وترتوليانوس ، وأوريجانوس (أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث) .

وقد أُجريت دراسات على الشواهد الانجيلية الواردة في مؤلفات الآباء الأسبقين ، من أمثال القديس جوستينوس ، المتوفي حوالي ١٦٥ : فثبت من هذه الدراسات ، ان الكنيسة في مجموعها ، كانت قد اعتمدت الأناجيل الاربعة – وكانت شائعة التداول – منذ الثلث الاخـير من القرن الثاني ، كما تشهد بذلك قائمة الكتب القانونية المعمول بها في ذلك الحين ، والمعروفة في الأوساط العلمية باسم قائمة موراتوري . هـــذه

الفترة بعينها يمكن اعتبارها فترة انتقال من مرحلة كانت فيها ذكريات العهد الرسولي ساطعة لامعة (بشهادة القديس إيريناوس ، الذي تلقى رواياته عن القديس بوليكاربوس ، وهذا الاخير عن القديس يوحنا) ، إلى مرحلة درست فيها هذه الذكريات وعفا عليها الزمن شيئاً فشيئاً ، وكثر فيها عدد الشيع والنحل الخارجة عن جادة الايمان ، وراحت تنشر بدعها وتذيع ترهاتها ، كما فعلت الغنوصية ، فهب إيريناوس لمنازلة جميع الخارجين ، معتمداً على الرواية الرسولية المتواترة ، ومؤكداً اهمية الوثائق الصحيحة . لا شك في أن هذه الوثائق كانت موجودة ، وحسبنا دليلاً على وجودها ، تلك الشواهد التي يستشهد بها القديس جوستينوس ، او تلك التي نعثر عليها في كتابات الغنوصيين أنفسهم ، وان كان تأويلهم لها بما يتمشى مع أغراضهم : فهذا بطليموس ، تلميذ فالنتينوس ينقل ، في حوالي سنة ١٦٠ ، مقدمة إنجيل القديس يوحنا ، مزودة بتعليقاته الخاصة ، وها هو ذا فالنتينوس نفسه ، او ربما أحد تلاميذه ، يؤلف كتاباً في حوالي سنة ١٥٠ ـ او بين سنتي ١٤٠ و ١٥٠ ، كما يرجح البعض ـ أسماه إنجيل الحق ، عثر عليه منذ قليل في مصر ، وطبع في زيورخ ، سنة ١٩٥٦ ؛ الطريف في هذا الكتاب أنه ليس إنجيلاً بالمعنى الحقيقي ، « فلا يروي قصة حياة يسوع ولا يصف أعماله أو ينقل أقواله او احاديثه : إنه على نقيض ذلك يفترض ان قراءه يعرفون الاناجيل المتقابلة وإنجيل يوحنا ، وربما ايضاً إنجيلاً آخر ، مثل انجيل الطفولة ، الذي يؤول بعض حوادثه او أمثاله بما يخدم غرضه (مقدمة طبعة زيورخ ، ص ١٥) . ولدينا أخيراً مخطوط قصير جداً من ورق البردي ، يعرف باسم بردي ايجرتسون ٢ ،

يرجع تاريخه إلى ما بين سنتي ١٢٥ و ١٥٠ ، ويشمل نصاً يرجح حالياً أنه يعول على الاناجيل المتقابلة وإنجيل يوحنا . وبمرور الزمن، واختفاء أجيال المسيحيين الاولى ، اصبح واضحاً ان الاناجيل الاربعة سوف تحتل في حياة الكنيسة مكانة ستزداد مع السنين اعتباراً وخطورة ، فنرى مثلاً القديس ايريناوس يعتمد عليها في مواجهة الشيع الانفصالية ومحاربة بِدَعها ، لا سيما الغنوصيون .

ولا يجوز الغض من شأن ترجمات الأناجيل القديمة إلى اللغات الأخرى : الترجمة اللاتينية العتيقة ، التي ستحل محلها فيما بعد ترجمة الفولجات ، والترجمة السريانية والقبطية والأرمينية والجيورجية ... فالفحص الدقيق يهدي إلى معرفة النصوص الثانية التي اعتمد عليها المترجم ، وما هي الاختلافات التي فضلها على سواها .

هذا عن شواهد الأناجيل المبثوثة في كتب الأولين ؛ ولكن ماذا عن نصوص الأناجيل ذاتها ؟ لدينا مجموعة من أوراق البردي تشتمل على جزء كبير من الأناجيل وترجع إلى القرن الثالث ، أهمها أوراق شستر بيتي ؛ وفي سنة ١٩٥٦ ، تم اكتشاف أوراق بردي بودمير ، التي نجد إنجيل يوحنا مسجلاً فيها بأكمله ، مع أجزاء كبيرة من إنجيل القديس لوقا ، وهي تعود إلى أواخر القرن الثاني وبداية الثالث . غير أن أقدم مخطوطات عثر عليه إلى اليوم ، إنما هو بردي جون رايلاند ، الذي يحتوي على أجزاء من الإصحاح ١٨ من إنجيل القديس يوحنا : إنه يرتقي إلى النصف الأول من القرن الثاني ، ويرجح البعض أنه من سنة ١٣٠ .

هذه القطعة من البردي التي عثر عليها في مصر العليا، تشهد بسعة انتشار نص الإنجيل حسب يوحنا ، إذ أنه كتب في آسيا الصغرى ، باعتراف الروايات الصحيحة ، وكان متداولاً في مصر العليا، ولم يمض على كتابته أكثر من ٣٠ أو ٥٠ عاماً .

نستخلص من هذا العرض الموجز لتاريخ النص الإنجيلي ، أن هذا النص مُني باهتمام النساخ البالغ ، فنشطوا في نقله منذ أقدم العصور ، وكثرت المخطوطات وأدى ما وجد فيها من هفوات إلى إرجاعها إلى عدة أصول ثانية، وهذه الأصول الثانية استدعت بدورها وجود أصولى أولى سابقة وخالية من الفروق التفصيلية المميزة . إذن ، لقد أصبح في إمكان هذه الحركة النقدية إحياء النص الأول الأصلي في شيء كبير من الدقة . وإن كان النقد عاجزاً عن أن يحدد بمفرده تاريخاً دقيقاً لكتابة الأناجيل ، فلا مفر ، على أية حال من الاعتراف بأن موقف الرواية المسيحية في هذا الصدد ، موقف قوي ، لا تنقصه الدعائم . فليس ثمة خروج على العقل أو على الواقع في القول بأن إنجيل القديس يوحنا يرتقي إلى أواخر القرن الأول ، والاناجيل المتقابلة ، إلى قبيل هذا التاريخ . ولا بأس من سَوق مقارنة ، قد تزيد الموضوع بياناً : إن صحة إسناد رسائل القديس بولس الكبرى معترف بها بالإجماع ، وتاريخ صدورها يمكن تحديده بدقة اكثر من تاريخ الأناجيل ، فهي على وجه التأكيد سابقة لظهور الأناجيل المتقابلة بعدة سنوات : ورغم ذلك كله ، فاننا

لا نملك من هذه الرسائل مخطوطات أقدم من مخطوطات الأناجيـــل المتقابلة ، بل العكس هو الأصح .

لقد سبق ان أشرنا إلى ان هذه العملية النقدية كلها قائمة على دراسة الفروق المميزة التي هي وسيلة العثور على الأصول الثانيــة ؛ ونبادر إلى طمأنــة القاريء ، لعــل الظن يذهب به إلى ان فروقاً جوهرية تقــيم مخطوطاً ضد مخطوط : فندعوه عندئذ إلى الاطلاع على البحث الوافي ، رغم بساطته ، الذي قام به الأب أميو ، في كتابه « مصادر حيـــاة يسوع » (سلسلة « الايمــان عن طريق العلم ») ؛ من هــذا الكتاب ، الذي ندين له بعدد لا بأس به من معلوماتنا ، نقتبس ما يلي :

« إن أغلب هذه الفروق تافهة ، لا تتجاوز الغلطات الهجائية وترتيب الألفاظ . وفي اعتقاد هورت ، أن سبعة أثمان النص لا تثير أي خلاف ، وان الفروق التي تمس المعنى لا تتعدى جزءاً من كل ألف جزء من النص ، في حين ان عدد الاختلافات ذات الأهمية لا يتجاوز الخمسة عشر ، ولا نعثر على اختلاف واحد يمس جوهر العقيدة الثابتــة ، التي نهتدي إليها بالرجوع الى النصوص التي أيدها النقد ، دون حاجــة الى النصوص المشكوك فيها » .

دقة المسيحيين الاوائل في نقل النصوص

إن انصراف المسيحيــين الأوائل عن تسجيــل اسماء الذين تناقلوا رواية اعمال يسوع وأقواله ، لا يطعن في حرصهم على سلامــة رسالة

سيدهم . فقد اتخذت هذه الرسالة ثوب النص الديني، أي طابع الوديعة المقدسة، والجماعات الدينية لا تألو جهداً في سبيل الحفاظ على مثل هذا التراث . وإذ يوجـه القديس بولس توصياته إلى تلميذه تيموتاوس ، لا يفوته أن يأمره بوجوب المحافظة على وديعة الإيمان . هذا ، ولم يكن الشعور بخطورة النص وبضرورة حمايتـه من التحريف شعوراً نادراً في في العالم اليهودي أنذاك : هذه حقيقة لمسها النقاد بشكل جلي فيما يتعلق بكتاب أشعيا النبي : فقد كانت أقدم مخطوطات هـذا الكتاب باللغة العبرية ترجع إلى نهاية القرن التاسع وأوائل العاشر بعد الميلاد . فعندما كشفت مخطوطات قمران ، عثر من بينهـا على نصين لكتاب أشعيا يرجعان إلى ما قبل تاريخ النص الذي كان في حوزتنا بما يقوب من الف عام . ولحسن حظنا وجد أن أحد هذين المخطوطين كان من فصيلة النص الذي كان بين أيدينا قبل الكشف ، وبالمقارنة بين الاثنين، تجلت الأمانة في النقل بما يدعو إلى العجب .

ولا يغرب عن بالنا ان الأناجيـل ما لبثت ان انتشرت إلى بلدان تفرق بينها مسافات شاسعة . وبدهي ان أي نص ديني ، اذا أخـذ يتداول بين المؤمنين ، أصبح من الميسور عليهم ، وبخاصـة المسافرين منهم ، مقارنة المخطوطات بعضها ببعض ، فيتعـذر عندئذ التزييف والتحوير . فلو سلمنا جدلاً بأن مخطوطاً ما قد أصابه التحريف ، فإن المخطوطات الاخرى لا تلبث أن تلفت النظر إلى هذا التشويه ، وتدعو إلى ملافاته بالعودة إلى النص الأصيل : فالأفراد ، في كل المجتمعـات يتعرضـون ، أرادوا أم لم يريدوا ، إلى نوع من الرقابة ، لا تخلو من

الفائدة . لهذه الأسباب ، لم يتردد الإمام محمد عبده ، المصلح الاسلامي المصري الشهير ، المتوفي سنة ١٩٠٥ ، في تسفيه التهمة الموجهة ضد اليهود والمسيحيين بتحريف نص كتبهم ، وان كان يعتب على المسيحيين انهم ، على رأيه ، يحورون معنى نصوصهم بتفسيرها بطريقة لا يقرها هو . فقال ان توجيه مثل هذه التهمة « غير معقول ، اذ لا يمكن ان يتواطأ أهل الكتاب على ذلك في جميع الأقطار ، ولو فعله الذين كانوا في بلاد العرب ، لظهر اختلاف كتبهم مع كتب إخوانهم في الشام وأوربة مثلاً » (تفسير المنار ، جـ ٢ ص ٤٩) . ومعروف أن الشيخ الإمام هو واحد من المسلمين الذين يقرون صحة إسناد الأناجيل . وفي مكان آخر من تفسيره ، تنبه الى ما تكلفه التلاميذ من طويل المعاناة قبل ان يتوصلوا الى تفهم سيدهم ، ثم استطرد يقول : « وهي (أي الأناجيل) الانجيل الحقيقي في اعتقادنا »(تفسير المنار جـ٢ ص ١٦٠).
الواقع ان مثل هذا الموقف نادراً ما نلمسه لدى المسلمين ، وان كان قد تمثل في الماضي في أعلام من مثل فخر الدين الرازي ، وابن خلدون.
لذلك وجب علينا التنويه به ،سواء بسبب شخصية الإمام ،أو لوجاهة الحجة التي بنى عليها حكمه . أما ابن خلدون ، فهو لا ينفي إمكان وقوع التحريفات المادية التي هي من صنف غلطات النساخ ، ولكنه أضاف قائلاً ان في مثل هذه الحالة ،ليس بالعسير على النقد إحياء النص الأصلي الصحيح .

والذي ينبغي ملاحظته أن الكنيسة الأولى لم تعرف الثراء ، لأن أفرادها كانوا ينتمون إلى الطبقة الوسطى أو ما دونها ؛ فلا غرو ،

والحالة هذه أن تعهد مهمة النسخ لا إلى مشاهير النساخ بل إلى صغارهم. ومع ذلك ، كان الحرص شديداً على عدم الرضى إلا بالنصوص الإنجيلية الصحيحة الإسناد ، السليمة من التحريف ، بدليل تعويل الذين تطوعوا للدفاع عن الدين على غربلة النصوص التي اعتمد عليها الغنوصيون لإظهار ما فيها من متناقضات . حقاً إن وديعة الوحي لم تكن بهينة ، إلا أن وعي الكنيسة لها كان على قدر خطورتها ، فلا استهانة ، ولا تفريط .

ولكن ، ألم يكن للاضطهادات الدامية التي منيت بها المسيحية من قبل الدولة الرومانية ، أثر وخيم في مجال توصيل الكتب المقدسة ؟ السؤال جدير بإثارة اهتمامنا ، لا سيما وان هذه الاضطهادات دامت شبه متصلة الحلقات ، طوال قرنين ونصف قرن من الزمن . ولا بأس في هذا الشأن من عرض بعض الملاحظات التي قد تساعد على الإلمام بأطراف الموضوع ، وان تعذرت علينا معالجته بشكل واف في مثل هذه العجالة . إنه يكون من سوء التقدير أن نظن ان هذه الاضطرابات قد اتخذت صفة المنهجية والشمول ، كما هي الحال في الاضطهادات الحديثة او المعاصرة . لقد كانت جد قاسية ، ما في ذلك شك ، والشجاعة التي أبدتها تلك الجموع الغفيرة من الرجال والنساء والاطفال الذين فضلوا الموت طوعاً واختياراً على الارتداد وإنكار المسيح ، لباقية ذكراها خالدة إلى الأبد في قلوب المسيحيين . ولكن ، لننظر إلى الموقف كما كان ، على ضوء التاريخ والواقع . لقد كان حكام الولايات يتمتعون بشيء من الحرية في أداء وظائفهم ، وحسبنا ان نتصور الزمن الذي كانت تستغرقه الرحلة بين روما وعاصمة أية ولاية من الولايات ، لندرك تعذر قيام

الحكم على أساس من المركزية الصارمة في الإمبراطورية الرومانية المترامية الاطراف . هذا يفسر سبب التباين الذي نلاحظه في تنفيذ مراسيم الاضطهاد في مختلف الولايات . فقد تكون الحالة سيئة فظيعة في مدينة ما ، في حين نجد الوالي ، في ولاية أخرى نائية ، يتغاضى عن أشياء كثيرة . أما الكتب المقدسة ، فلم يكن التفتيش عليها دوماً أبداً الغاية التي استهدفها الطغاة في الأزمات الأولى . ولكن عندما قررت السلطات الرومانية التنقيب عن هذه الكتب لإحراقها ، صمد المسيحيون للعاصفة ، وانتظروا الفرج وعودة السلام ، وما كان انتظارهم في الغالب ، ليطول أكثر من سنوات معدودة . وقد أثبتت الأحداث التي نعاصرها أن حملات التفتيش التي تشنها قوات الاحتلال في البلاد المقهورة ، بحثاً عن الاسلحة أو منشورات المقاومة ، قد تبوء بالفشل الذريع ، رغم قسوة الوسائل الحديثة المتبعة ، أمام تحدي الاهالي وتعاهدهم على التستر والسكوت . بذل المسيحيون جهوداً بطولية لصيانة كتبهم المقدسة في فترات الاضطهاد ، وقد حالفهم النجاح حيث بلغ عداء السلطات أشده . كم من شهداء ضحوا بحياتهم رخيصة دون ان تخرج من شفاههم الكلمة الواحدة التي قد تكشف عن مخابيء كتبهم . وبما أن ضراوة الاضطهاد لم تكن في جميع المقاطعات على درجة واحدة ، فقد ظل المسيحيون في بلاد كثيرة في أمان نسبي ، بدليل أن مكتبة هامة ، في مدينة قيسرية فلسطين ، كانت ، بعد حلول السلام القسطنطيني ، تحتوي كتباً قديمة ، ترجع إلى ما قبل الاضطهادات : هذا دليل على أن الاضطهادات لم تحقق كل أهدافها . ونعلم ايضاً ان

القديس إيرونيموس ، وهو من القرن الرابع اطلع على كتب مفقودة اليوم ، كانت قد اجتازت بسلام أزمة الاضطهادات .

حقاً ان مسيحيي القرون الأولى لجديرون بكل ثقة لما أبدوه من أمانة في الحفاظ على وديعة النصوص الانجيلية .

هل شهادة تلاميذ يسوع الاولين جديرة بالتصديق ؟

إن النتائج التي توصل إليها علم التفسير المعتدل النزعة تتفق على أن الأناجيل الأربعة هي صورة صادقة لحياة يسوع وتعاليمه ، كما كانت الكنيسة تبشر بها فيما بين سنتي ٦٠ و ٩٠ ، لإنها شهادة أناس عاشوا مع المسيح ، وشهدوا كل ما رووه . ثم اتخذت هذه الشهادة شكلها الكتابي المعروف ، سواء على أيدي التلاميذ أنفسهم ؛ كما هي الحال بالنسبة إلى متى ويوحنا ، أو على أيدي تابعيهم من مثل مرقس ولوقا . فالأناجيل إذن تكشف النقاب عن إيمان الكنيسة في عهد الرسل .

وهنا يواجه المفسر سؤال خطير لما يترتب عليه من نتائج : أكان تلاميذ يسوع شهوداً عدولاً أمناء ، أم كانوا ضحايا الوهم والأحلام ؟ إن الرغبة في إبطال شهادة البشيرين دفعت بعض المتطرفين إلى بذل الجهود في سبيل إرجاء تاريخ تحرير الأناجيل بقدر المستطاع. ولكنهم عجزوا عن تبرير مزاعمهم الموسومة بطابع الأهواء والأغراض ، فلم يحظوا بإقناع الجميع . وادعى البعض الآخر أن السذاجة والغرور أوقعا تلاميذ يسوع في أوهام مضللة ، أثرت في شهادتهم ، كما فعل رينان ، في

محاولته لرفض حقيقة المعجزات التي ترويها الأناجيل .

وقد أمعن في دراسة هذا الموضوع عدد من المفسرين ، ومن خبراء تاريخ أصول الدين المسيحي. ولا يسعنا مرة أُخرى إلا أن نحيل القاريء إلى دراساتهم ، فنكتفي هنا بالإشارة إلى أهم الخطوط التي سارت عليها نتائجهم . وأول ما لفت انتبـــاه هؤلاء الباحثين ، مطابقة الإطار التاريخي والجغرافي للأناجيل لمـــا يستفاد من سائر المصادر والوثائق الاخرى . كثير من المشاكل التي عالجها يسوع كانت موضع نقاش وجدل في ذلك العصر : أينبغي أن تترك الدابة التي تقع في حفرة يوم السبت أم يجوز أن تنتشل ؟ هـذا سؤال اختلفت في الإجابة عليه الفريسيون والآسينيون . كذلك المناظرات الجدلية المتعلقـــة بالطلاق ، ووصايا الطهارة الشرعية ، ومسألة معاشرة العامة ، كلها وغيرها كانت من صميم موضوعات العصر . كذلك الصورة التي ترسمها الأناجيل الأربعة لبيئة فلسطين بلغت من الأمانة درجة جعلت أحد المؤلفين يقبل على كتابة تفسير مفصل للأناجيل مقتصراً على الاستشهاد بأقوال الفقهاء والرابونيين وأحكامهم وتقاليدهم. كما لاحظ بعض النقاد أن موقف اليهود من المحتلين الرومان ، كما تصفه الأناجيل ، لم يبلغ بعد حد الانفجار ، الذي يلمسه المؤرخ ، قبيل ثورة السنوات ٦٦ — ٧٠ . إذن ، فالفترة الانجيلية هي فترة السخط الدفين المتأهب التي لا تخالف سياق التاريـــخ . وينبغي أيضاً التلميح إلى بساطة الحكاية في الأناجيـــل ، وإلى الدقة في رواية الأحداث والأقوال المطبوعة على الصدق . ولو أننا أجرينا مقارنة بين طريقة عرض المعجزات في الاناجيل ، وعرضها في بعض المصـــادر

الأخرى غير القانونية ، لبرز بوضوح ما في الأولى من الإيجاز وضبط النفس والاعتدال في القول والمشاعر .

ولكن أخطر الملاحظات تتعلق بالجانب النفساني . لقد أثر يسوع في تلاميذه تأثيراً عميقاً ، لا نستطيع أن نتغاضاه في تعليل ما أظهروه من شجاعة عجيبة رغم موته على الصليب . أمن المعقول ان يكون مرجع ذلك كله الى الوهم ، على حسب مزاعم النقاد المتطرفين ؟ أيفسر الوهم هذا الحماس وهذه الحيوية التي تمثلت في الكنيسة الأولى ، بالرغم من مأساة أورشليم ؟ كيف تقوم حركة في مثل ضخامة الحركة المسيحية على توهم القيامة ؟ إن الإيمان بالمسيح ، هذا الايمان الذي نشأ وترعرع ونضج على توالي الأيام في معاشرة يومية ونشاط تبشيري مشترك ، هذا الإيمان وحده هو الذي يفسر سرعة انتشار الكنيسة . أما ان توعز الحركة إلى جماعة من المتحمسين المتهورين ، فهذا ادعاء تكذبه روح البذل والتعاون والتسامح والشهامة التي كانت من أبرز صفات الجماعة الاولى . لقد كانت بداية الطريق محفوفة بالمخاطر والصعاب ، ولكن الكنيسة استطاعت أن تتغلب عليها . أيعتبر هذا كله من نتاج الوهم ؟

وجاء من ادعى أن ما أصاب الاثني عشر من تطور شامل في أثناء العشرين او الثلاثين عاماً على موت يسوع ، جعلهم يبتدعون معتقداً جديداً لم يكن ليخطر على بال يسوع : هذا ادعاء لا يثبت أمام النقد، إذ كيف يعقل أن جماعة من المتحمسين لوحدانية الله ، الذين نشأوا على تقديس عظمته تعالى ، تنادي بيسوع مسيحاً ،أو تزعم أنه « عبد الله»

الذي تنبأ به أشعيا ، « وابن الإنسان » ، حسب النبي دانيال ، إن لم يكن يسوع قد سبقهم إلى المطالبة بهذه الألقاب لنفسه ؟

نحن نسلم بأن تعليم الإنجيل ليس من اليسير قبوله أحياناً . ولكن هل فكر المعارضون في المتاعب التي سيقحمون فيها أنفسهم ، لو أنهم رفضوها ؟ يكفي أن ننظر إلى التهم التي يتقاذف بها النقاد المتطرفون! ولا غرو ، فإن تصوراتهم للأحداث هي أدخل في باب القصة منها في التاريخ ، كما أن منهم من تلجئهم مبادئهم إلى استبعاد بعض النصوص ، رغم صحتها التي تشهد بها كل الأصول الثانية التي بين أيدينا .

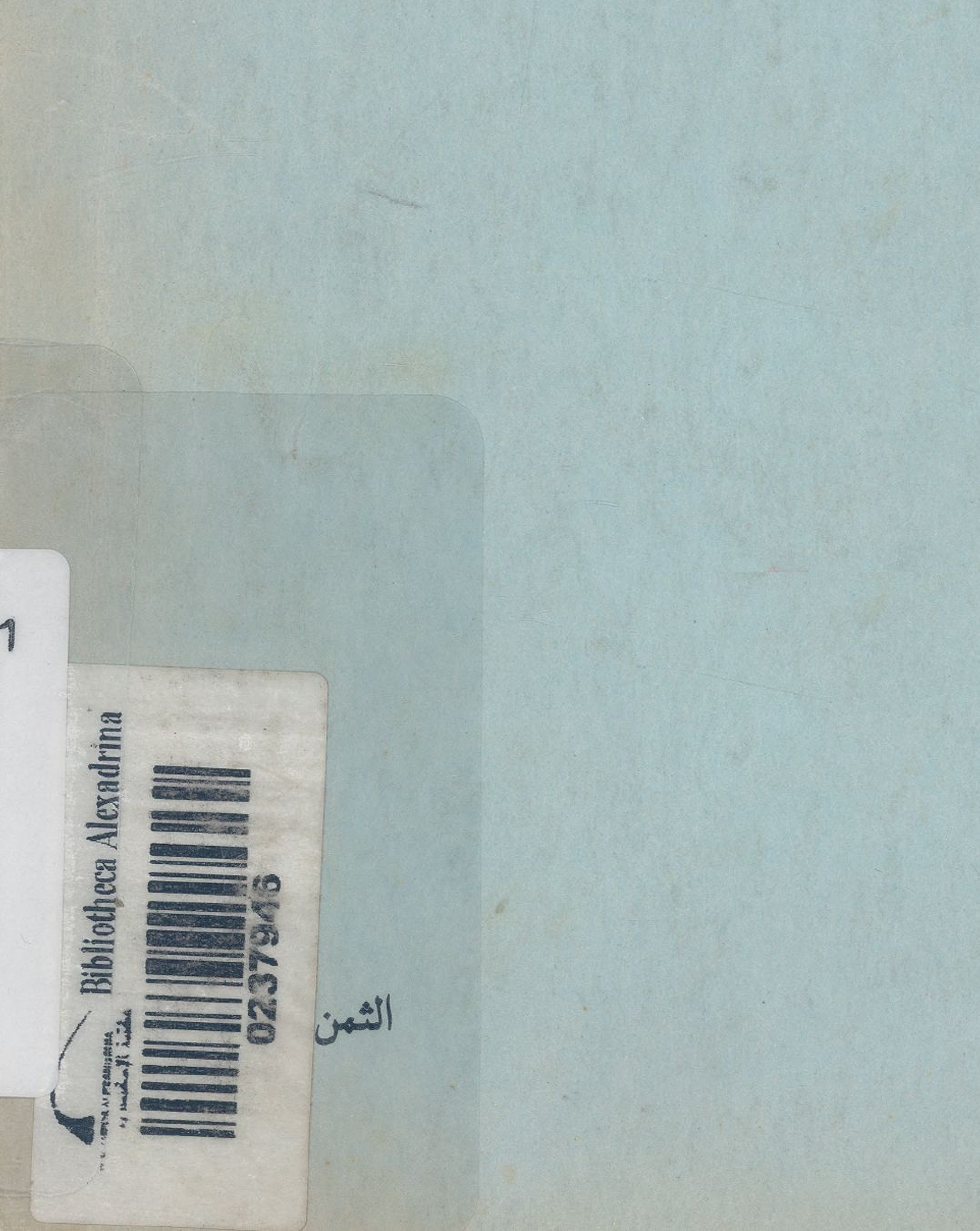
إذن ، فالمنهاج المنطقي السليم الذي يبقى لدى الباحث غير المتحير لمباديء فلسفية تتجاهل الواقع ، كمبدأ استحالة وقوع المعجزة ، أو استحالة تدخل عالم ما فوق الطبيعة في حياتنا ، هو منهاج النقد أو التفسير المعتدل الذي يقبل الأناجيل التاريخية ، ولا يتحرج من اصطناع اللين والمرونة ، في تأويل بعض التفاصيل الثانوية .

فهرست الموضوعات

تم طبع هذا الكتاب في بيروت
على مطابع دار الكلمة
سنة ١٩٦٦

تصحيح خطأ

صفحة	الخطأ	التصحيح
٥٩	وجوهم	وجوههم
٦٨	مجيد	تمجيد
٧٩	مشقاها	فشفاها
٨٦	وامرعم	وامرهم
٨٨	امم	تحذف
٩١	لو صنع صور	لو صنع في صور
٩٢	الابرة	الابوة
١٢٥	ويخطتلطان	ويختلطان
١٣٣	الى لم ، العا	الى العالم ،
١٤٣	جل	جعل
١٤٨	ملائكتكم	ملائكتهم
١٥٦	بققى	بقى
١٨٢	تعلقون	تعقلون
١٨٤	يشاهدن	يشاهدون
٢١٧	موضا	موضحاً
٢٨٢	العميان	العيان
٢٨٣	عدها	عهدها
٢٩٢	المعدودأة	المعدودة



الثمن